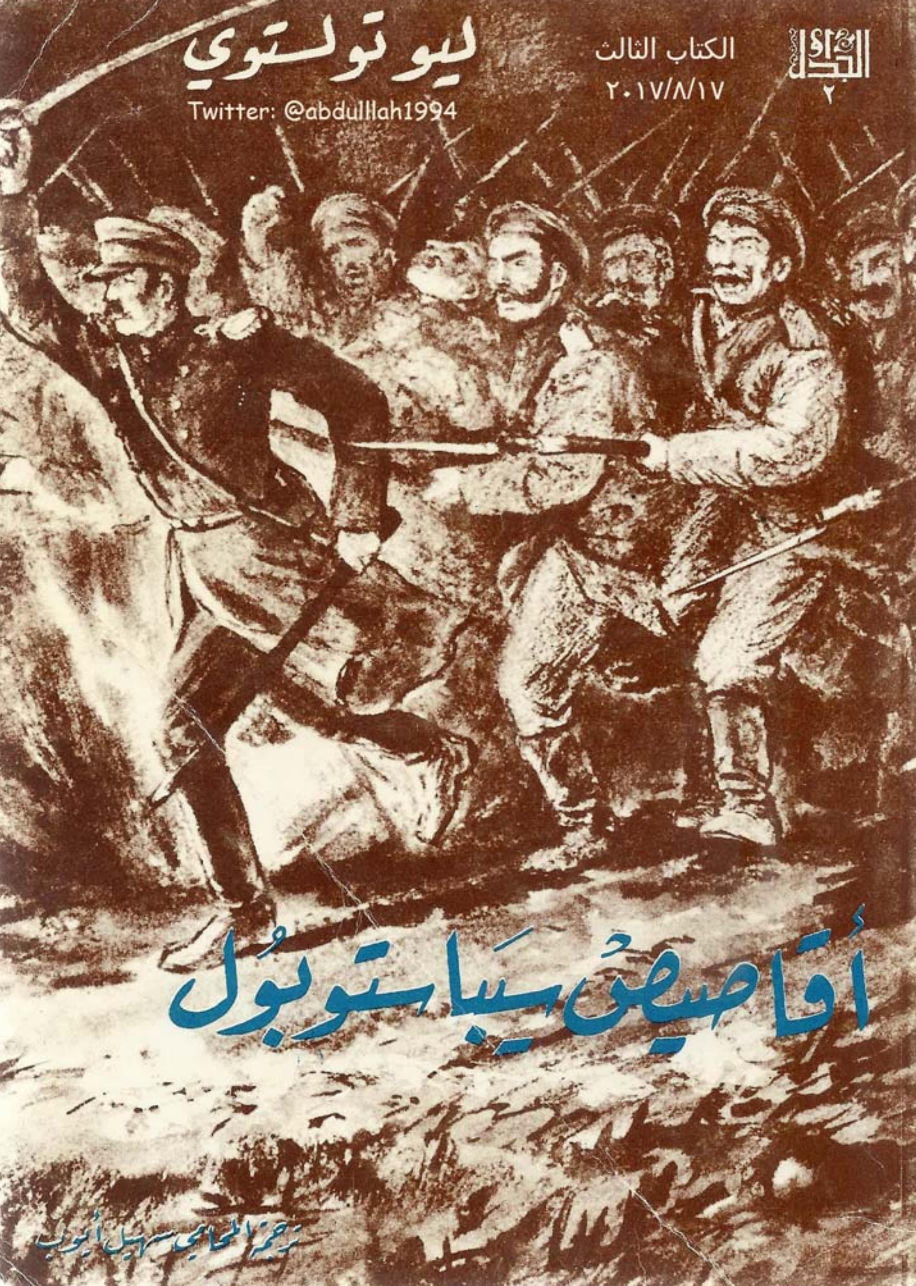

ليو تولستوي
Twitter: @abdullah1994
الكتاب الثالث
٢٠١٧/٨/١٧
أقاصيص سيباستوبول
ترجمة المحامي سهيل أيوب



٢

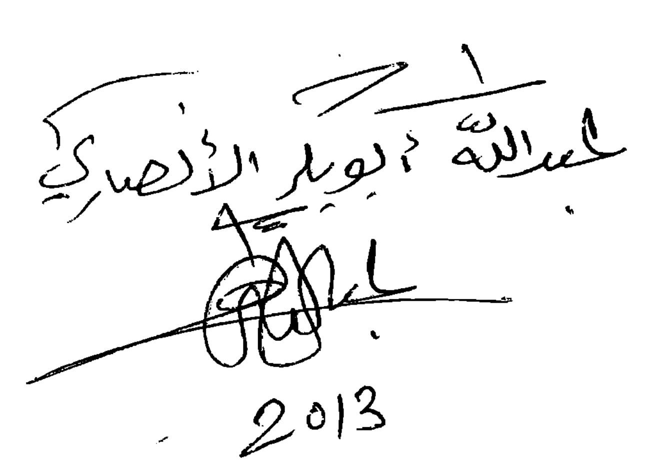
ليو تولستوي

أقاصيص سيباستوبول

ترجمة

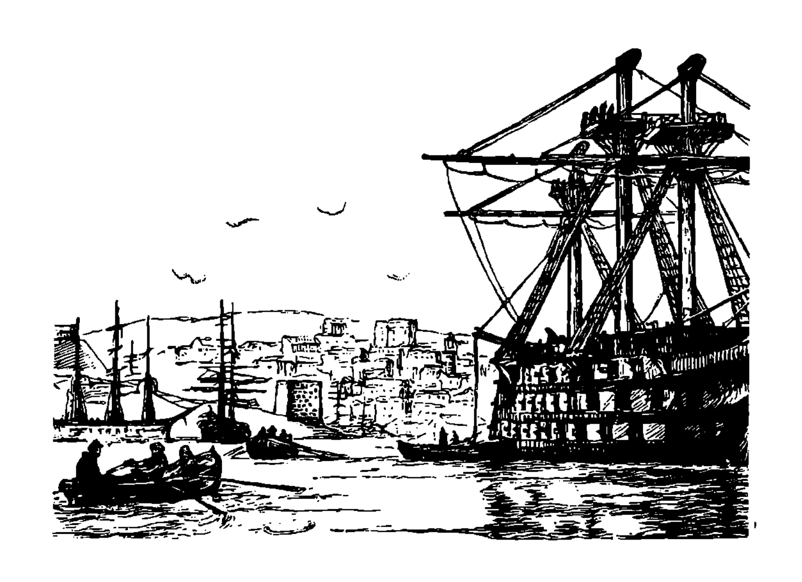
المحامي سهيل أيوب







أقاصيص سيباستوبول



سيباستوبول في كانون الأول ١٨٥٤

بدأت تباشير الفجر الأولى تلوِّن الأفق فوق هضبة سابون ، فنفض البحر الأزرق القاتم ظلمة الليل عنه ، وجعل يترقّب أول شعاع من شعاعات الشمس كيما يُرسِّل انعكاسات الأضواء على صفحته مغتبطاً جذلان . وهبَّ من الخليج الصغير تيار من هواء ضبابي بارد . لم يكن هنالك ثلج على الأرض السوداء ، لكنّ صقيع الصباح القارس يتحطم تحت قدميك ويخز وجهك مثل الإبر . وحدها همهمة البحْر المتواصلة البعيدة التي يمزِّقها بين الحين والحين قصفُ مدفعٍ من سيباستوبول تعكِّر هدوء الصباح . الصمت جاثم على السفن الحربية . ودقّت الأجراس معلنة الساعة الثامنة .

في الشمال شرع نشاط النهار يحلُّ شيئاً بعد شيء محلَّ راحة الليل : هنا بعض جنود يمُرّون لاستبدال خفير بآخر وبنادقهم تقرقع ؛ وهناك طبيب يُعجِّل خطاه إلى المستشفى ؛ وههناك جندي ينسلُّ خارجاً من مكمنه ويغسل وجهه الملوَّح بالماء المتجمِّد ، ومن بعدُ يستدير نحو الأفق المشتعل احمراراً ويتلو صلاته ويرسم على عجل إشارة الصليب : ثمة عربة تتارية تجرها الجمال ، صارفةً محاورها ، تتجه إلى المقبرة لدفن الجثث الدامية التي تكدَّست فيها إلى قمتها . فإذا اقتربتَ من الميناء خدشتْ أنفك رائحة خاصة هي مزيج من عفونة الفحم ، والزبل ، والرطوبة ، واللحم . إن آلاف الأشياء قد تراكمت إلى جانب الميناء : خشب ، ولحم ، وقفف من تراب ، وأكياس دقيق ، وحديد ، وما شابه ذلك . وثمة جنود من شتى الأفواج ، بعضهم يحملون أكياساً وبنادق ، وبعضهم لا يحملون شيئاً على الإطلاق يحتشدون هنا ، يدخنون ، ويتسابّون ، وينقلون طروداً ثقيلة إلى المركب الراسي قرب الرصيف العائم تصعِّد مدخنته عموداً من دخان . وهذه قوارب خاصة مزدحمة بأشتات من الناس ـ جنود ، وبحارة ، وباعة ، ونساء ـ تواصل اقترابها من الميناء أو ابتعادها عنه .

ـ إلى غرافسكايا ، يا صاحب السعادة ؟ أرجوك أن تجلس !

اثنان أو ثلاثة من الملاحين الشيوخ يعرضون عليك خدماتهم وهم يتدافعون خارج قواربهم .

تختار أنت أقرب قارب إليك ، وتخطو فوق حصان كميت تكاد جثته تكون متفسِّخة في وحل الرصيف ، وتمضي بخطواتك ناحية الدفة . ويبتعد القارب بك عن الشاطىء ، وهذا البحر حواليك يسطع الآونة بشمس الصباح . إلى الأمام منك بحار شيخ يرتدي معطفاً من وبر الجمل ، وفتىً أشقر الوجه ، يلطمان الأمواج بمجدافيهما وقد غلب عليهما الصمت . وتنظر حالماً إلى هياكل السفن الضخمة المخططة مبعثرة في الخليج ، وإلى زوارق الإنقاذ الشبيهة بنقاط سود على المنبسط اللازوردي الساطع ، وإلى الأبنية الجميلة المضاءة في المدينة وقد

ألقت عليها شمس الصباح أشعة وردية ، وإلى الخط الأبيض من الزبد المتماوج عند الميناء محيطاً بهياكل السفن الغارقة المطلّة منها هنا وهنالك رؤوس الصواري السوداء حزينة ، وإلى أسطول العدو ينبثق على أفقٍ بلوريّ ، وإلى الماء يرغي حول المجدافين وتنطلق منه فقاعات مالحة . وتصل إليك صيحات بشر تحملها الأمواج بين ضربات المجاديف المطَّردة المنتظمة التي يضربها الملاحون ، وترهف سمعك إلى الهزيم الهائل ، هزيم قصف المدافع الذي تخاله يشتدُّ ويتكاثف ناحية سيباستوبول .

يستحيل ألا يطغى على روحك إحساس بالبطولة والفخار حين يخطر لك أنك ، أنت أيضاً ، موجود في سيباستوبول ؛ وألا يتدفق الدم في شرايينك بمزيد من السرعة .

يعالنك البحار الشيخ قائلاً ، وهو يلتفت ليتحقق من حسن توجيهك دفة القارب :

ـ مباشرة إلى سفينة قسطنطين ، يا صاحب السعادة !

ويقول الفتى الأشقر ، وهو يتفحَّص السفينة التي يحاذيها القارب :

ـ ولا تزال محتفظة بجميع مدافعها !

فيشير البحار الشيخ ملاحظاً ، وهو يرمي السفينة بأنظاره :

ـ حسناً ، من دون ريب . كانت سفينة جديدة . وقد عاش كورنيلوف فيها .

ويصيح الفتى بعد طويل صمت ، وعيناه مشدودتان إلى سحابة بيضاء صغيرة من دخان متبدِّد ظهرت ، على حين فجأة ، في السماء عالياً فوق الخليج الجنوبي ، بينما انفجرت القذيفة مرسلةً دوياً صارخاً :

ـ أنظر ! أين تراها انفجرت ؟

ويضيف البحار الشيخ ، وهو يبصق في يده هادئاً :

ـ هذا «هو» يطلق النار اليوم من بطـارية مدفعية جديدة . والآن ، هلـمَّ اسحب ، يا ميشكا ! ولنتجاوزنَّ ذلك القارب الطويل .

وينزلق قاربك انزلاقاً أسرع على منبسط الماء المتموج الواسع ، ويتجاوز حقاً القارب الطويل الذي تكدست فيه أكياس كثيرة ويسوقه بصورة خرقاء مجموعة من الجنود ، فيشقُّ طريقه بين مختلف أشكال القوارب الراسية هنالك ، ويصل إلى رصيف غرافسكايا .

وهذا حشد من جنود يرتدون سترات رمادية ، وبحارة يلبسون ثياباً سوداء ، ونساء مبرقشات الأثواب يتماوج في صخب هنا وهنـالك على الميناء . وثمـة فلاحـات يبعـن الكعـك ، وفلاحـون روسيون يحملـون سماورات الشـاي ويصيحون : «شاي حار !» . وما أن تخطو ههنا حتى تلاقي عيناك قنابـل صدئة ، وقـذائف ، وشظـايا ، ومدافـع من مختلف القياسـات متناثـرة على الدرجات الأولى . وإلى أبعد من ذلك قليلاً ميدان كبير مفتوح حيث ثمة ألواح سميكة ضخمة من خشب ملقاة على الأرض بـين عربـات مدافـع وجنـود مستسلمين للنوم . وثمة خيول وعربات ذخيرة خضراء وحزم بنادق . وجنود ، وبحارة ، وضباط ، ونساء ، وأطفال ، وباعة يتحركون في جميع الاتجاهات . وتمرُّ عربات تحمل علفاً وبراميل وأكياساً . وبين حين وآخر يظهر قوزاقي ، أو ضابط على صهوة حصان ، أو جنرال في مركبة . وعن يمينك شارع أُغلق بمتراس تطلُّ من كوّاته فوهات مدافع صغيرة قعد بجانبها بحّار يدخِّن غليوناً . وعن يسارك ترتفع بناية جميلة حفرت على واجهتها حروف رومانية يقف إلى جانبها جنود يحملون نقالات ملطخة بالدم . في كل مكان تلمح عيناك دلائل معسكر حربي لا تسرُّ الناظر . ولا ريبة أن إحساساتك الأولى ستكون من أشدِّ الإحساسات ألماً : فهذا الاختلاط العجيب بين حياة المدينة وحياة العسكر ـ بين مدينة أنيقة ومخيَّم قذر ـ ليس قبيحا فحسب ، بل هو يشعرك بفوضى مزعجة : لسوف

يبدونَّ لك أن كلَّ فرد يعتصره الخوف ، وأن كل شيء مضطرب ؛ وأن أحداً لا يعرف ماذا ينبغي أن يفعل . وإذا حدَّقت في وجوه الناس الذين يتحركون من حولك فلسوف تصل إلى إحساس مختلف الاختلاف كله . أنظر مثلاً إلى جندي الجرِّ ، هذا الذي يتمتم بينه وبين نفسه وهو يقود إلى الماء ثلاثة خيول كُمْتٍ ، ويقوم بعمله في هدوء وسكينة بحيث يتراءى لك أنه لن يضيع في هذاالجمهور المتنوِّع المختلط الذي لا وجود له في نظره ، بل سيؤدي واجبه مهما كان هذا الواجب ـ سواء كان عليه أن يورد الخيل الماء أم أن يجر أحد المدافع ـ وذلك في هدوء ، وثقة وعدم اكتراث كما لو كان ذلك يحدث في مدينة تولا أو في مدينة سارانسك . ولسوف تقرأ هذا التعبير ذاته في سيماء ذيالك الضابط الذي يمرُّ بقربك وقد لبس قفازين أبيضين أنيقين ؛ وفي ملامح ذلك البحار الذي يدخِّن وقد جلس على المتراس ؛ وفي وجوه أولئك الجنود الذين ينتظرون في رواق البناء الذي كان يُطلق عليه أسم «قاعة الاجتماعات» ؛ وتقرؤه في طُلعة هذه الفتاة التي تخاف أن يتسخ ثوبها الزهري فراحت تعبر الشارع متواثبةً من بلاطة الى بلاطة .

ـ بلى ، لسوف تتحرَّر من الوهم حينما تدخل إلى سيباستوبول أول مرة . لسوف تنظر عبثاً في أي من هذه الوجوه بحثاً عن أية آثار لاضطراب أو ارتباك ، أو آثار حماسة وتصميم أو انتظار للموت ـ أنت لن تجد شيئاً من هذا كله . لن تلقى غير أناس عاديين جداً ، انصرفوا إلى أعمالهم اليومية بهدوء ، حتى أنك توبّخ نفسك على المبالغات التي صوَّرها لك خيالك الملتهب عن بطولات المدافعين عن سيباستوبول . لقد رسخت هذه الآراء في ذهنك نقلاً عن حكايات وأوصاف ومشاهدات وضجيج الأشياء التي شُوهدتْ وسُمعت في الناحية الشمالية . وأنا أطلب إليك ، قبل أن تستسلم للظنون ، أن تكلِّف نفسك عناء النزول إلى التحصينات لرؤية المدافعين عن سيباستوبول في

أماكن صراعهم ، أو أن تدخل إلى هذا المبنى القائم أمامك وكان من قَبْلُ مقرَّ غرف نواب سيباستوبول ، وتدلف إلى الرواق الذي يقف فيه الجنود مع نقالاتهم . هنالك ترى المدافعين عن سيباستوبول ، وتقع عيناك على مشاهد رهيبة وحزينة ، رائعة ومضحكة ، لكنها تبعث على الدهشة دائماً ، وتثير النفس حماسةً .

وتدلف أنت إلى قاعة الاجتماعات ، وما أن تفتح الباب حتى تفجأك رؤية ورائحة أربعين أو خمسين رجلاً بترت بعض أعضائهم أو أصيبوا بجروح خطيرة ، تمدَّدت جماعةٌ منهم على مضاجع وافترش أكثرهم الأرض . حذارِ عندئذ من الإحساس الذي يوقفك عند العتبة لأنه إحساس خاطىء . ولا تخجل لأنك أتيت في الظاهر تتأمل أولئك الذين يتألمون ، ولا تتردَّد في الاقتراب منهم والتحدث إليهم . فالمتألمون يحبون أن يروا وجوهاً تتعاطف معهم ، ويلتذون في الحديث عن آلامهم وسماع كلمات الحب والعزاء . وتمرُّ أنت بين صفوف المضاجع باحثاً عمَّن يعبِّر وجهه عن قليل من التوتر والألم كيما تجد في نفسك الشجاعة على الاقتراب منه والحديث معه :

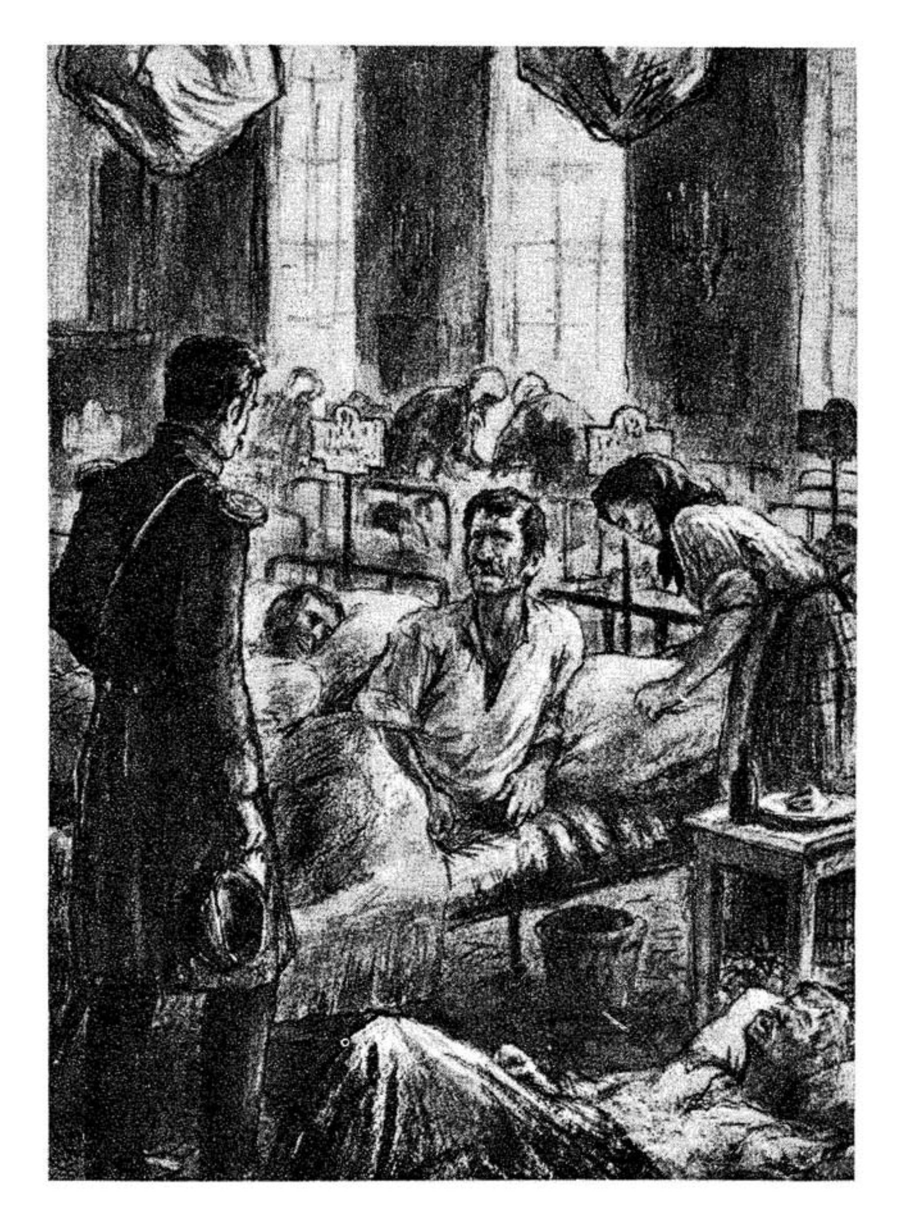
ـ أين هي إصابتك ؟

أنت تسأل في تردد وخجل جندياً عجوزاً يكاد أن يكون عظماً وجلداً ، اقتعد مضجعه يتابعك بنظرة لطيفة كمن يدعوك أن تدنو منه . أقول أتكلم وجلاً لأن رؤية الألم توقظ في النفس ـ عدا الشفقة العميقة ـ خوفاً من إيذاء المتألم واحتراماً عظيماً له .

ويردُّ عليك الجندي العجوز قائلاً :

ـ في ساقي .

غير أنك تلمح في اللحظة ذاتها ، من ثنيات الغطاء ، أن إحدى ساقيه مبتورة فوق الركبة .



ويسترسل الجندي العجوز قائلاً :

ـ حمداً لله ! فأنا على استعداد لمغادرة المستشفى الآن.

ـ هل مضى عليك طويلُ زمنٍ منذ جُرِحْتَ ؟

ـ حسناً ، أكثر من خمسة أسابيع ، يا صاحب السعادة !

ـ ألا يزال جرحك يوجعك ؟

ـ كلا . أنا لا أحس الآن بوجع . أما حين يسوءُ الجوُّ فأشعر بما يشبه الألم في ربلة الساق . وعدا هذا فكل شيء على خير ما يُرام .

ـ وكيف حدث أن جُرِحْتَ ؟

ـ حدث ذلك وأنا في التحصين الخامس ، يا صاحب السعادة ، خلال القصف المدفعي الأول . صوَّبتُ المدفع وخطوتُ الى الكوة الثانية ، فإذا «هو» يصيبني في ساقي . شعرت أنني أتهاوى في حفرة . وتطلعت ـ فإذا ساقي قد طارت .

ـ أتقصد أن تقول إنك لم تشعر بألم في اللحظة الأولى ؟

ـ لم أشعر بشيء . أحسست كأن سائلاً شديد الحرارة انسكب على ساقي .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شيء أيضاً بعد ذلك ، إلا حينما شرعوا يشدون لي جلدي ، حيث خُيِّل إليَّ أنني أشعر بألم شديد . الشيء الرئيسي ، يا صاحب السعادة ، هو ألاّ «يفكر المرء في الأمر» . فإذا لم تفكِّر في الأمر لم يكن هذا الأمر شيئاً مذكوراً . ولكنَّ الشرَّ كله يأتي من أن الإنسان يفكِّر .

في تلك اللحظة تدنو منك امرأة في ثوب رمادي مخطط تلفُّ رأسها بمنديل أسود ، وتتدخل في حديثك مع البحار ، فتروح تحدثك عنه ، وعن الآلام التي قاساها ، وعن حالة اليأس التي مرَّ بها طوال أربعة أسابيع ؛ وكيف استوقف عند إصابته جنود النقالة ليشاهد بأُمِّ عينيه وابـل القـذائف التـي تطلقهـا

بطاريتنا ؛ وكيف أن الدوق الكبير تحدَّث معه ونفحه بخمسة وعشرين روبلاً ؛ وكيف أعلن لهم عن رغبته في العودة إلى التحصين ليعلِّم الجنود الشبان إنْ هو أصبح عاجزاً عن القيام بالعمل بنفسه . هذه المرأة تتدفَّق في الحديث ناظرة إليك حيناً ، وحيناً إلى البحار الذي أشاح بوجهه وراح يهيىء ضمادة من الكتان على وسادته وكأنه لا يصغي إلى كلماتها . وتسطع عينا المرأة بهجة لا تعرف حدوداً .

ـ هذه امرأتي ، يا صاحب السعادة .

يخاطبك البحار بهذه العبارة وكأن هيئته تقول : «ينبغي أن تعذرها . فمن عادة المرأة أن تهرف كثيراً» .

وتشرع الآونة تفهم المدافعين عن سيباستوبول ، وتشعر لسبب أو آخر بنوع من الخجل من نفسك في حضرة هذا الرجل . أنت تودُّ أن تقول له أشياء كثيرة تشرح بها حبك له وإعجابك به ، غير أن الكلمات المناسبة تهرب منك ، والكلمات التي توافيك لا ترضيك ، فلا تفعل أخيراً غير أن تحني رأسك في صمت أمام هذه العظمة الصامتة التي لا تشعر بذاتها ، أمام هذه النفس القوية الصامدة ، أمام هذا الخجل من إقرار الرجل بمزاياه .

وتقول له :

ـ حسناً . أسأل الله أن يعافيك سريعاً .

وتستدير إلى مريض آخر ، مضطجع على الأرض ، يبدو كمن ينتظر الموت وهو يعاني آلاماً مبرحة .

إنه رجل أشقر الشعر متورِّم الوجه شاحبه ، اضطجع على ظهره ، وقد ردَّ ذراعه اليسرى إلى وراء بصورة تنبىء أنه يعاني آلاماً رهيبة ، وأنفاسه الخشنة تخرج بصعوبة من فمه اليابس المفتوح . كانت عيناه الزرقاوان الكئيبتان منزلقتين إلى الأعلى ، وقد انبجس من تحت الغطاء المتشابك الجزء المتبقي من

ذراعه اليمنى المضمَّدة . وتملأ صدرك وأنت تقترب منه رائحة ثقيلة من روائح الجثث فكأن الحمّى التي تشوي أعضاء هذا الانسان الشقي تنفذ إلى جسمك أنت أيضاً .

وتسأل المرأة التي لحقت بك ، وهي تحدّق إليك بنظرة فيها عاطفة مثلما تنظر إلى شخص من ذوي قرباها :

ـ أهو مغمىً عليه ؟

ـ كلا ، بل هو لا يبرح يسمع ، ولكن قليلاً جداً .

وتستتلي المرأة قائلة في صوت مهموس :

ـ سقيته قليلاً من الشاي هذا النهار ـ أنا لا أعرفه ، ولكن ينبغي على المرء أن يحمل في قلبه شفقة ـ لكنه لم يستطع أن يشرب جرعة إلا بمشقة بالغة .

وتستوضحه :

ـ كيف حالك ؟

فيدير الرجل الجريح عينيه ناحية صوتك ، لكن من دون أن يراك أو يفهم كلامك . ويقول في أنين :

ـ قلبي يحترق .

أبعد منه قليلاً تبصر جندياً عجوزاً يبدِّل قميصه ، لوجهه وجسده لونٌ أسمرُ محمرٌّ ، وهو هزيل مثل هيكل عظمي ، فَقَدَ إحدى ذراعيه . بتروها عند الكتف . وهو يجلس ثابت الجذع . لقد شفي من مرضه . غير أن نظرته الكابية الثقيلة ، وهزاله الرهيب ، والتجاعيد التي تغضّن وجهه تكشف عن أن زهرة عمر هذا الإنسان انقضت في العذاب والألم .

على المضجع المقابل تلمح امرأة وجهها الرقيق شاحب يعبِّر عن وجع وتوتُّر ، وقد تورَّد خداها من جراء الحمّى .

تقول لك المرأة الدليل :

ـ هذه امرأة أحد بحارتنا . أصابتها قذيفة في ساقها في اليوم الخامس[1] . كانت تحمل الطعام لزوجها في التحصين .

ـ بتروا ساقها ؟

ـ نعم . فوق الركبة .

والآن ، إذا كانت أعصابك قوية فادلف من هذا الباب إلى اليسار . ههنا يقومون بالتضميد والعمليات . ههنا سوف ترى أطباء اصفرَّت وجوههم واربدَّت ، وانصبغت أذرعهم بالدماء حتى مرافقها ، منهمكين عند مضجع استلقى فيه جريح يهذي بتأثير الكلوروفورم . إن عينيه مفتوحتان ، وهو يردِّد كلاماً متوحشاً تتخلَّله في الأحايين جملٌ بسيطة مؤثرة . الأطباء منصرفون تماماً إلى القيام بعملهم المنفِّر لكنْ الضروري . إنها عملية بتر . سوف ترى السكين الحادة المقوَّسة تنفذ في اللحم الأبيض من جسم سليم ، وتسمع الجريح ، وقد استردَّ شعوره بغتةً ، يطلق صيحة رهيبة ممزَّقة وشتائماً مقذعة ، والممرِّض يرمي الذراع المبتورة في إحدى الزوايا . وفي الغرفة ذاتها ستشاهد جريحاً آخر ممدداً على محفَّة يتأمل العملية ويتلوَّى ويئنُّ خوفاً مما ينتظره هو أيضاً . سترى مشاهد رهيبة تقلب نفسك رأساً على عقب ؛ سترى الحرب لا في مظهرها الجميل المجيد وصفوفها البراقة وموسيقاها وضربات طبولها وراياتها الخفّاقة وجنرالاتها على خيولهم المتوثبة ، بل الحرب في مظهرها الدموي الحقيقي ، وفي عذاباتها ، وفي الموت ...

وحينما تهرب خارجاً من منزل الألم هذا تشعر بشيء من الارتياح حتماً ، فتتنفَّس الصعداء ، وتستنشق الهواء النقيَّ ، وتنشرح من شعورك بحسن صحتك . غير أن رؤيتك تلك العذابات تجعلك تدرك تفاهتك وحقارتك ، فتتجه

(١) بدأت القذائف تنصب على سيباستوبول أول مرة في الخامس من تشرين الأول ١٨٥٤ حسب التقويم الروسي القديم ، أي في السابع عشر من تشرين الأول حسب التقويم الجديد .

في خطوات هادئة غير مترددة نحو التحصينات .

«ترى ، ما أهمية موت وعذاب هذه الدويدة الحقيرة التي هي أنا بالقياس إلى تلك الكتلة الكبيرة من القتلى ، وتلك الآلام الكثيرة التي يعانيها الآخرون ؟» . ولكن منظر السماء الصافية ، والشمس الساطعة ، والمدينة الجميلة ، والكنيسة المفتوحة ، والجنود المتجهين إلى كل مكان ، ذلك كله لا يلبث أن يردَّك إلى حالك الطبيعية ، حال عدم الاكتراث . فتعود إلى الانشغال بشؤونك الصغيرة ، والاقتصار على حبِّ اللحظة الحاضرة . وقد تلتقي أثناء تجوُّلك جنازة ضابط من الضباط خارجة من الكنيسة ، والنعش الوردي ترافقه الرايات الخفاقة والموسيقى ، وأصوات القصف بالمدافع الآتية من التحصينات قد تترامى إلى أذنيك . لكنَّ هذه الأمور لن تعيد إليك أفكارك القديمة . فلسوف تبدو الجنازة العسكرية منظراً جميلاً مهيباً ، وأزيز الرصاص مظهراً من مظاهر الحرب ، فلا مظهر الجنازة ولا قرقعة الرصاص سيولدان في نفسك تصوراً واضحاً دقيقاً لما شهدت بنفسك من تصوُّر الآلام وتصوُّر الموت ، كما حدث لك في المستشفى قبل قليل .

إذا تجاوزت الكنيسة والمتراس ، ودخلت الى أنشط جزء في المدينة الزاخرة بالحياة ، شاهدت على جانبي الشارع لافتات متاجر ومطاعم ، ولقيت باعة ونساء تزدان رؤوسهن بقبَّعات أو مناديل ، وضباطاً غنادير ـ كل شيء هنا يفوح ثقة وطمأنينة هادئة ، ويدلُّ على ثبات النفس وشعور السكان بالطمأنينة والأمن .

وإذا رغبت في سماع محادثات ضباط البحرية والجيش فادخل المطعم الصغير عن يمينك . هنالك تسمع إليهم يتحدثون عن أحداث الليل الماضي ، وعن فانكا ، وعن قضية الأربعة والعشرين[1] ، وعن غلاء سعر الكستليتة غلاء

(١) الرابع والعشرون من تشرين الاول تاريخ معركة إنكرمان .

فاحشاً ، وكيف أن فلاناً وفلاناً من رفاقهم قتلوا في المعارك .

ـ الحال سيئة جداً عندنا اليوم !

هذا ما يقوله ، بصوت أجشّ ، ضابط بحرية صغير حليق الذقن أشقر الطلعة دثّر عنقه بمنديل أخضر من الصوف .

ويسأل ضابط آخر :

ـ أين كان ذلك ؟

فيردُّ الضابط الشاب :

ـ أوه ، في الحصن الرابع .

وحين تصافح أذنيك هاتان الكلمتان : «الحصن الرابع» لا تستطيع إلا أن تحدِّق في هذا الضابط الأشقر بمزيد من الانتباه وشيء من الاحترام . إن ما يدلُّ عليه مظهره من فرط الانطلاق ، وما تبديه يداه من حركات وإشارات ، وما يرنُّ في ضحكه من صخب وفي صوته من شدة ، هذا الذي بدا لك من قَبْلُ وقاحة خالصة سيبدو لك الآن تعبيراً عن نفسية خاصة تشعر بالاستعداد للقتال تستولي أحياناً على بعض الشبان الصغار بُـعَيْدَ نجاتهم من خطر كبير . وأثناء ذلك تنتظر أن يصف لك الفتى مدى شراسة الفوضى التي أثارتها القذائف والرصاص في الحصن الرابع . غير أنه لا يفعل شيئاً من هذا البتة ! ليبدونَّ أن الطين هو الذي جعل الحال سيئة هناك . وها هوذا يسترسل شارحاً ، وهو يشير إلى جزمتيه المكسوتين بالوحل حتى ربلتي الساقين :

ـ يستحيل على المرء أن يصل إلى سرية المدفعية !

ويتدخل امرؤ آخر في الحديث قائلاً :

ـ وقد فقدتُ أحسن مدفعيٍّ عندي . أُصيب برصاصة في جبينه .

ـ من هو ؟ ميتوخين ؟

ـ لا ...

وهتف موجهاً حديثه إلى الخادم :

ـ أفلن أحصل على لحم العجل الذي طلبتُ ، أيها الوغد ؟

ويكمل كلامه قائلاً :

ـ ليس هو ميتوخين ، بل أبراموف ـ كان رجلاً رائعاً اشترك في ست طلعات .

في الطرف الآخر من المنضدة جلس ضابطان من سلاح المشاة إلى طبقين من الكستليته والبازلاء وزجاجة من خمرة القرم الحامزة التي يسمونها «بوردو» . أحدهما ، وهو شاب ذو ياقة حمراء ومعطف تزينه نجمتان صغيرتان ، يروي للآخر ذي الياقة السوداء والمعطف الخالي من النجوم قضية آلما . الضابط الأول مخمور ، والوقفات التي تتخلّل قصته ، والحيرة المرتسمة على وجهه ـ المعبرة عن شكوكه في تصديق كلامه ـ خاصة وأنه يغالي في وصف الدور الذي قام هو به ، ويضخِّم ما تتصف به القضية من هول ، يدلُّ على أنه ابتعد عن الحقيقة ابتعاداً كبيراً حقاً . ولكنك لا تبالي كثيراً بهذه القصص التي ستسمع كثيراً من أمثالها في جميع أنحاء الروسيا . أنت تريد أن تنطلق سريعاً إلى التحصينات ، وبخاصة الحصن الرابع الذي طالما سمعتَ عنه أقوالاً وأحاديث شتى . وحين يقول أحد الناس : «إنني ذاهب إلى الحصن الرابع» ، فأنت تستشفُّ دائماً في نبرة صوته نوعاً من الانفعال ، أو تلاحظ أنه يصطنع عدم المبالاة اصطناعاً . وحين يودُّ أحدهم أن يمازحك عاتباً ، فهو يقول : «أنت من يجمل أن يذهب إلى الحصن الرابع» . وحين تلقى رجلاً محمولاً على نقالة ، فتسأل : «من أين ؟» ، فأنت تسمع هذا الجواب في أكثر الأحيان : «من الحصن الرابع» . في أمر هذا الحصن الرهيب رأيان مختلفان تماماً : رأي أولئك الذين لم يضعوا أقدامهم فيه يوماً والذين هم مقتنعون اقتناعاً جازماً أن كلَّ من يذهب إليه لا بدَّ أن يموت ، ورأي أولئك الذين ، مثل ذلك الضابط الأشقر ، يعيشون فيه ، والذين إن حدثوك عنه لا يزيدون عن القول إن الأرض فيه جافة أو موحلة ، وإن الجوّ في

ملاجئه دافىء أو بارد ، وما شابه ذلك .

خلال نصف الساعة الذي قضيت في المطعم تبدَّل الجوُّ. تكاثف الضباب الذي انتشر على البحر غيوماً رطبة رمادية كالحة تحجب وجه الشمس . وراحت قطرات من مطر متجمد تهطل وتسيل على الأسطح ، والأرصفة ، ومعاطف الجنود .

إذا اجتزت متراساً آخر فأنت تمرُّ من بعض الأبواب الواقعة عن يمينك ، وتصعد شارعاً كبيراً . خلف هذا المتراس تجد المنازل على جانبي الشارع مهجورة من سكانها : فليس ثمة لافتات على المتاجر ، والأبواب مسمَّرة بألواح من خشب ، والنوافذ مهشمة ، وهنا زاوية من جدار تهدَّمت ، وهناك سطح من الأسطح قد تمزَّق . وتبدو الأبنية أشبه بمحاربين قدامى عانوا أنواعاً من الآلام والبؤس والشقاء ، فهم يبدون كمن ينظرون إليك من علٍ نظرة فيها شيء من احتقار . وعلى الطريق تصطدم قدمك بقنابل ملقاة على الأرض ، وتجتاز حفراً في الأرض الحجرية أحدثتها قذائف المدافع فامتلأت بالماء . وتلقى جماعات من جنود وقوزاق وضباط ، ثم تخلِّفهم وراءك ؛ ومن حين إلى آخر ترى امرأة أو طفلاً ، والمرأة بغير قبعة فهي زوجة بحار ، ترتدي معطفاً عتيقاً وتنتعل جزمتين عسكريتين . وبعد أن تهبط منحدراً صغيراً في ذيالك الشارع يكفُّ بصرك عن رؤية المنازل ، بل تروح تشاهد جدراناً مهدمة بين أكوام غريبة من أنقاض ، وألواح خشبية ، وتراب ، وعوارض . وأمامك ، وأمامك ، فوق قمة رابية ، تمتدُّ مساحة من الأرض سوداء قذرة مخدَّدة بحفر . في هذا المكان تقترب من الحصن الرابع ... ههنا أقفر الشارع من الناس إلا قليلاً ، فلا تشاهد الآن نساء على الإطلاق . والجنود يسيرون مسرعين . وههناك آثار من الدم على الطريق . ولسوف يطالعك أربعة جنود يحملون نقالة تنظر إليها فتشاهد وجهاً منكفئاً أصفر اللون ، وترى معطفاً مدمىً . فإذا سألت : «أين أصيب ؟» ، أجابك

حاملوه بلهجة كالحة دون أن ينظروا اليك : «في ساقه» أو «في ذراعه» ، وذلك حين لا تكون الإصابة خطيرة . أما إذا لم ترَ على النقالة رأساً ، وكان الجريح قد مات أو كان في حالة سيئة ، فهم يمرّون دون أن ينبسوا بكلمة واحدة .

وتصفر قذيفة أو قنبلة على مقربة منك حين تبدأ تصعد في الرابية فيختلف معنى هذه الأصوات عن ذلك المعنى الذي سبق أن بلغك وأنت في المدينة . وتومض في ذهنك على حين فجأة ذكرى هادئة عذبة : إن إحساسك الشخصي سيشرع في نسخ حيوية قوى ملاحظاتك ، فتروح تلاحظ الأحداث الخارجية بانتباه أقلّ ، ويتسلّل إليك شعور مزعج بالتردُّد . ولكنك ستخرس ذلك الصوت الحقير الصغير الذي استيقظ بغتة في نفسك أمام الخطر ـ لا سيّما وأنك لمحت جندياً يجتازك راكضاً وهو يحرِّك ذراعيه ضاحكا ، ثم ينزلق عن الرابية في الطين الأصفر ـ فتنفُخ أنت صدرك بغير إرادتك ، وترفع رأسك عاليا ، وتمضي ترتقي الرابية الصلصالية الدبقة . وما أن تتقدَّم قليلاً حتى تسمع أزيز رصاص يتقاطر عن يمين وعن يسار في وقت واحد ، فتتساءل في تلك اللحظة أليس أدنى إلى الحكمة رغم كل شيء أن تحتمي بالخندق المحاذي للطريق . غير أن الخندق يعجُّ الى ما فوق الركب بوحل سائل أصفر يبعث على القيء ، فتؤثر أن تواصل السير على الطريق ، خاصة وأن «جميع الناس» يفعلون ذلك . فإذا مشيتَ قرابة مائتي خطوة وصلت على حين فجأة إلى أرض وحلة مخربة محاطة بمتاريس ، وأقبية ، وأتربة ردم ، وملاجيء ، وكذلك مصطبات تحمل مدافع ثقيلة من الصلب وتتراكم فوقها قنابل على صورة أهرامات غير منتظمة . ههنا ستشعر بأن كل شيء وُضِعَ من دون ما هدف ، أو خطة ، أو صلة ، أو نظام . فهنا يجلس جماعة من البحارة على سرية مدفعية . وهناك ، وسط المصطبة ، يغور الى نصفه في الوحل مدفعٌ محطم مهجور . وهنالك جندي قصير من المشاة يحاول أن يشقَّ لنفسه طريقاً بين سرايا المدفعية وهو يحمل سلاحه . ويتقدَّم في كثير من

عناء في الطين الذي تلتصق به قدماه عند كل خطوة يخطوها . وأيّانَ اتجهت ببصرك فيما يمتد حواليك تجد الأرض وقد انتشرت فوقها شظايا وقنابل لم تنفجر ، وآثار مخيّم ، وذلك كله غارقاً في سائل دبق . ويخال لك أنك تسمع قنبلة تسقط غير بعيد عنك ، وتظن أنك تسمع رصاصات ترنُّ أصداؤها في جميع الاتجاهات ، بعضها رنينه يشبه طنين النحل ، وبعضها يصفر صفيراً ، يمزّق الهواء بصوته الحاد الشبيه بصوت وتر مهتزٍّ . وتتناهى الى سمعك ضجة رهيبة لقذيفة مدفع تنطلق فجأة فترجُّ كل شيء حولك ، فتنتفض كأن أمراً مثيراً للرعب حدث على غير انتظار .

تخاطب نفسك وأنت تشعر بشيء من اعتزاز يشوبه كثير من رعب مكثّف : «هذا هو إذن الحصن الرابع ! هذه هي البقعة المرعبة الرهيبة !» ولكنك مخطىء . فما أنت في الحصن الرابع بعد . هذا متراس بازونوفسكي ـ وهو إذا ما قيس بغيره مكانٌ قليل الخطر ما فيه شيء رهيب . وكيما تبلغ الحصن عليك أن تسير يميناً في ذلك الخندق الضيق الذي اجتازه الجندي القصير من جنود سلاح المشاة وقد حنى قامته . فإذا سلكت ذلك الخندق فقد تلتقي برجال من حملة النقالات مرة أخرى ، أو ربما ببحار أو جندي يحمل مجرفة ، وسوف تبصر أقنية ألغام وملاجىء موحلة لا يستطيع أن يلوذ إليها أكثر من رجلين زاحفين ، وتجتمع بقوزاقيين من سرايا مدفعية البحر الأسود يخلعون أحذيتهم ،ويأكلون ، ويدخنون غلايينهم ، وباختصار يعيشون يومهم . ومن جديد ترى أنت ذات الوساخة التي تنشر رائحة كريهة ، وآثار مخيَّم ، وحطام فولاذ من مختلف الأشكال والأنواع . وإذا اجتزت ثلاثمائة خطوة أخرى وجدت نفسك من جديد في سرية مدفعية ـ ساحة تملؤها حفر عديدة ، وتحيطها متاريس ، وتلال ردم ، ومدافع جعلت على مصاطب ، وأسوار من طين جاف . ولقد تبصر ههنا جماعة من أربعة أو خمسة جنود يلعبون الورق محتمين بالمتراس ، وترى ضابطاً بحاراً

حزر أنك شخص غريب طُلعة فأسرع يرضي حُبَّ اطلاعك ويريك «ميدانه» مسروراً ، أو يعرِّفك على ما قد يهمك أن تعرف . هذا الضابط يقتعد مدفعاً ، ويلفُّ سيجارة صفراء في رباطة جأش مُطلقة ، ويسير من كوة في الحصن إلى كوة في هدوء تام ، ويحدثك حديثاً تخلو طمأنينته من أي تصنُّعٍ بحيث أن السكينة تستولي عليك رغم أن الرصاص ازداد أزيزه حولكما ، فتروح تسأله مزيداً من تفاصيل ، وتهب له أذنيك مصغياً إلى ما يرويه لك . لسوف يحكي لك (لكن إذا سألته فحسب) ما حدث من قصف في اليوم الخامس من تشرين الأول ، ويسرد عليك أن مدفعاً واحداً من سرية مدفعيته بقي قيد الاستعمال ، وكيف لم يبق من سدنة المدافع غير ثمانية رجال ، وكيف استطاع رغم ذلك كله منذ اليوم التالي ، السادس من الشهر ، أن يُطلق النار من مدافعه جميعاً . وسيصف لك كيف أن قذيفة أطلقها العدو سقطت على ملجأ فقتلت أحد عشر بحاراً . وسيريك من خلال إحدى الكوى سرايا مدافع العدو وخنادقه التي لا تبعد عن هذا المكان أكثر من خمس وسبعين ياردة . لكنني أخشى عليك ، حينما تخرج رأسك من الكوة ، ألا تبصر شيئاً بتأثير طنين الرصاص ، وإذا رأيت شيئاً فستصيبك دهشةٌ كبيرة حين تعلم أن هذا الجدار الحجري الأبيض الذي يبدو لك قريباً جداً والذي ينبجس فوقه دخان أبيض ـ هو خطوط العدو ، فهنالك «هو» ، على حدِّ تعبير الجنود والبحارة .

وربما شعر الضابط البحري ، غروراً أو في سبيل تسليتك قليلاً ، بحاجة الى إطلاق النار ، فيصيح : «الملقمون جميعاً إلى مراكزهم !» ، فإذا أربعة عشر بحاراً حدوات نعالهم ترنُّ على المصطبة ، وأحدهم يدسُّ غليونه في جيبه ، والآخر يمضغ ما تبقى من قطعة بسكويت ، يهرعون إلى المدفع فوراً في همة ونشاط ويلقِّمونه . أنظر ملياً الى هذه الوجوه وراقب عرض أكتاف أصحابها وحركاتهم . لسوف تكتشف في كل غضن من غضون هذا الوجه

الملوَّح البارز الوجنتين ، وفي كل عضلة من تلك العضلات ، وفي عرض هذه الأكتاف ، وفي ثخن هذه الأقدام التي تنتعل جزمات ضخمة ، وفي كل حركة هادئة واثقة مبرأة من عجلة ، سوف تكتشف في هذا كله المزايا الأساسية التي تشكل قوة الرجل الروسي ـ البساطة والعناد .

وفجأة تقرع ضجةٌ رهيبة تصمُّ الأسماع لا أذنيك وحدهما فحسب ، بل هي تهزُّ كيانك كلّه ، وتجعلك ترتجف من أخمصيك إلى قمة رأسك . ويعقبها صفير القذيفة المبتعدة ، وتغلِّفك سحابة كثيفة من دخان تفوح منه رائحة البارود ، ويغطي المصطبة وقامات البحارة السوداء التي تتحرك هنالك . وسوف تسمع بسببٍ من طلقة مدفعنا هذه تعليقات مختلفة من البحارة ، وتلحظ فيهم انتعاشاً قوياً ، وتقرأ على وجوههم تعبيراً عن عاطفة قد لا تكون تخطر لك في بال : عاطفة الكره والحقد والانتقام من العدو التي تكمن في نفس كل إنسان . وسوف تسمع مثل هذه الصيحات الفرحة : «انطلقت قنبلتنا إلى الكوة مباشرة ! قتلت اثنين على ما أعتقد ... هاهم أولاء يحملونهما !» . وقد يشير أحدهم قائلا : «سوف يغضب «هو» الآن ، ولن يلبث أن يرسل إلينا واحدة» . وما هي إلا برهة وجيزة حتى تبصر أمامك بالفعل وميضاً يعقبه شيء من دخان.

ويصيح خفير المراقبة على الفور قائلاً : «مــ...دفــ...ع !» . وسرعان ما تسمع أزيز قذيفة يمرُّ بك ، وتغوص القذيفة في الأرض مبعثرة دائرة من حجارة ووحل . ويغضب آمر السرية من هذه القذيفة فيصدر أمره بتلقيم مدفع ثان وثالث . ويردُّ العدوُّ الطلقة بطلقة ، فيتاح لك أن تحسَّ عواطف ومشاعر غريبة ، وترى مناظر شائقة . وسيصيح خفير المراقبة من جديد قائلاً : «مدفـع !» ، فتدرك ذلك الازيز ذاته ، وضجة السقوط ذاتها ، ويتطاير الرشاش حولك مثله قبلاً . أو يصيح الخفير قائلاً : «مدفع هاون !» ، فيقرع أذنيك رنين ممتع الوقع برتابته ـ فيصعب أن تتصوَّر وراءه خطراً رهيباً ـ وتسمع الرنين وهو يقترب منك



بسرعة عجيبة ، وتبصر فجأة كرة سوداء تشعر بالرجفان عندما ترتطم بالأرض فينتج عن ارتطامها قرقعة انفجار معدنية ، وتنبثق شرارات في مختلف الجهات ، وتدوي ضجات أزيز مخنوق أو حاد ، وتتطاير حجارة وتتصادم في الهواء ، ويغطيك الوحل .

حين تسمع هذه الأصوات كلها تشعر بعاطفة غريبة هي مزيج من لذة وخوف . وحين تحسُّ أن القذيفة مقبلة عليك ، فإن فكرة الموت الوشيك تهاجمك . وتهب لك عزة النفس القوة اللازمة للسيطرة على انفعالك ، فلا ينتبه أحد الى تلك السكين التي تمزِّق قلبك . وبعد أن تمرَّ القذيفة دون أن تمسَّك فأنت تعود الى الحياة ، ويجتاح نفسك عندئذ ، ولو لبضع ثوان ، شعور بالسعادة لا يوصف ، فتجد للخطر سحراً خاصاً في لعبة الحياة والموت هذه ـ وتتمنى أن تسقط قذيفة أخرى في مكان أقرب إليك وأقرب .

وهذا هو الخفير يصيح من جديد ، بصوته الثخين الرنان : «مدفع هاون !» ، فتسمع الأزيز وسقوط القذيفة وانفجارها . غير أنك تفاجأ هذه المرة بأنين يصدر عن إنسان مختلطاً بضجة الانفجارات . فتقترب من البحار الجريح الذي يحمله حملة النقالة مغطىً بالدم والطين ، فتشاهد في وجهه تعبيراً غريباً لا يشبه تعبير وجوه البشر . إن جزءاً من صدره قد انخلع . كان وجهه الملطخ بالوحل لا يبدي في اللحظات الأُول أكثر من خوف وتقلُّص سابق لأوانه .. تقلُّص مفتعل سببه الألم الذي لا يشعر به بعد . وحين وصلت النقالة واضطجع فيها على جنبه الذي لم يُمسّ بسوء فقد طرأ تبدُّل على ملامحه : عيناه تشعان وأسنانه مكزوزة ، وهو يرفع رأسه في صعوبة . وحينما رفعت النقالة عن الأرض استوقف حامليها برهة ، والتفت إلى رفاقه يقول في مشقة وعناء بصوت مختلج : «سامحوني ، ياأخوتي !» . وأراد أن يضيف كلمات أخرى ، أشياء مؤثرة ، ولكنه يكرِّر هذه الجملة فحسب : «سامحوني ، ياأخوتي !» . وفي تلك اللحظة يقترب

منه بحار ويضع العمرة على رأس الجريح الذي يلتفت إليه ، ثم يبتعد البحار متجهاً إلى مدفعه في هدوء وهو يلوِّح بذراعيه .

ويقول لك الضابط البحَّار جواباً عن معنى الذعر الذي ارتسم على صفحة وجهك : «هذا ما يقع لسبعة أو ثمانية كل يوم» ، ويتثاءب وهو يتابع لفَّ سيجارة أخرى صفراء ...

هكذا تكون رأيت الآونة المدافعين عن سيباستوبول في أماكن صراعهم ، وترجع أدراجك إلى المدينة وقد امتلأت روحك هدوءاً وعزيمة ، غير ملتفت إلى القذائف وطلقات الرصاص التي يصاحبك أزيزها إلى «المسرح» المتهدِّم . إن الفكرة الأساسية التي حملتَ معك هي إيمان راسخ بقوة الشعب الروسي ، وهذا الإيمان استمددته لا من رؤية الأسوار والمتاريس والخنادق المتداخلة تداخلاً بارعاً ، ولا من رؤية الألغام والمدافع المكدَّسة وفقاً لقواعد معقدة لا تفهم من أمرها شيئاً ، بل من نظرات ، وكلمات ، وأفعال ـ وباختصار من رؤية ما يسمى «روح» ـ المدافعين عن سيباستوبول . فما يفعله هؤلاء إنما يفعلونه أضعافاً مضاعفة مائة مرة .. وتحسُّ أن العاطفة التي يستجيبون لها لا تمت بأية صلة إلى طموحات تافهة أو إلى زهو وغرور مما كان يحركك أنت ، بل هو شيء أكثر قوة وأعمق أثراً جعلهم قادرين على أن يعيشوا تحت القنابل الطائرة بهدوء ، وقادرين على أن يواجهوا ، برباطة جأش وسكينة نفس ، أخطار موت أكبر مائة مرة من أخطار الموت التي يتعرَّض لها سائر البشر ـ وهم منصرفون إلى عملهم اليومي في قلب هذا الشقاء المستمر ، والسهر المتواصل ، والقذارة الدائمة . فالرجال لا يمكن أن يتقبلوا مثل هذه الظروف المعيشية الرهيبة سعياً وراء وسام أو رتبة أو رهبة من عقاب : لابدَّ أن تكون عندهم إذن دوافع أخرى أكثر سمواً ورفعة .

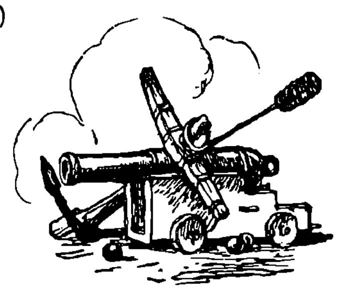
الآونة فقط تعرف أن الأقاصيص التي تروى عن بداية حصار سيباستوبول

لم تعد أساطير تاريخية جميلة بالنسبة إليك ، بل هي أقاصيص حقيقية : الأقاصيص عن الأزمنة حين لم يكن في المدينة تعزيزات أو جيش يدافع عنها ، وكان يبدو أن الدفاع عنها مستحيل مادياً ، وكان الناس مع ذلك متيقنين أن المدينة لن تستسلم أو يهجرها سكانها . وكان كورنيلوف ، هذا البطل الذي يذكّر بأبطال اليونان القديمة ، يطوف على الجند قائلاً : «أيها الشجعان ، سوفَ نموت لكننا لن نسلِّم سيباستوبول» . وكان رجالنا الروس الذين يجهلون اصطناع الجمل المنمَّقة يجيبون قائلين : «سوف نموت ! هورررراه !» ، سيسهل عليك بعد الآن أن تعرف في الرجال الذين لقيتهم أولئك الأبطال الذين تأهبوا للموت ، والذين لم تمت نفوسهم خلال تلك لأيام القاسية بل نشطت وانتعشت .

الغسق يهبط . والشمس الغاربة تخرج من السحب الرمادية التي تغطي السماء وتُشعُّ بوهجها الأحمر اللماع تلك السحب الضاربة إلى اللون البنفسجي ، والبحر المخضرّ المتلىء سفناً وزوارق تتأرجح على منبسطه العريض ، والمباني البيضاء بالمدينة ، والجمهور الذي يسعى في شوارعها . وعلى صفحة الماء تتناثر أصوات فالس قديم تعزفه موسيقى جيش في الجادة ، كما تتناثر أصوات قصف المدافع في التحصينات فتختلط بأنغام الفالس .

سيباستوبول ، ٢٥ نيسان ١٨٥٥

(حسب التقويم القديم)





سيباستوبول في أيار ١٨٥٥

١

ستة أشهر مرَّت على اليوم الـذي انطلقـت فيه أول قذيفـة صافـرة من تحصينات سيباستوبول وسقطت على تحصينات العدو محدثةً حفرة فيها . إن آلافاً من القذائف والقنابل والطلقات ظلَّتَ تطيِّر منذ ذلك الحـين من دون انقطاع من التحصينات إلى الخنادق ومن الخنادق إلى التحصينات ، في حين كان ملاك الموت يحوِّم فوق هذه وتلك في حركة دؤوب .

إن آلافاً من الطموحات البشرية تعذبت وتضايقت ، وآلافاً رضيت وانشرحت ، كما أن آلافاً أخرى هيىء لها أن ترتاح الراحة الأبدية بين ذراعيّ الموت . يا لأعداء النعوش الزهرية اللون وأغطيتها المصنوعة من نسيج الكتان ! ولكن ضجة القصف لا تزال هي ذاتها تملأ الهواء ، ولا يزال الفرنسيون ينظرون من معسكرهم إلى الأرض السوداء في تحصينات سيباستوبول في ارتعاش وخوف ، ويعدّون الكوى التي تخرج منها فوّهات المدافع الحديدية الرهيبة . ومن أعلى مركز البرق لا يبرح ضابط الصف التابع للحرس يراقب ، بنظارته المقرِّبة ، مثله قبلاً ، بزات الفرنسيين المبرقشة ، وسرايا مدافعهم ، وخيامهم ، وأرتال جنودهم سائرة على الأكمة الخضراء ، كما يراقب الأدخنة المتموِّجة المنطلقة من فوق خنادقهم . ومن جميع أرجاء العالم لا تبرح تتدفق على هذا المكان المشؤوم ، مثلها قبلاً ، أشتاتٌ من الناس مدفوعة بأشتات من الرغبات . لكنَّ هذا الصراع الذي لم يستطع الدبلوماسيون حسمه سيعجز البارود والدم عن حسمه أيضاً .

٢

كانت فرقة من موسيقى الجيش تعزف أنغامها في الجادة بالقرب من «سرادق» في مدينة سيباستوبول المحاصرة ، وكان جمهور من النساء والجنود يتسكع بين ممرات الأشجار يستمتع بالعطلة . والشمس الربيعية قد طلعت منذ الصباح على الخنادق الانكليزية ، وبلغت التحصينات ، ووصلت الى المدينة ، فثكنة نيقولا ، ناشرة ضياءها على الجميع بفرحة واحدة ؛ وهذه هي الآن تغرق في البحر البعيد الأزرق المتماوج في بطء والمتلألىء مثل الفضة .

وكان ضابط من ضباط المشاة ، طويل العود ، محني الظهر قليلاً ، يفرغ من

لبس قفازيه اللذين حال بياضهما ولكنهما نظيفان ، خارجاً من بوابة منزل من منازل البحارة الصغيرة المقامة على طول الجهة اليسرى من شارع مورسكايا ، يطيل النظر في الأرض ويصعد الهضبة متجهاً إلى الجادة . لم يكن التعبير المرتسم على وجهه القبيح ينبىء عن ذكاء قوي ، ولكنه يدلُّ على أنه أوتي حساً سليماً ، وأنه رجل شريف ، رصين ، يحب النظام . وهو رديء القوام ، أخرق الحركاتَ كأنه خَجلان من شخصه . كانت قبعته شبه جديدة ، والسلسلة الذهبية التي تحمل ساعته تظهر من تحت معطفه الرقيق ذي اللون البنفسجي الغريب . وكان يرتدي بنطالاً له شدادتان تحت القدمين ، وجزمتين لامعتين مصنوعتين من أفخر الجلود . كان يمكن أن يحسبه المرء ألمانياً (رغم أن قسمات وجهه تدلّ على أنه من نبعة روسية صافية) مرافقاً لأحد القادة ، أو أميناً للإمدادات والتموين في الفوج (ولو صحَّ هذا لوجب أن يكون له مهمازان) ، أو يُظَنُّ ضابطاً من سلاح الفرسان نُقِلَ إلى سلاح الحرس مدة الحرب . والحق أنه كان ضابطاً في سلاح الفرسان . وفيما هو يُصعِّد في الهضبة ناحية الجادة كان يفكِّر في رسالة تلقاها منذ قليل من أحد رفاقه القدامى المحالين على التقاعد ، وهو من أصحاب الأملاك في إقليم «ت ...» - ومن صديقته العزيزة ناتاشا الشاحبة ذات العينين الزرقاوين . كان يستعيد في ذهنه ذلك الجزء من الرسالة الذي كتب فيه صاحبه يقول :

«عندما نستلم مجلة «الأنفاليد»[1] تسرع بوبكا (كذلك كان البروسي المتقاعد يلقب امرأته) إلى الدهليز وتستولي على الصحيفة ، وتركض إلى مقعد في تعريشة غرفة الجلوس - تلك التعريشة التي قضينا فيها ، هل تذكر ؟ ، سهرات شتائية رائعة أيام كان فوجك يعسكر في مدينتنا - وتروح تقرأ أخبار أعمالكم البطولية بحماسة لا تستطيع أن تتصور مداها . وهي تحدثني عنك في أحيان كثيرة ،

(١) مجلة للجيش والبحرية .

فتقول لي : «ميخايلوف رائع ! أنا مستعدة أن أغمره بالقبلات حينما أراه يعود . إنه (يقاتل في التحصينات) ، ولا ريبة أنه سينال وسام القديس جورج ، ولا ريبة أن الصحف ستتحدث عنه» إلخ ، إلخ ... بحيث أشعر بالغيرة منك !»

وفي مكان آخر كتب يقول : «الصحف تصلنا هنا متأخرة بصورة رهيبة . ولما كانت الإشاعات التي يتناقلها الناس كثيرة ، فلا يستطيع المرء أن يصدقها كلها دائماً . مثلاً ، كانت «آنسات الموسيقى» اللواتي تعرفهنَّ يروين البارحة أن نابليون وقع أسيراً بين أيدي قوزاقنا فأرسلوه إلى سان بطرسبورج . ولا ريبة أنك تتصوَّر أنني لم أصدِّق هذا النبأ ! وقد جاء موظف من بطرسبورج (إنه موظف في العاصمة أرسله الوزيرفي عمل خاص ـ ويعدُّ وجوده بيننا في هذا الفصل نبعاً للأنباء لا تستطيع أن تقدِّر مداه) ، وأعلن لنا أن جنودنا احتلوا أوباتوريا [فانقطع اتصال الفرنسيين مع بالاكلافا] ، وأننا خسرنا حوالي مائتي قتيل في حين أن الفرنسيين فقدوا خمسة عشر ألف قتيل . وقد بلغت زوجتي من الحماسة أنها كانت في عيد طوال الليل . وهي تزعم أن إحساسهايعالنها أنك شاركت في هذه المعارك وأبْلَيْتَ فيها البلاء الحسن» .

رغم الألفاظ والعبارات التي تعمَّدت إبرازها في هذه الرسالة ، ورغم لهجتها العامة ، فإن الكابتين المساعد ميخايلوف كان يفكر في اكتئاب ، لكنه اكتئاب مليء بالعذوبة ، في صديقته الريفية الشاحبة ، وفي السهرات التي قضاها معها في التعريشة متحدثين عن «العواطف» . وكان يفكر في صديقه البروسي الشهم : كيف كان يغضب كثيراً ويخسر عندما يلعبان الورق في حجرة المكتب برهان كوبيك واحد ، وكيف كانت زوجته تضحك منه . كان يفكر في الصداقة التي محضته إياها هذه الأسرة الطيبة (لربما كان يفكر أن الأمر من جهة الصديقة الشاحبة كان أكثر من صداقة) : لقد بزغ وجهاهما في ذاكرته ، في إطار حياتهما المألوفة ، فتزاملت هذه الذكرى بعاطفة رقيقة لا سبيل إلى

وصفها ، وترافقت مع ذكرى ماضية زاهرة بالسعادة لا يرى فيها شيئاً من الأشياء إلا مصطبغاً بلون الورد جمالاً ، فتبسَّم بينه وبين نفسه لهذه الصور ، ودسَّ يده في جيبه يتلمَّس الرسالة الغالية .

من هذه الذكريات انزلق الكابتين المساعد انزلاقاً طبيعياً نحو أحلام المستقبل والآمال . فكان يستعيد في ذاكرته ، وهو يجتاز شارعاً صغيراً :« يا لمفاجأة ناتاشا ويا لفرحتها حينما تقرأ ذات يوم في مجلة «الأنفاليد» كيف كنت أول الواثبين إلى مدفع فنلتُ وسام القديس جورج ! ولن يطول بي الوقت حتى أرتقي إلى رتبة كابتين ، فأنا مرشَّح لها منذ زمن طويل . ولن يصعب عليَّ بعد ذلك أن أغدو رئيس كتيبة حتى قبيل نهاية السنة لأن عدداً كبيراً من الضباط الذين يحملون رتبة ميجر قتلوا ، وعدداً آخر منهم سيقتل خلال هذه الحملة . وسيكون هناك مزيد من المعارك ، وإذا أنا ، بصفتي ضابطاً مرموقاً ، يُعهد إليَّ بقيادة فوج ... فأغدو ليوتنان كولونيل ، ووسام القديسة حنة ، فكولونيل» . وها هو ذا ميخايلوف يتخيّل نفسه منذ الآن جنرالاً يتنازل فيقوم بزيارة ناتاشا ، أرملة رفيقه (الذي تقول له أحلامه اليومية إنه لا بدَّ أن يكون قد مات في ذلك الحين) ـ ولكن هذه أصوات الموسيقى التي تعزف في الجادة تقرع سمعه بمزيد من الوضوح ، فيهبُّ من أحلامه ويبصر جمهوراً كبيراً ويجد نفسه في الجادة على غير انتظار مجرَّدَ كابتين مساعد في سلاح المشاة .

٣

ذهب بادىء الأمر إلى السرادق الذي كان الموسيقيون يعزفون بقربه . وكان عدد من جنود الفوج يمسكون الدفاتر الموسيقية مفتوحة لافتقار الفرقة الموسيقية

إلى مساند للدفاتر. وحول الموسيقيين تجمَّع محاسبون في البحـرية ، وضبـاط صف ، وخادمات ، وأولاد يتفرجون أكثر مما يسمعـون . وكان أكثـر النـاس الواقفين والقاعدين والمتجولين حول السرادق من ضباط البحـرية ، وضبـاط الصف ، وضباط يلبسون قفازات بيضاء . وفي ممرّ الأشجار الكبير بالجـادة يتسكع ضباط من جميع الرتب ، ونساء من مختلف الأنواع ـ بعضهن مرتديات قبعات وأكثرهن متشحات بمناديل على رؤوسهنّ ، ومنهنّ من كنَّ بغير قبعة أو منديل ـ لكنهنَّ جميعاً في نضارة الشباب . فإذا نزلت أكثر من ذلك وصلت إلى ممرات ظليلة يعطِّرها شذى أشجار الأكاسيا البيضاء ، اعتزلت فيها جماعات صغيرة اتخذت الأرض لها مجلساً أو راحت تتجول .

إن أحـداً في الجـادة لم يبـد سروراً خاصـاً برؤية الكابتين المساعـد ميخايلوف ، ربما باستثناء الكابتين أوبجوغوف من فوجه والكابتين سوسليكوف الذي صافحه بحرارة وودٍّ . وكان الأول يرتدي بنطالاً من وبر الجمل ومعطفاً مهترئاً ، ولم يكن يلبس قفازين ، وكان وجهه شديد الاحمرار من كثرة التعرُّق . وكان الثاني يتكلم بصوت مرتفع النبرة . لكن بلهجة رقيقة ، حتى ليتحرَّج المرء من التجوال برفقته ، وخاصة بسببٍ من الضباط ذوي القفازات البيضاء الذين انحنى الكابتين ميخايلوف لأحدهم ، هو مرافق قائد من القـادة ، وكان في مقدوره أن يسلِّم على واحد آخر منهم ، هو ضابط أركان حرب سبق أن اجتمع به مرتين في منزل أحد الأصدقاء . ثم ما عساه أن يجد من لذة في صحبة أوبجوغوف وسوسليكوف : إنه يلقاهما ويصافحهما ست مرات في اليوم الواحد . ألهذا جاء يصغي «إلى الموسيقى» إذن ؟

كان يرغب في الاقتراب من المرافق الذي انحنى له ، وأن يتحدث مع هؤلاء السادة ، لا من أجل أن يراه الكابتين أوبجوغوف والكابتين سوسـليكوف والليوتنان باشتيتسكي وآخرون متحدثاً معهم ، بل لمجرد أنهم أناس لطفاء ،

مطّلعون على آخر الأخبار ، في مقدورهم أو يرووا له أشياء شائقة .

لكن ، ما بال الكابتين المساعد ميخايلوف يتردّد خائفاً إذن ، ولا يجرؤ على الاختلاط بهم ؟ إنه يحدِّث نفسه قائلاً : «ماذا إذا لم يردوا على تحيتي ؟ ماذا إذا لم يتنازلوا فيهتموا بي بعد أن يسلموا عليّ ، يل هم استرسلوا في الحديث بينهم متجاهلين وجودي ؟ ماذا إذا ابتعدوا وخلفوني وحدي مع هؤلاء الأرستقراطيين ؟» . ان كلمة الأرستقراطيين (بمعنى حلقة الأشخاص الذين هم أعلى منزلة في أية بيئة اجتماعية) انتشرت في بلادنا الروسيا انتشاراً كبيراً منذ زمن حين لم يكن يخطر لأحد أن توجد في هذه البلاد أصلاً . لقد تسرَّبت إلى جميع المناطق وجميع طبقات المجتمع التي سيطر عليها الخيلاء ـ في أي زمان وأية ظروف لا يزدهر هذا الولع الصغير الحقير ؟ ـ فغدوت تسمع بها عند الباعة ، وعند الموظفين ، وعند المحاسبين ؛ وصرت تسمع بها في ساراتوف وفي ماماديشي وفي فينيّتسا وكل مكان يضمُّ بشراً . وكانت سيباستوبول المحاصرة تضمُّ بشراً كثيرين ، فكان فيها إذن كثير من الخيلاء أيضاً ، أي كثير من الأرستقراطيين ، رغم أن الموت يمكن أن يصيب ، في أية لحظة ، هؤلاء وأولئك سواء كانوا أرستقراطيين أو غير أرستقراطيين .

في نظر الكابتين أو بجوغوف كان الكابتين المساعد ميخايلوف أرستقراطياً . وكان المرافق كالوجين أرستقراطياً في نظر الكابتين المساعد ميخايلوف لأنه مرافق ولأنه صديق حميم لمرافق آخر . وكان الكونت نوردوف أرستقراطياً في نظر المرافق كالوجين لأنه مرافق الامبراطور .

غرور ! غرور ! غرور ! في كل مكان حتى عند عتبة القبر ، وبين أناس مستعدين للموت في سبيل قضية نبيلة . غرور ! ليبدو أن الغرور هو السمة المميزة أو المرض الخاص الذي ابتلي به عصرنا . لماذا لم نسمع من الأجيال السابقة أي ذكر لهذا الهوى الجارف مثلما ذكرتْ وباء الجدري والكوليرا ؟ لم لا

يوجد في عصرنا غير ثلاث فئات من الناس : فئة الذين يسلّمون بمبدأ الغرور نفسه كتسليمهم بضرورة من الضرورات لا غنى عنها ، وكتسليمهم بشيء مشروع ، فهم لذلك ينقادون لهذا الهوى بطواعية وحرية ؛ وفئة الذين يذعنون له إذعانهم لبلية لا يستطيعون لها دفعاً في هذا العالم ؛ وفئة الذين يستسلمون لهذا الهوى في أفعالهم عن غير وعي وينقادون له انقياد العبودية . لماذا نرى أتباع هوميروس وشكسبير يتكلمون عن الحب والطموح والعذاب ، في حين أن أدب عصرنا لا يعرف إلا هذه القصة الأزلية عن هؤلاء المغرورين المولعين بالظهور ؟

مرَّ الكابتين المساعد ميخايلوف أمام جمع أصحابه الأرستقراطيين مرتين متردداً لا يعزم أمره . وجاهد نفسه في المرة الثالثة ، فمشى صوبهم . كانت تلك الحلقة مؤلفة من أربعة ضباط : المرافق كالوجين وهو من معارف ميخايلوف ؛ والمرافق الأمير جالتسين الذين كان كالوجين يعدّه أرستقراطياً بعض الشيء ؛ والليوتنان كولونيل نيفردوف وهو أحد رجال مجتمع «المائتين والاثنين والعشرين» وهو واحد من الذين أحيلوا إلى التقاعد ولكنهم رجعوا إلى الخدمة في الجيش بسببٍ من الحرب ؛ ثم الكابتين براسكوخين ، وهو ضابط من سلاح الفرسان ينتمي بدوره إلى فئة المائتين والاثنين والعشرين . ومن حسن حظ ميخايلوف أن كالوجين كان في تلك الساعة صافي المزاج (كان الجنرال قد حدَّثه حديثَ نجوى منذ لحظات ، كما أن الأمير جالتسين الذي وصل من بطرسبورج نزل عنده) ، فلم يجد في مصافحة ميخايلوف ما يحطُّ من قدره ، فمدَّ إليه يده مصافحاً . وكذلك براسكوخين الذي لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك ، رغم أنه التقى ميخايلوف مراراً في التحصينات ، ورغم أنه شرب من خمرته ومن فودكاه أحياناً كثيرة ، ورغم أنه لا يبرح مديناً له باثني عشر روبلاً ونصف روبل من كسب قمار . لقد خشي ، وهو لما يعرف الأمير جالتسين بَعْدُ جيداً ، أن يكشف له عن

أن هناك علاقات بينه وبين مجرد كابتين مساعد في سلاح المشاة ، فاكتفى بالانحناء قليلاً لتحيته .

قال كالوجين :

ـ حسناً ، يا كابتين . متى تعود إلى الحصن مرة أخرى ؟ ألا تزال تذكر لقاءنا في معقل شفارتز ؟ كانت الحرب حامية ، ما ؟

فأجابه ميخايلوف :

ـ حامية جداً .

أحسَّ بمرارة حين خطرت بباله صورته في تلك الليلة وقد انحنى يزحف إلى الحصن عبر الخندق ، فلقي كالوجين يسير منتصب القامة شامخ الرأس مقرقعاً بسيفه في جرأة وفخار .

استرسل ميخايلوف يقول :

ـ لم أكن مضطراً للرجوع إلى هنالك إلا في الغداة ، غير أن أحد الضباط كان مريضاً ، فقدَّرت أن ...

كان يريد أن يقول إنه لم يكن مفروضاً عليه أن يذهب إلى هناك ، ولكن آمر السرية الثامنة كان مريضاً ، ولم يكن هنالك غير ملازم ، فاعتقد أن من واجبه أن يتطوَّع فيحلَّ محلَّه الليوتنان نيبشيسيتسكي ليذهب إلى الموقع في ذلك المساء . غير أن كالوجين لم يصغِ إلى حديثه حتى النهاية . قال يخاطب الأمير جالتسين :

ـ يخال لي أن أشياء ستحدث خلال يوم أو يومين .

فقال ميخايلوف خجلان ، وهو ينقِّل بصره بين كالوجين والأمير جالتسين :

ـ وماذا عن هذا النهار ؟ ألا تخالون أن شيئاً سيحدث هذا النهار ؟

لم يعطه أحد جواباً . واكتفى الأمير جالتسين بمطِّ شفتيه . وبعيد لحظة من صمت نظر من فوق قبعة ميخايلوف ، وقال :

ـ جميلة جداً هذه الصبية ذات المنديل الأحمر . تعرفها ، أليس كذلك ، يا كابتين ؟

فقال الكابتين :

ـ تسكن على مقربة من بيتي . إنها ابنة بحار .

ـ هلموا نزنّي النظر إليها عن قرب .

قدَّم الأمير جالتسين ذراعه الأولى لكالوجين ، وذراعه الثانية للكابتين المساعد ، واثقاً أن الكابتين المساعد سيسرُّه ذلك كثيراً ، وهذا ما لم يخطىء فيه .

كان الكابتين المساعد ممن يؤمنون بالخرافات ، ويخال أن الاهتمام بالنساء قبيل الذهاب إلى القتال إثم كبير ، ولكنه في هذه اللحظة تظاهر أنه ماجنٌ كبير ، فبدا على الأمير كالوجين وجالتسين أنهما لا يصدقانه ، وشدهت الفتاة ذات المنديل الأحمر التي ما أكثر ما لحظت قبل ذلك احمرار وجه الكابتين المساعد حينما يمرُّ بنافذتها . ومشى برسكوخين وراءهم وهو يشدُّ الأمير جالتسين من ذراعه بين فترة وأخرى ، وينقل إليه ملاحظات كثيرة باللغة الفرنسية . ولما كان يستحيل أن يسير أربعة أشخاص في صف واحد ، فقد اضطر براسكوخين أن يبقى وحيداً خلف السائرين الثلاثة . وفي الدورة الثانية من النزهة أتيح له أن يمسك ذراع الضابط البحار الشجاع سرفياجين الذي اقترب يحدثه في تلك اللحظة ، راغباً أن ينضمَّ ، هو الآخر ، إلى حلقة الأرستقراطيين . هذا البطل الذي اشتهر بجرأته أسعده أن يضع ذراعه تحت ذراع براسكوخين الذي يعرف الناس جميعاً ، كما يعرف سرجيافين نفسه أيضاً أنه رجل ليس على جانب كبير من الخلق . ولكنه حين تحدث براسكوخين إلى الأمير جالتسين عن هذا البحار الذي يعرفه ، وذكر له أنه من الرجال المشهود لهم بالجرأة والإقدام ، لم يلتفت جالتسين ـ الذي كان قد ذهب في الليلة الماضية إلى الحصن الرابع ورأى قذيفة

تنفجر على مسافة عشرين خطوة منه ـ إلى سرجيافين أي التفات لأنه صار يعتقد منذ تلك اللحظة أنه لا يقلُّ شجاعة وجرأة عن أي صنديد باسل ، وصار يعتقد عدا ذلك أن الشهرة التي ينالها كثيرون إنما ينالونها عن طريق الحظ .

وجد الكابتين المساعد ميخايلوف أن من السعادة أن يسير برفقة هذا الجمع بحيث نسي الرسالة اللطيفة التي وصلته من ت ... ، وزايلته الأفكار السوداء التي اجتاحت نفسه حين تصوَّر اضطراره للعودة إلى الحصن . فبقي مع ذلك الجمع إلى أن شرعوا يتخاطبون فيما بينهم ، ولا يتجهون إليه بكلمة واحدة ، ويتحاشون نظرته ، فيفهمونه بذلك أن في وسعه الانصراف . ولكن الكابتين المساعد كان يشعر برضى عظيم وارتياح كبير ، وحين مرَّ بالطالب الضابط البارون بيشت ـ الشاب الذي أصبح شديد الاعتزاز والثقة بنفسه منذ الليلة الأخيرة التي قضاها أول مرة في الملاجيء المصفحة في الحصن الخامس ، والذي أصبح لهذا السبب يعتبر نفسه بطلاً من الأبطال ـ أقول : لم يزعجه أبداً ولا ساءه قط ما عبَّر عنه وجه ذلك الطالب الضابط من غطرسة واحتقار .

٤

لم يكد الكابتين ميخايلوف يجتاز عتبة مسكنه حتى هاجمت ذهنه أفكار عديدة . رأى غرفته الصغيرة بأرضها غير المستوية ، ونوافذها المائلة التي غطي زجاجها المكسور بالورق ، وسريره العتيق يعلوه مسدسان من تولا معلقان بسجادة (عليها صورة امرأة على ظهر حصان) سمرت بالجدار إلى جانبه(١) .

---

(١) أسلوب شائع في روسيا لحماية السرير من رطوبة الجدار وبرودته ، وذلك بسمر سجادة أو بساط إلى الجدار بجانب السرير .

ورأى المضجع الوسخ ينام فوقه الطالب الضابط الذي يساكنه في الغرفة وعليه لحافه القطني . ورأى خادمه نيكيتا ، بشعره الأشعث الدهين ، ينهض عن الأرض حين وصوله ، وهو يحكُّ رأسه . ورأى معطفه العتيق ، وجزمتيه الأخريين ، والصرة الصغيرة التي ربطت بمنديل استعداداً للذهاب إلى الحصن ، والتي يبرز منها طرف قرص من الجبن ، وعنق مطرة ملأى بالفودكا ـ فتذكر فجأة أن عليه أن يذهب إلى سريته ويقضي الليل بطوله في معاقل الحصن .

حدَّث الكابتين المساعد نفسه قائلاً : «سأُقتل هذه الليلة حتماً . أنا أوجس هذا . لا سيا وأنني لم أكن مرغماً على الذهاب ـ لقد تطوعت تطوعاً . ويحدث دائماً أن الذين يقحمون أنفسهم هذا الإقحام هم الذين يموتون . ما المرض الذي يشكو منه هذا اللعين نيبشيسيتسكي ؟ قد لا يكون مريضاً البتة ، وهكذا يقتلونني بسببٍ منه ـ إنهم قمينون بذلك حتماً . ولكن إذا شاءت المصادفة ولم يقتلوني فسأقترح ترقيتي قطعاً . لقد لحظت غبطة قائد السرية حينا عرضت عليه قائلاً : «ائذن لي أن أذهب طالما أن نيبشيسيتسكي مريض» . فإن لم أفز برتبة ميجر ، فلا أقلَّ من أن أنال صليب القديس فلاديمير . هذه هي المرة الثالثة عشرة التي أذهب فيها إلى الحصن ، آه ، يا إلهي ، الثالثة عشرة ! مشؤوم هذا الرقم ! أنا واثق أني سأُقتل من دون ريب . أحسُّ أنني مقتول ... كان لا بدَّ مع ذلك أن يتطوع أحد للذهاب : فلا يمكن أن يعهد بقيادة السرية إلى ملازم فقط . لنفرضنَّ أنه حدث شيء ... إن شرف الفوج ، شرف الجيش كله ، سيُنال بأذىً . كان من «واجبي» أن أذهب . بلى ، واجبي المقدس ... ولكنني أوجس شراً» .

نسي الكابتين المساعد أنها ليست المرة الأولى التي يساوره فيها هذا التوجُّس : كان يساوره بقوة تقلُّ أو تكثر كلما كان عليه أن يذهب إلى الحصن .

وكان يجهل من جهة أخرى أن هذا التوجُّس نفسه يعانيه ، قوياً أو ضعيفاً ، كل ذاهب إلى النار . فلما هدأت نفسه بعض الهدوء بفضل فكرة الواجب هذه ـ وهي قوية ونامية عنده ـ جلس إلى منضدته وشرع يكتب رسالة وداع إلى أبيه . وبعيد عشر دقائق ، حينما فرغ من كتابة الرسالة ، نهض عن المنضدة مغرورق العينين بالعبرات ، وجعل يرتدي ثيابه وهو يتلو في سره جميع الصلوات التي يعرفها . ومدّ إليه خادمه الفظ السكير معطفه الجديد بحركة كسلى ـ كان المعطف القديم الذي اعتاد الكابتين المساعد ارتداءه حينما يذهب إلى الحصن لم يرقع بعد .

خاطبه ميخايلوف قائلاً بلهجة غاضبة :

ـ لماذا لم ترقع معطفي بعد ؟ أنت لا تفعل شيئاً غير النوم .

فجمجم نيكيتا قائلاً :

ـ أنا أنام ! أنا لا أفعل كل يوم غير الركض طول النهار مثل كلب ، وإما ينهكني التعب أنام !

ـ أرى أنك سكران مرة أخرى !

ـ أنا لا أسكر على حسابك ، فلا حاجة بك إلى لومي .

فصرخ الكابتين المساعد ، وهو يوشك أن يضرب الرجل :

ـ إخرس ، يا وغد !

اعتكر مزاجه ، وأخرجته فظاظة نيكيتا عن طوره وأغضبته شديداً لأنه كان يحب ذلك الخادم ، بل كان يدلله منذ دخل في خدمته قبل اثنتي عشر عاماً .

كرَّر الخادم قوله :

ـ وغد ؟ وغد ؟ لماذا تهينني ، يا سيدي ، وتصفني بأني وغد ؟ أنت تدري أنه ليس حسناً أن تهين الناس في مثل هذه الأوقات !

تذكر ميخايلوف ما ينتظره ، فأحسَّ بالخجل ، وقال بصوت لطيف :

ـ ولكنك تعرف ، يا نيكيتا ، أنك تُفقد الإنسان صبره !

وأضاف يقول ، وقد احمارً وجهه :

ـ هذه الرسالة الموجهة إلى والدي على المنضدة ، دعها حيث هي . لا تلمسها .

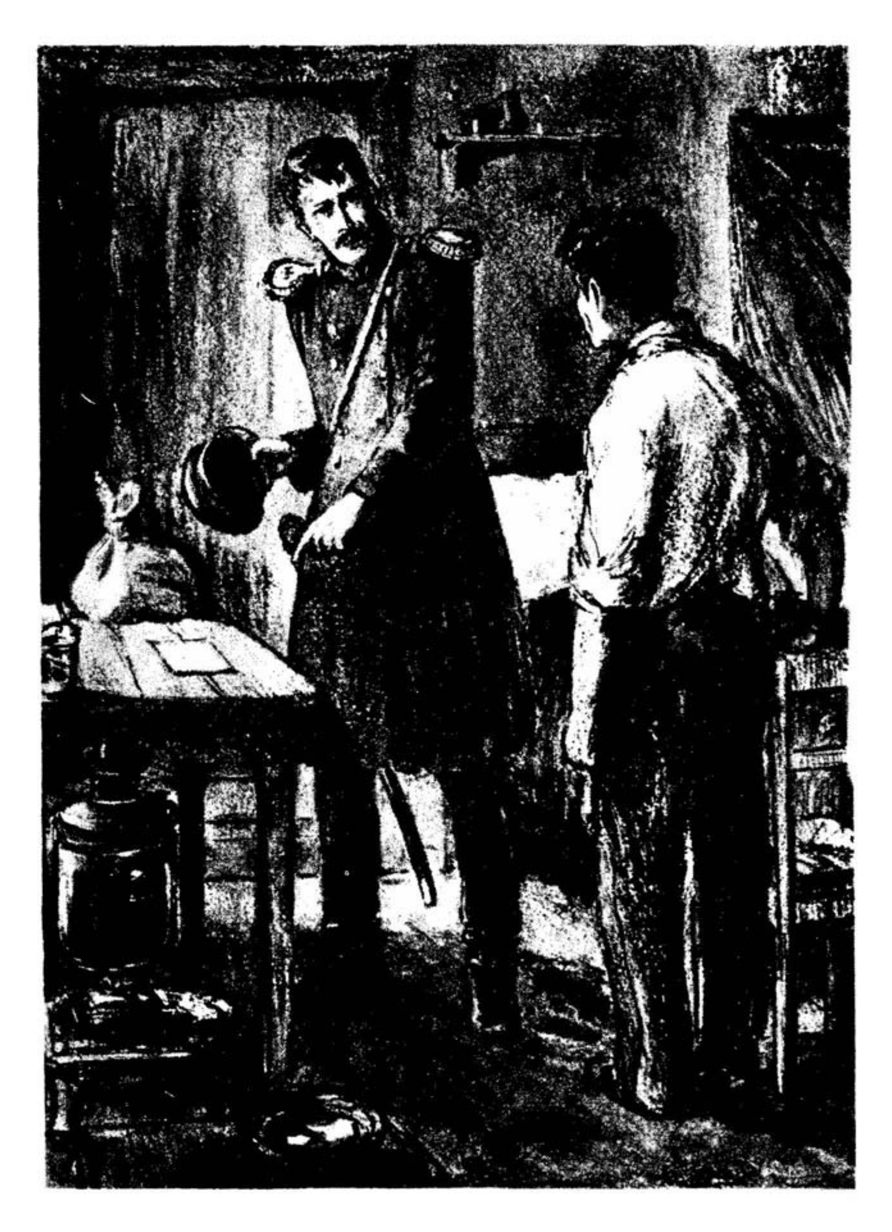
فقال نيكيتا ، وقد أصبح عاطفياً بتأثير الخمرة التي شربها ، كما قال ، من ماله الخاص ، وعيناه تطرفان وكأنه على أهبة البكاء :

ـ أمرك ، يا سيدي .

وعند الباب ، حين قال له الكابتين المساعد : «وداعاً ، يا نيكيتا» انفجر يشهق شهقات متوالية ، واندفع إلى سيده يريد أن يقبِّل يديه ، وشرع يردِّد بصوت تبلله العبرات : «وداعاً ، يا سيدي !» . وكانت أرملة بحار واقفة بقرب درج الباب ، فلم تملك بحكم كونها امرأة أن تكبح جماح عاطفتها ، فاستسلمت للبكاء حينما رأت هذا المنظر المؤثر ، وطفقت تمسح عينيها بكمّي ثوبها الوسخين ، مجمجمة بكلمات عن أناسٍ يعانون ، رغم غناهم ، آلاماً كبيرة هم أيضاً ، بينما هي ، المرأة الصغيرة ، قد بقيت وحيدة وأرملة . وحدثت نيكيتا للمرة المائة عن عذاباتها : روت له كيف أن زوجها قتل منذ أول قصف بالمدفعية ، وكيف أن كوخها الصغير دُمِّر (أما البيت الذي تسكنه الآن فليس بيتها) ، الخ ...

وبعد انصراف ميخايلوف أشعل نيكيتا غليونه وأرسل ابنة صاحبة البيت الصغيرة تبتاع له الفودكا . وما أسرع أن كفَّ عن البكاء ، وعادت إليه روح المشاجرة ، فشرع يتشاجر العجوز على سطل صغير اتهمها بكسره .

قال الكابتين المساعد يحدِّث نفسه ، وهو يقترب من الموقع مع سريته والغسق ينتشر على الكون : «قد أُجرح فحسب . لكن ، في أي موضع من جسدي ؟ وكيف ؟ هنا ؟ أم هنا ؟» . كان يتساءل وهو يشير في سرِّه إلى بطنه



تارة وإلى صدره تارة أخرى . واسترسل يقول ، وهو يفكِّر في فخذه : «لنفرض أن الاصابة تكون هنا ، ومن ثم تمضي سريعاً ... أما إذا سقطت القذيفة هنا فتلك هي النهاية» .

في أثناء ذلك وصل الكابتين المساعد إلى الخنادق سليماً معافى لم يمسسه سوء ، فوزَّع رجاله على مراكزهم بمعونة ضابط مهندس ، وكان الظلام قد احلولك ، فاستقرَّ ميخايلوف في حفرة تحت متراس . كان إطلاق النار قليلاً . وبين حين وآخر يومض برق ، تارة عندنا وتارة عند العدو ، فتمرُّ في الفضاء قذيفة لها ضياء يرسم قوساً في السماء المظلمة المبرقشة بالنجوم . وكانت جميع القذائف تسَّاقط وراء المعاقل أو عن يمينها ، فأحسَّ الكابتين المساعد شيئاً من طمأنينة وهو في حفرته ، وشرب قليلاً من الفودكا ، وعضَّ لقمة من قرص الجبن ، ودخَّن سيجارة ، وتلا صلواته ، وحاول أن ينام .

٥

اتجه الأمير جالتسين والليوتنان كولونيل نيفردوف وبراسكوخين الذي لم يدعه أحد ولا كان أحد يكلِّمه ولكنه لم يكن يتركهم ـ اتجهوا جميعاً إلى شقة كالوجين لشرب الشاي .

قال كالوجين ، وقد خلع معطفه واقتعد أريكة مريحة قريبة من النافذة ، وحلَّ ياقة قميصه ناصع البياض :

ـ ولكنك لم تكمل تلك القصة التي بدأتها عن فاسكا مندل . كيف تزوج أخيراً ؟

ـ تلك كانت دعابة ، يا عزيزي ... جاء وقت كان الناس فيه في بطرسبورج لا يتحدثون إلا في هذا الموضوع .

أجاب جالتسين باللغة الفرنسية ، وهو يضحك ويثب عن كرسي البيانو ويجلس على حافة النافذة قرب كالوجين . وتابع كلامه قائلاً :

ـ هي دعابة كاملة أعرف جميع تفصيلاتها .

وأسرع يروي بكثير من التندر والحماسة حكاية غرام لن نرويها هنا لأنها لا تثير اهتمامنا .

ولكنه ينبغي أن نذكر أن الأمير جالتسين وسائر هؤلاء السادة الذين كان واحد منهم جالساً على حافة النافذة ، وكان آخر جالساً أمام البيانو ، وكان ثالث مسترخياً وقد وضع ساقاً على ساق في الهواء كانوا في هذا المكان يختلفون اختلافاً كاملاً عما كانوا عليه في الجادة . فلا يقرأ المرء في وجوههم الآن تلك العجرفة السخيفة ، ولا ذلك التكبُّر الذي كانوا يظهرونه لضباط سلاح المشاة منذ قليل . صاروا الآونة هنا أناساً طبيعيين ، ولا سيما كالوجين والأمير جالتسين . هم في الحقيقة أطفال طيبون لطفاء بسطاء مرحون . وكانت أحاديثهم تدور حول رفاقهم الضباط ومعارفهم الذين خلَّفوهم في بطرسبورج .

ـ ما هي أحوال ماسلوفسكي ؟

ـ أيهما تعني ؟ الفارس البروسي أم الخيَّال في سلاح الحرس ؟

ـ أعرف اثنيهما . أعرف الخيّال منذ كان صبياً تخرَّج من المدرسة حديثاً . أما الأكبر ـ هل نال رتبة كابتين ؟

ـ أوه ، نالها منذ مدة طويلة !

ـ ألا يزال عاشقاً تلك الغجرية ؟

ـ كلا ، لقد هجرها ...

واستمرَّ الحديث بهذه اللهجة زمناً .

جلس الأمير جالتسين فيما بعد إلى البيان وغنى أغنية غجرية في صوت جميل ، فصاحبه في الغناء براسكوخين الذي لم يطلب إليه أحد أن يغني ،

ولكنه بلغ من حسن الغناء أنهم سألوه الاستمرار فيه ، فاغتبط لذلك أيما اغتباط .

دخل خادم يحمل على صينية فضية شاياً وقشدة وبسكويتاً ، فأمره كالوجين قائلاً :

ـ قدِّم للأمير .

قال الأمير جالتسين ، وهو يحمل شايه إلى النافذة :

ـ أليس غريباً أن نفكر أننا في مدينة محاصرة ؟ عزف على البيانو ، وشاي بالقشدة ، وبيت كم أتمنى أن أمتلك مثله في بطرسبورج .

وتكلَّم في تلك الأثناء الليوتنان كولونيل العجوز ، المتذمر دائماً من كل شيء ، فقال :

ـ حسناً ، لا ينقصنا إلا أن نُحرم من هذا أيضاً . والله لو حرمنا من هذا لأصبحت الحياة لا تطاق في ظل هذا الانتظار الأبدي لوقوع حدث ما ... في كل يوم نرى الناس يموتون ويموتون ، وليس من نهاية لهذا الموت ! فهل ينبغي أن نعيش في القذارة ولا ننعم بأي رخاء ؟

قال كالوجين :

ـ ولكن ضباط سلاح مشاتنا يعيشون في المواقع المصفحة مع رجالهم ويشاركونهم حساءهم طعاماً . فما قولكم ؟

ـ ما قولنا ؟ حسناً . أعترف أنهم لا يبدلون ثيابهم طوال عشرة أيام مرة واحدة ، ولكنهم أبطال حقاً ـ وأنهم رجال أفذاذ .

في تلك اللحظة دلف إلى الغرفة ضابط من سلاح المشاة ، وقال بعد أن انحنى انحناءة خفيفة :

ـ أنا عندي أمر ... هل أستطيع رؤية الجنرال ... صاحب السعادة ؟ لقد جئته برسالة من الجنرال ن .

نهض كالوجين ، ورجاه بلهجة فيها تلطف جارح وابتسامة باردة رسمية ، ودون أن يردَّ على تحيته ، أن يتفضَّل بالانتظار . ومن دون أن يكلِّف نفسه عناء دعوته إلى الجلوس أو الالتفات إليه ، استدار صوب جالتسين وراح يخاطبه بالفرنسية بحيث بقي الضابط المسكين واقفاً في وسط الغرفة حائراً مرتبكاً لا يعرف ماذا يصنع .

قال بعد صمت قصير :

ـ القضية التي جئت من أجلها مستعجلة جداً ، يا سيدي .

فأجابه كالوجين ، وهو يرتدي معطفه ويرافق الضابط إلى الباب ويبتسم تلك الابتسامة الجارحة ذاتها :

ـ آه ! حسناً إذن ، أرجو أن تأتي معي .

* * *

قال كالوجين باللغة الفرنسية حينما رجع من عند الجنرال :

ـ أظنُّ ، أيها السادة ، أن هذه الليلة ستكون حامية الوطيس ...

فسأل الآخرون :

ـ آه ! ماذا ؟ ما هذه ـ طَلْعَةٌ ؟

فأجاب كالوجين ، وهو يبتسم إبتسامة مبهمة :

ـ هذا ما لا أدريه .. سترون بأنفسكم .

وقال البارون بيشت :

ـ هلاّ قلتَ ماذا في الأمر ؟ إذا كان سيحدث شيء ما فينبغي عليَّ أن أنضمَّ إلى الفوج ت ... للمساهمة في أول طلعة .

ـ حسناً ، إذهب ، وليحفظك المولى .

وقال براسكوخين ، وهو يحمل سيفه :

ـ رئيسي في الحصن ، فيجب أن أذهب .

لكنَّ أحداً لم يردَّ عليه : كان يجب أن يعرف بنفسه ما إذا كان ينبغي أن يذهب أم لا .

وخرج براسكوخين و نيفردوف للذهاب إلى موقعيهما .

صاح كالوجين من النافذة ، فيما كان براسكوخين و نيفردوف قد امتطيا صهوة سرجيهما القوزاقيين وأخذا يبتعدان خبباً :

ـ إلى اللقاء ، أيها السادة ، إلى اللقاء ! سنلتقي مرة أخرى قبل انقضاء هذه الليلة .

وأعلن الطالب الضابط الذي لم يفهم شيئاً مما قيل :

ـ بلى ، قليلاً .

وما أسرع أن تلاشى خبب الحصانين القوزاقيين في عتمة الشارع .

قال جالتسين باللغة الفرنسية من حيث هو جالس على حافة النافذة قرب كالوجين ينظر إلى القذائف المتطايرة فوق التحصينات :

ـ كلاً ، قل لي ، هل سيحدث شيء هذه الليلة حقاً ؟

ـ أستطيع ان أبوح لك بالأمر ! أنظر ... لقد سبق أن ذهبت إلى التحصينات ، أليس كذلك ؟ (فأومأ جالتسين أن نعم ، رغم أنه لم يذهب غير مرة واحدة إلى الحصن الرابع) . تذكر أنت أن ثمة خندقاً أمام استحكامنا العسكري ـ ...

وراح كالوجين الذي لم يكن اختصاصياً ولكنه يؤمن تماماً بصحة آرائه العسكرية ، راح يشرح في شيء من الارتباك وخليط من المصطلحات الفنية وضع منشآت العدو ومنشآتنا والخطة العامة للعمَل المقبل .

ـ غريب ! قصف المدافع يشتدُّ ناحية المعاقل . أوهو ! أهذه قذيفتنا نحن أم قذيفته «هو» ؟ .... إنها تنفجر هناك ...

قال الرجلان ذلك وقد ارتفقا حافة النافذة وراحا يتأملان أخاديد نيران

القذائف المتقابلة في الفضاء ، والبروق الساطعة لدى كل طلقة مدفع مضيئة بنورها قبة السماء الدكناء للحظات ، والدخان الأبيض الذي ينشره احتراق البارود . كانا يصغيان إلى دويّ القصف الذي يشتد ويشتد .

قال كالوجين بالفرنسية ، وهو يلفت انتباه ضيفه إلى ذلك المنظر الجميل حقاً :

ـ يا له من منظر جميل ! ما ؟ أتعرف ؟ أنت أحياناً لا تستطيع أن تميِّز بين قذيفة ونجمة !

ـ حقاً ! لقد حسبت ذلك نجماً لتوّي ، ومن ثم رأيته يسقط ... هنالك ! لقد انفجر ! وتلك النجمة الكبيرة ـ ماذا تسميها ؟ ـ إنها أشبه ما تكون بقذيفة .

ـ أتعلم أنني اعتدت رؤية هذه القذائف بحيث سأظلُّ بعيد عودتي إلى روسيا أتصوَّر القذائف كلما تأملت ليلة من الليالي المتلألئة نجومها ـ فالمرء لا بدَّ أن يعتاد على ذلك .

قال الأمير جالتسين بعد لحظات من صمت :

ـ أليس من واجبي أن أشارك في هذه الطلعة ؟

فأجاب كالوجين :

ـ دعك من ذلك ، يا صاحبي العزيز ! لا تفكِّر في مثل هذا الأمر ! وفضلاً عن هذا فأنا لا أسمح لك . سيتاح لك الذهاب في فرصة أخرى .

ـ حقاً ؟ أتعتقد أنه ليس من واجبي أن أذهب ؟

في تلك اللحظة ، من الناحية التي كان السيدان ينظران إليها ، في أعقاب هدير القصف بالمدافع ، سُمع أزيز رصاص ، وتوهجت ألوف النيران الصغيرة بغير انقطاع على طول الجبهة .

قال كالوجين :

ـ أنظر ! لقد حمي الوطيس هذه المرة ! لا أستطيع الاحتفاظ بهدوئي حينما

أسمع قعقعة البنادق . يبدو أنها تقبض على خناق المرء ، كما تعلم . ها هم يصرخون : «هوررراه !»

أضاف هذه الجملة الأخيرة وقد أرهف سمعه إلى الضجة البعيدة الطويلة المؤلفة من مئات الأصوات «آه ـ آه ـ آه» صادرة عن التحصينات .

ـ من الذي يصيح «هوررراه» ؟ هم أم نحن ؟

ـ لست أدري . لكن القتال أصبح الآن تلاحماً لأن إطلاق النار من البنادق قد توقف .

في تلك اللحظة مرق ضابط يلحق به قوزاقي يخبان على فرسيهما تحت النافذة ، وترجّل الأول أمام سلّم الباب .

ـ من أين قدمت ؟

ـ من الحصن ! أريد رؤية الجنرال .

ـ هلّم إليه معي . حسناً ، ماذا حدث ؟

ـ هوجمت المعاقل ... وتمَّ احتلالها ! جاء الفرنسيون بقوى احتياطية ضخمة ـ وهجموا علينا ـ ولم يكن لدينا غير كتيبتين .

قال الضابط لاهثاً . إنه ذلك الضابط نفسه الذي جاء في المرة الأولى . كان يتنفس في عناء ، فاتجه ناحية الباب المؤدي إلى الجنرال في خطوات ثابتة . سأله كالوجين :

ـ حسناً . هل تراجع رجالنا ؟

فأجاب الضابط غاضباً :

ـ كلا . وصلت كتيبة أخرى من جنودنا في الوقت المناسب ـ فصددناهم . غير أن الكولونيل قتل ، كما قتل عدد كبير من الضباط . وقد تلقيت الأمر بطلب تعزيزات .

لم يزد الضابط حرفاً على ما قال ، ودخل برفقة كالوجين على الجنرال حيث

لن ندخل نحن .

بعد خمس دقائق امتطى كالوجين ظهر حصانه القوزاقي ، واتجه به خبباً إلى الحصن لتسليم بعض الأوامر وانتظار أنباء نتائج القتال . أما الأمير جالتسين فاعتراه قلق ثقيل مما يعتري في العادة أولئك الـذين يشاهـدون معـركة ولا يشتركون فيها ، فشرع يذرع أرض الشارع في جيئة وذهوب من دون غاية أو هدف .

٦

جماعات من الجنود يمرون حاملين جرحى على نقالات أو يساعدونهم على المشي متأبطين أذرعهم . والظلام في الشارع اشتدّ حلكة . والأضواء لا تشاهد هنا وهناك إلا في نوافذ المستشفى أو بيت يقيم فيه ضباط . ودويُّ القصف بالمدافع لا يزال يرعد فوق التحصينات ، يتخلله أزيز رصاص من البنادق . وشرارات مفاجئة لا تزال تبرق في السماء السوداء كما كانت عليه قبلاً . وعلى أرض الشارع يسمع في بعض الأحايين وقع حوافر حصان يمتطيه ضابط مرافق ويركض به خبباً . أو يسمع أنين جريح ، أو خطوات حاملي النقالات ، أو أصوات النسوة المرتاعات اللواتي خرجن إلى عتبات منازلهنّ ينظرن إلى قصف المدافع .

كان بين هؤلاء السكان صاحبنا نيكيتا ، وأرملة البحار الشيخ التي تصالح معها ، وابنتها الصغيرة البالغة العاشرة من العمر .

قالت المرأة العجوز متنهدة ، وهي تنظر إلى القذائف التي تطير من جهة إلى أخرى بغير انقطاع أشبه ببالونات صغيرة من نار :

ـ يا ربُّ ! يا قديسة مريم ، يا أمَّ الرب ! يا للهول ! يا للهول ! آه ، آه !

أوه ، أوه ! أنظر الآن حيث ذلك الشيء الملعون ينفجر تماماً فوق بيتنا الصغير بالضاحية !

وقالت الابنة :

ـ لا . إنها تنفجر في مكان أبعد . إنها تتساقط في حديقة العمة ايرين .

وقال نيكيتا في صوت ممطوط يتعتعه السكر :

ـ وأين ، أين مولاي في هذه الساعة ؟ أوه ! أنتم لا تعرفون مقدار حبي له ! أبلغ من حبه أنه لو قتل ، لا قدَّر الله ذلك ، فلا أدري ، يا جدتي ، ما عسى أن أصنع بنفسي لو حدث هذا ! لا أدري !. مولاي من صنف خاص ، صنف نسيج وحده . فهل يمكن أن أبادل عليه بواحد من أولئك الذين يلعبون الورق هناك ؟ ما هم عليه ؟ آه ! إنه نسيج وحده !

بهذه الكلمات ختم حديثه مشيراً إلى النافذة المضاءة من غرفة سيده التي دعا إليها الطالب الضابط زفادشيفسكي أصدقاءه الليوتنان المساعد أوجروفيتش ، ونيبشيسيتسكي ـ هذا الذي يشكو من وجع في وجهه ـ حيث راح يحتفل بمناسبة حصوله على وسام .

قطعت الابنة الصمت الذي أعقب أقوال نيكيتا ، وقد وقفت تنظر إلى السماء :

ـ أنظروا إلى النجوم الصغيرة ! أنظروا كيف تتدحرج ! وهذه نجمة تسقط هناك ! علام تشير هذه ، يا أمي ؟

فقالت العجوز متنهدة ، دون أن تردَّ على ابنتها :

ـ ستدمر كوخنا الصغير تدميراً !

وتابعت الابنة كلامها ، وقد انطلق لسانها :

ـ حين ذهبنا اليوم إلى هناك أنا وعمي ، يا أماه ، كانت هنالك قنبلة ضخـ...مة داخل الغرفة قرب الخزانة . لا بدَّ أنها اخترقت السقف فسقطت في

الغرفة رأساً ! إنها ضخمة جداً ـ تعجزين عن رفعها من مكانها .

قالت العجوز :

ـ اللواتي كان لهنَّ أزواج ومعهنَّ مال رحلن جميعاً . لم يبق لنا غير هذا الكوخ ، وهاهم قد دمّروه ! أنظروا ، أنظروا كيف «يضرب» ! يا للدنيء ! آه ، يا إلهي ! آه ، يا إلهي !

ـ وحين خرجنا إلى الشارع ، أنا والعـم ، جا..ءت قنبلـة ، وانفجـرت ، وتطا..يرت الأرض حواليها ، وكادت شظية أن تصيبنا ..

أعلن الطالب الضابط الذي خرج من الباب يتبعه اصدقاؤه ليلقي نظرة على الانفجارات .

ـ هذه تستأهل صليباً .

قال الليوتنان نيبشيسيتسكي ، وهو يربّت على كتفه :

ـ حقاً ، إذهب إلى لقاء الجنرال .

وأضاف قائلاً ، وهو يهبط درجات السلَّم :

ـ سأمضي إلى الشارع لأرى ماذا هنالك من جديد .

قال زفادشيفسكي الجذلان ضاحكاً :

ـ في هذه الأثناء نحتسي نحن الخمرة ، فأنا أشعر أن روحي تنسلُّ من أسفل قدميَّ .

٧

راح الأمير جالتسين يلتقي بأعداد متـزايدة من الجرحـى المحمولـين على نقالات أو السائرين متوكئين بعضهم على بعض ، يتحدثون بأصوات صاخبة .

قال جندي طويل البنية ، تتدلى عن كتفيه بندقيتان ، في صوت أجش :



ـ كانوا يتواثبون علينا ، يا أصدقائي ، وهم يصيحون : الله ! الله ![1] وراحوا يتسلقون بعضهم على بعض . ما أن تقتل واحداً منهم حتى يبرز لك واحد آخر ... لم يبق في يدنا حيلة ! فما كانت صفوفهم تنتهي .

قاطعه جالتسين في هذا الموضع من الحديث مستوضحاً :

ـ أمن الحصن أنت عائد ؟

ـ نعم ، يا صاحب السعادة .

ـ حسناً ، ماذا حدث ؟ أخبرني !

ـ ماذا حدث ؟ يا صاحب السعادة . اقتربت قوتهم الهائلة منا ، وتساقطت علينا من فوق السور ، وانتهى كل شيء . لقد غلبونا تماماً ، يا صاحب السعادة .

ـ غلبوكم ؟... لكنكم صددتم هجومهم ؟

ـ كيف يمكننا أن نصدَّهم وقد هاجمتنا «قواهم» بأسرها ؟ لقد قتلوا جنودنا ، ولم تصلنا أية نجدة !

أخطأ الجندي . فقد ظلَّ الخندق في قبضتنا ، ولكنها ظاهرة غريبة يتبينها كل إنسان ، ألا وهي أن الجندي الذي يجرح أثناء قتال يظنُّ دائماً أن المعركة خُسرَتْ ، ويتصورها دامية جداً .

سأله جالتسين غاضباً :

ـ كيف هذا ؟ قالوا لي إنهم صُدُّوا ! لربما صدوهم بعد ذهابك ؟ هل جئت من زمن طويل ؟

فأجاب الجندي :

ـ عدت في هذه اللحظة ، يا صاحب السعادة ! وما تقوله غير محتمل ... لا

---

(١) اعتاد جنودنا الذين كانوا يقاتلون الأتراك على هذه الصيحة التي يطلقونها ، بحيث راحوا يتخيلون الآن إن الفرنسيين يصيحون قائلين : الله ! (المؤلف)

بدّ أن العدو ظلّ مسيطراً على الخندق . لقد احتلّه «هو» احتلالاً تاماً .

فصرخ الأمير جالتسين ، وقد آلمته قلة الاكتراث هذه :

ـ ألا تخجل لأنك خسرت الخندق ؟ شيء فظيع !

قال الليوتنان نيبشيسيتسكي :

ـ أوه ، حقاً إنهم يبعثون على الخوف ، هؤلاء الأشخاص . أنت لا تعرفهم . سأخبرك أنه من المستحسن ألا تطلب من هذا المجتمع شيئاً ـ لا كبرياء ، ولا وطنية ، ولا عاطفة . تجشّم عناء إلقاء نظرة على جميع هذا الحشد الذي يسير ، حيث لا تجد بينهم جرحي ولو من الدرجة العاشرة ، بل لا تجد غير نظّارة لا يطلبون سوى الهروب من المعركة . يا للجبناء ! هذا يبعث على الخجل ، أيها الأبناء ، فعلكم يبعث على الخجل !

وأضاف ، موجهاً الحديث إلَى الجنود :

ـ لقد غادرتم خنادقنا !

فتمتم جندي يقول :

ـ ما حيلتنا اذا كانت لديهم قوة غالبة ...

بدأ جندي محمول على نقالة مرَّ بقربهم يقول :

ـ آه ، يا صاحب السعادة . كيف كان في مقدورنا ألا نسلّمه إذا كان «هو» قد قتل جميع رجالنا تقريباً ؟ لو كانت عندنا قوة لما سلمنا الخندق بأية حال من الأحوال ! لكنه في مثل حالتنا ماذا كان في مقدورنا أن نعمل ؟ لقد طعنت واحداً ، فإذا شيء يصيبني ..

وشرع الجندي الجريح يئن :

ـ أوه ! أووه ! ترفقوا ، يا أخوتي ، ترفقوا ! أوه ! أووه !

قال الأمير جالتسين ، وقد أوقف من جديد ذلك الجندي الطويل الذي يحمل بندقيتين :

ـ ليبدونّ أن أعداداً كبيرة من الرجال تعود . لماذا عدت أنت ؟ أنت هنالك ؟ قف !

فوقف الجندي ، ورفع قبعته بيده اليسرى . فصرخ جالتسين بصوت قاس :

ـ إلى أين تذهب ، ولماذا ؟

لكنه ما أن اقترب من الجندي حتى لمح أن ذراعه اليمنى مقطوعة ، وكمّه مغطى بالدم حتى المرفق .

ـ أنا جريح ، يا صاحب السعادة !

ـ جريح ؟ كيف ؟

فأجاب الجندي ، وهو يدلُّ على ذراعه :

ـ هنا . لا بدَّ أنها رصاصة . ولكنني لا أعرف ماذا أصاب رأسي هنا .

وحنى رأسه ، فبدت على مؤخرته خصل الشعر ملتصقة بالدماء .

ـ لمن هذه البندقية الثانية التي تحملها ؟

ـ غدارة فرنسية حصلت عليها ، يا صاحب السعادة . ما كنت لأعود لولا أن عليَّ أن أرافق هذا الزميل .

وأضاف ، وهو يشير إلى جندي يسير إلى الأمام منه قليلاً متوكئاً على بندقيته ، جاراً ساقه اليسرى في صعوبة :

ـ إنه قد يتهاوى على الأرض .

صاح الليوتنان نيبشيسيتسكي في جندي آخر مجروح التقاه يسعى إلى الاقتراب من الأمير :

ـ أين تذهب ، أيها البائس ؟

شعر الأمير جالتسين فجأة بخجل شديد مما تفوَّه به الليوتنان نيبشيسيتسكي ومن جراء شكوكه ، هو ، الجائرة .

أحسَّ أن وجهه يحمرّ ، فأشاح عن الجندي وأسرع إلى المستشفى دون أن يطرح أسئلة أخرى على الجرحى أو يلتفت إليهم ببصره .

استطاع في عناء كثير أن يشقَّ لنفسه طريقاً إلى درج الباب بين الجرحى الذين يسيرون على أقدامهم ، وحاملي النقالات الذين يدخلون المبنى حاملين الجرحى ، ويخرجون منه حاملين الموتى . ومرق إلى القاعة الأولى ، وألقى نظرة ، واستدار على غير إرادة منه ، وهرب إلى الشارع : لقد كان المنظر رهيباً حقاً !

٨

كانت القاعة المرتفعة الواسعة المظلمة التي لا تضيئها غير أربع أو خمس شمعات يفحص الأطباء على نورها الجرحى غاصةً بالجنود . وكان حاملو النقالات يصبون في تلك القاعة مزيداً من الجرحى ـ يضعونهم على الأرض جنباً إلى جنب ، فيبلغ المساكين من التراصِّ أنهم يتدافعون بغير انقطاع ، ويستحمُّ كل منهم في دماء جيرانه ـ ثم يخرج حاملو النقالات للعودة بجرحى جدد . وكانت برك الدماء الممتدة في الأماكن التي لا تبرح خالية ، والأنفاس المحمومة التي تزفرها صدور مئات من الرجال ، والعرق الذي يتصبَّب من حاملي النقالات ، هذا كله يملأ الهواء برائحة ثقيلة نتنة لا تطاق في ذلك الجوِّ المعتم الذي تحترق فيه الشموع الداكنة الموضوعة في زوايا مختلفة من القاعة .

وكانت ضجة مختلطة من أنَّات وتنهيدات وحشرجات يعلو عليها أحياناً صراخ ثاقب حاد ترتفع في الجو وتملأ الغرفة بأسرها . وكان هنالك ممرضات لا تعبِّر وجوههنَّ عن ذلك الإشفاق النسوي التافه الدامع الذي لا يجدي نفعاً ، بل عن العزم الواعي الصادق على تقديم معونة حقة ، يتسلَّلن مسرعات بين

المعاطف والقمصان المدماة ويتخطين أجساداً ممددة ، حاملات أدوية وماء وخروقاً وضمادات . وكان الأطباء قد جثوا على ركبهم أمام الجرحى ، وعلى أضواء الشموع التي حملها مساعدوهم يتفحصون ، ويغمسون أصابعهم في الجروح ، ويجسُّون اللحم ، ويديرون الأعضاء المختلجة ، غير مكترثين بالصراخ الرهيب والضراعات المبتهلة المنطلقة من صدور أولئك المعذبين . وكان واحد من الأطباء جالساً أمام منضدة صغيرة قرب الباب ، يسجِّل في اللحظة التي دخل فيها الأمير جالتسين إلى القاعة الجريح الخمسمائة واثنين وثلاثين .

صاح طبيب آخر في الطرف الأقصى البعيد من القاعة ، وهو يجسّ ساقاً محطمة :

ـ إيفان بوجاييف ، رامي بندقية في السرية الثالثة من فوج س ... «كسر في الساق مع مضاعفات»[1] . اقلبه على الطرف الآخر .

فصرخ الجريح يئن متوسلاً إليهم ألا يلمسوه :

ـ أووه ... أووه ، يا آبائي ! أوه ، أنتم آباؤنا !

ـ خرق في الجمجمة[2] .

ـ سيميون نيفردوف ، ليوتنان كولونيل في فوج المشاة ن ... تذرَّع بالصبر قليلاً ، يا كولونيل ، وإلا استحال الأمر عليَّ : لسوف أكفُّ عن الاهتمام بك .

هذا ما قاله طبيب ثالث يحمل محجناً ينبش به جمجمة الكولونيل السيىء الحظ .

ـ لا ، دعني ، أوه ، ناشدتك الله أن تعجِّل ! انتهِ بسرعة ... آه !...

قال الطبيب ، وهو يبتعد عن جندي يحشرج وقد انقلبت عيناه :

ـ خرق في الصدر[3] . سيباستيان سيريدا ، رامي بندقية ... من أي فوج ؟ لا ضرورة أن تكتب ذلك ! «إنه يحتضر»[4] . إحملوه !

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) باللغة اللاتينية .

كان نحو من أربعين رجلاً من حملة النقالات يقفون عند الباب ينتظرون جرحى المضمدين لنقلهم إلى المستشفى أو ينتظرون الموتى لنقلهم إلى الكنيسة . كانوا ينظرون إلى ذلك المشهد كله في صمت ، ويطلقون تنهيدة بين حين وحين ...

٩

التقى كالوجين في طريقه إلى الحصن بجرحى كثيرين ، ولما كان يعلم من تجرب سابقة أن مثل هذا المشهد يوهن من عزيمة الذاهب إلى الجبهة فهو لم يتوقف للاستفسار منهم ، بل بذل جهده ألا يلتفت إليهم البتة . وحين وصل إلى سفح الرابية رأى ضابطاً رسولاً قادماً من الحصن بسرعة ، فصرخ به قائلاً :

ـ زوبكين ! زوبكين ! تمهل لحظة .

ـ حسناً ! ماذا تبغي ؟

ـ من أين قادم أنت ؟

ـ من الحصون .

ـ كيف الأحوال هنالك ـ حامية ؟

ـ أوه ، شيء فظيع !

واستأنف الرسول عدوه خبباً .

إذا كان إطلاق الرصاص قد قلَّ كثافة ، غير أن القصف بالمدافع اشتد جنوناً وعنفاً .

حدَّث كالوجين نفسه قائلاً ، وهو يشعر بقلق شاق أليم : «آه ، الحال سيئة !» . وساوره توجُّس شر ـ خطرت بباله تلك الفكرة المألوفة جداً ، فكرة

الموت . غير أن كالوجين رجل من طينة أخرى ـ من الصنف الذي يسمونه شجاعاً . فلم يستسلم لهذا التوجس الأول ، بل ردَّ عليه بشحذ عزيمته . وتذكر ما روي عن أحد مرافقي نابليون من أنه بعدما نفّذ أحد الأوامر رجع على صهوة جواده مسرعاً والدم يتدفق من رأسه لتقديم تقريره إلى امبراطـوره . فسأله الامبراطور :

ـ «هل جرحت» ؟(١)

فأجاب المرافق :

«عفوك ، يا مولاي ، لقد قُتلت»(٢)

وسقط عن حصانه ، ولفظ آخر أنفاسه .

بدت له القصة رائعة ، فتصوَّر نفسه لحظةً ذلك المرافق . ساط حصانه ، وشدَّ قامته شدَّةً قوزاقية فيها مزيد من مظهر الشجاعة ، والتفت إلى القوزاقي الذي كان يعدو وراءه على حصانه إلى أن بلغ المكان الذي ينبغي أن يترجّل فيه . هنالك رأى أربعة جنود جالسين على حجارة يدخنون غلايينهم . فصرخ قائلاً :

ـ ماذا تفعلون هنالك ؟

قال أحدهم ، وهو يخفي الغليون وراء ظهره ، ويرفع قبعته عن رأسه :

ـ كنا نحمل جريحاً وجلسنا نأخذ قسطاً من راحة ، يا صاحب السعادة .

ـ هه ! تأخذون قسطاً من راحة !... إلى مراكزكم ، فوراً ! سأبعث كلمة الى قائد فوجكم .

تسلّق معهم الرابية عبر الخندق ، حيث كان يلتقي بمزيد من الجرحى لدى كل خطوة يخطوها .

بعدما وصل إلى القمة انعطف يساراً ، ولم يكد يخطو عدة خطوات قليلة

(١) و (٢) باللغة الفرنسية

حتى وجد نفسه وحيداً . وهدرت بالقرب منه شظية قنبلة وهوت في الخندق . وظهرت أمامه قذيفة أخرى بدت كأنها متجهة إليه مباشرة . أحسَّ بالخوف فجأة . فركض بضع خطوات بأقصى ما سمحت له قدماه ، ثم ارتمى على الأرض . فلما انفجرت القذيفة على مسافة بعيدة من حيث كان شعر بغضب شديد من نفسه ، ونهض يتطلع إلى جميع الجهات كيما يطمئن أن أحداً لم يشاهده يرتمي على الأرض . ولم يكن بالمكان إنسان .

الخوف حينما يستولي على النفس مرة لا يخلي مكانه بسهولة لأي شعور آخر . هذا هو الذي طالما افتخر أنه لم ينحن في يوم من الأيام يسير الآن في الخندق كمن يزحف على أربعته ، فتعثر . قال يحدث نفسه : «أوه ، الحال سيئة ! لسوف يقتلونني من دون ريب» . وأحسّ بتنفُّسه يثقل ، وبالعرق يتفصَّد من مسام جسده جميعاً ، فدهش من سلوكه ، لكنه عدل عن مغالبة القلق والخوف .

سمع على حين فجأة وقع خطى أمامه . أسرع ينتصب بحركة قوية ، ورفع رأسه ، وشرع يقعقع بسيفه مزهواً ، وجعل يسير بخطوات متأنية . شعر وكأنه غدا إنساناً آخر . فلما التقى ضابطاً من سلاح الهندسة وبحاراً صرخ الضابط به أن يستلقي أرضاً ، مشيراً إلى نقطة مضيئة تكبر أمام البصر وتكبر مقتربة بسرعة متزايدة لتغوص في الأرض أخيراً قرب الخندق ، فلم يفعل سوى أن خفض رأسه قليلاً بحيث تمَّ ذلك دون إرادة منه ، لكن بتأثير صرخة الذعر وحدها . ثم واصل سيره .

قال البحار الذي كان يتابع ببصره القذيفة هادئاً أكبر الهدوء ، وكان قد أدرك دفعة واحدة بعينيه الخبيرتين المتمرِّستين أن الشظايا لن تستطيع أن تبلغ الخندق :

ـ هذا رجل شجاع ! حتى إنه لم يشأ أن يستلقي أرضاً !

لم يبق على كالوجين إلا أن يجتاز خطوات قليلة فوق الهضبة المكشوفة حتى

يبلغ الملجأ المصفَّح الذي يقيم آمر الحصن فيه . لكنَّ اضطراباً غريباً ، هو ذلك الخوف السخيف الأحمق ، اعتراه في هاتيك اللحظة مرة أخرى : أخذ قلبه يخفق خفقاناً سريعاً ، وازدحم الدم في رأسه ، واضطر أن يبذل جهداً كبيراً يغالب به نفسه ويتابع السير في طريقه راكضاً إلى الملجأ .

سأله الجنرال ، بعدما أصغى إلى الرسالة التي جاء كالوجين يحملها إليه :

ـ مالي أراك لاهثاً ؟

ـ غذَذتُ في السير ، يا صاحب السعادة !

ـ هل لك في كأس من الخمرة ؟

شرب كالوجين كأساً من الخمرة وأشعل سيجارة . كانت المعركة قد انتهت ، ولكن القصف لا يبرح متلاحقاً من الجهتين . في الملجأ كان يجلس الجنرال ن ، قائد الحصن ، وستة ضباط آخرون منهم براسكوخين . كانوا يتناقشون في مختلف وقائع المعركة . جلس كالوجين في تلك الغرفة المريحة بورق جدرانها الأزرق ، وكنبتها ، وسريرها ، وطاولتها الملأى بالأوراق ، وساعة حائطها التي يحترق أمامها قنديل ، وأيقونتها ـ أخذ يتأمل هذه الأشياء الوديعة ، وعوارض السقف القوية العريضة ، ويصغي إلى أصوات القصف بالمدافع التي جعلتها حواجز الملجأ أصواتاً خافتة ، ويتذكر كيف غالبه الخوف مرتين دون أن يفهم كيف استسلم لهذا الضعف . كان غاضباً من نفسه ، ويتمنى لو يتعرض للخطر مرة أخرى يمتحن بها أعصابه .

قال كالوجين مخاطباً ضابط البحرية الذي كان له شاربان كبيران ، وكان يرتدي معطف ضابط أعلى رتبة يزدان بوسام صليب القديس جورج ، وكان قد دخل الغرفة منذ لحظة يرجو الجنرال أن يمدّه بعمالٍ لإصلاح فوهتين من فوهات مدافع سريته انسدتا :

ـ آه ! أنا سعيد بلقائك هنا ، يا كابتين !

وأضاف كالوجين يقول بعدما أنهى الجنرال حديثه مع الكابتين :

ـ طلب إليَّ آمر السرية أن أسأل إذا كانت مدافعكم قادرة على إطلاق قذائف شظايا على الخنادق .

أجاب الكابتين ، وقد اربدَّ وجهه :

ـ مدفع واحد يستطيع ذلك .

ـ لا بأس . هيا بنا نفحصه معاً .

فعبس الكابتين ، ودمدم دمدمة غضب ، وقال :

ـ قضيت هنالك الليل كله ، وجئت أحصل على قليل من الراحة ـ ألا تستطيع أن تذهب بمفردك ؟ ستجد هنالك مساعدي ، الليوتنان كارتز ، فيقدّم لك جميع الإيضاحات المفيدة .

كان الكابتين يتولى منذ أكثر من ستة أشهر قيادة هذه السرية ، وهي واحدة من أكثر سرايا المدفعية تعرضاً للخطر . ومنذ بدأ الحصار ، وحتى قبيل اختراع الملاجيء المحصنة ، كان يعيش في الحصن دائماً . وكان مشهوراً بين البحارة بالشجاعة . لذلك دهش كالوجين كثيراً من رفضه . وقال يخاطب نفسه : «ما أكذب الشهرة أحياناً» .

وردَّ على الكابتين قائلاً بلهجة فيها نبرة سخرية خفيفة :

ـ حسناً إذن . سأذهب وحدي إذا سمحت .

غير أن الكابتين لم يلتفت إلى كلماته .

نسي كالوجين أن المدة التي قضاها في التحصينات لا تزيد عن خمسين ساعة خلال زيارات كان يقوم بها لهذه المواقع من حين إلى حين ، أما الكابتين فيعيش في هذه التحصينات منذ ستة شهور . وكان الغرور ، وحب الظهور ، والأمل في نيل وسام ، وفي أن يعدَّ رجلاً شجاعاً ، هذا كله كان يحفز كالوجين . أما الكابتين فعرف هذه الحوافز منذ مدة طويلة : لقد أحبَّ الاستعراض هو

أيضاً في البداية ، ميلاً إلى الظهور ، ومحبة بالمخاطر ، وتوقاً إلى الحصول على أوسمة حصل عليها فعلاً . بيد أنه يرى الأمور الآن رؤية أخرى . فهو يؤدي واجبه على خير وجه . ولكنه ، وهو يدرك أن الأمل في بقائه حياً ليس كبيراً ، بعد بقائه ستة شهور في الحصن ، لا يودُّ أن يعرِّض هذا الأمل الضئيل للخطر من دون ضرورة . لذلك استطاع الليوتنان الشاب الذي التحق بالسرية منذ أقل من أسبوع ، وشرع الآونة يُطلع كالوجين على أحوالها ، وينافسه في مدِّ رأسه من الكوة وتسلُّق دكة الرمي ، استطاع أن يُشعر كالوجين أنه أكثر من الكابتين شجاعة .

وفيما كان كالوجين عائداً إلى الملجأ من تفتيش السرية اصطدم في الظلام بالجنرال الذاهب إلى برج المراقبة برفقة ضباطه ، وسمع الجنرال يقول :

ـ كابْتين براسكوخين ، أرجو أن تذهب إلى الحصن في الجهة اليمنى ، وتبلِّغ الكتيبة الثانية من فوج م ... ـ التي تقوم هنالك بأشغال ـ أن عليها أن تقطع أشغالها وتنسحب ، وأن تلتحق بغير ضوضاء بفوجها قوةً احتياطيةً عند سفح الهضبة . هل تفهمني ؟ رافق الكتيبة إلى الفوج بنفسك .

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي .

وهمز براسكوخين حصانه يمضي به إلى الحصن خبباً .

وصار قصف المواقع لا يسمع إلا بين حين وحين .

١٠

حين وصل براسكوخين إلى وجهته التفت إلى الجنود الذين يحملون على ظهورهم أكياساً من تراب ، واستفسر قائلاً :

ـ أهذه هي الكتيبة الثانية من فوج م ...؟

ـ نعم ، يا صاحب السعادة .

ـ أين الآمر ؟

حسب ميخايلوف أنهم يسألون عن آمرِ الكتيبة ، فخرج من حفرته . وظنَّ براسكوخين ضابطاً أعلى منه رتبة ، فتقدَّم منه وهو يحييه .

قال براسكوخين ، وهو يلقي نظرات مختلسة على الجهة التي يطلق العدوُّ النار منها :

ـ أوامر الجنرال هي أن ... عليكم ... أن تتراجعوا ... بأقصى سرعة ... وبهدوء مطلق ... إلى وراء ـ لا ، لا إلى وراء ، بل إلى حيث توجد قوات الاحتياط .

ولما عرف أن مخاطبه هو براسكوخين أسبل يده ، وبعدما فهم ما يراد منه أسرع ينقل الأمر إلى الكتيبة . فأخذت هذه تتحرك في فرح ، ومضى الرجال يتناولون بنادقهم ويرتدون معاطفهم ، وساروا منطلقين .

من لم يعانِ هذا الأمر بنفسه لا يقدر أن يتصوَّر قوة الشعور بالخلاص الذي يحسّه رجل يبارح مكاناً خطراً مثل هذه الحصون بعد ثلاث ساعات من قصف المدافع . وميخايلوف الذي اعتقد أكثر من مرة خلال هذه الساعات الثلاث دنوَّ ساعته توفرت له فرصة كافية للاعتقاد أنه مقتول لا محالة ، وأنه لم يعد من أبناء هذا العالم . وعلى الرغم من ذلك فقد بذل جهداً كبيراً كيلا يركض حين خرج من الحصن على رأس كتيبته ، يرافقه براسكوخين .

قال له ميجر شاركه ميخايلوف خبزه وجبنه في الحفرة تحت المتراس ، وكان قد بقي في الحصن آمراً لكتيبة أخرى :

ـ الى اللقاء أتمنى لكم رحلة موفقة .

ـ وأنا بدوري أتمنى لكم دفاعاً موفقاً . يبدو أن الهدوء يزداد انتشاراً الآن .

لم يكد ميخايلوف ينطق بهذه الكلمات حتى كان العدو ـ وقد يكون لحظ هذه الحركة في الحصون ـ يكثّف نيرانه . فردّت عليه مدافعنا ، واستؤنف القصف قوياً شديداً .

النجوم عالية جداً في قبة السماء تلتمع ببريق شاحب . والليلة مظلمة لا يرى المرء فيها إلا بروق المدافع وانفجارات القذائف التي تضيء السماء بوميض سريع فتتيح له أن يميّز الأشياء حواليه . والجنود يسيرون بسرعة وصمت ، يتجاوز بعضهم بعضاً على غير إرادة ، فلا يسمع المرء بين طلقة وطلقة من المدافع الهادرة غير وقع أقدامهم على الطريق الجافة ، وغير قعقعة الحراب المتصادمة ، وغير آهة أو صلاة تخرج من صدر جندي يزفر قائلاً : «رباه ! آه ، رباه ! ما معنى هذا ؟» . وقد تسمع في بعض الأحيان أنّات جريح يتبعها صراخ ينادي : «يا حاملي النقالات !» (قتلت المدفعية في السرية التي كان ميخايلوف آمرها ستة وعشرين رجلاً خلال الليل) . ويومض برق في ظلمات الأفق البعيد ، فيصيح خفير المراقبة في الموقع منادياً : «مد ...فع !» . وتئز القذيفة فوق الكتيبة ، ثم تسقط على الأرض فتتطاير الحجارة .

كان براسكوخين يحدّث نفسه وهو يسير إلى جانب ميخايلوف ولا ينفكّ ينظر وراءه : «لماذا يسيرون في بطء شديد وحقّ الشيطان ؟ ألا أفعل حسناً إذا أنا أسرعت من خطوي ؟ لقد أوصلت الأوامر ... ولكن لا ، قد يقولون فيما بعد إنني جبان . ما سيكون سيكون . سأظلّ إلى جانبه !»

وكان ميخايلوف يحدث نفسه هو الآخر : «لماذا يصرُّ على السير إلى جانبي ؟ لقد لحظت مراراً وتكراراً أنه يجلب سوء الحظ دائماً . هذه قنبلة أخرى يخال لي أنها مقبلة علينا رأساً !»

بعد بضع مئات من الخطا التقيا بكالوجين الذي يسير إلى الحصون مقرقعاً بسيفه . كان الجنرال قد أمره أن يسأل عن حالة الأشغال فيها . وما أن لقي

ميخايلوف حتى خاطب نفسه قائلاً إنه بدلاً من أن يذهب إلى الحصون تحت وابل النيران المتساقطة ـ وهو أمر لم يطلب منه على كل حال ـ يستطيع أن يعرف التفاصيل كاملة من الكابتين . وشرح له ميخايلوف حالة الأشغال بصورة كافية ، وسار معه مسافة من الطريق ، ثم انعطف كالوجين إلى الخندق الموصل إلى الملجأ المصفَّح .

سأله ضابط كان وحيداً في الغرفة يتناول طعام عشائه :

ـ هيه ! ما هي الأخبار ؟

ـ لا شيء مهم . أحسب أن القتال ينتهي في هذه الليلة .

ـ ينتهي ؟ كيف ذلك ؟ بالعكس ! لقد ذهب الجنرال منذ برهة إلى برج المراقبة . ووصل فوج بديل قبل هنيهات . بلى . إليك . أتسمع ! أزيز رصاص ! لقد استؤنف إطلاق البنادق .

ولما لحظ الضابط حركةً همَّ بها كالوجين ، فقد قال له :

ـ لا تذهب إلى هناك . ما الذي يدعوك إلى ذلك ؟

وخاطب كالوجين نفسه قائلاً : «عليَّ من دون ريب أن أكون هناك . غير أنني تعرَّضت للمخاطر هذا النهار كثيراً . القصف رهيب .»

وقال يردُّ على الضابط :

ـ حقاً ، ربما كان الأفضل أن أنتظره هنا .

رجع الجنرال بعيد خمس دقائق برفقة ضباطه . كان في عدادهم الطالب الضابط البارون بيشت . ولم يكن براسكوخين معهم . لقد استرجعت الحصون وبقيت في حوزتنا .

بعدما حصل كالوجين على معلومات دقيقة عن الموقعة خرج من الملجأ برفقة بيشت .

١١

سأل كالوجين :

ـ على معطفك دماء ! هل شاركت في التحام ؟

ـ أوه ، كان الأمر رهيباً ! تصوَّر فقط ...

وشرع بيشت يسرد كيف قاد كتيبته ، وكيف قُتل قائدها ، وكيف طعن فرنسياً بحربته ، وكيف أنه لولا وجوده هو كنا فقدنا كل شيء .

وقد تبين أن قصته كانت حقيقة واقعة : قائد الكتيبة قتل ، وبيشت طعن فرنسياً بحربته ، ولكن الطالب الضابط كان أثناء ذكره للتفاصيل يوشّيها ويطرزها تباهياً .

كان يتباهى على غير شعور منه لأنه كان أثناء ذلك في حالة من الضباب والاضطراب بحيث أن الأحداث التي يتذكرها تبدو له الآن وكأنها جرت في مكان غير معروف ، وزمان غير معروف ، وتتصل بشخص آخر غيره . وطبيعي أنه كان يحاول أن يعرض التفاصيل عرضاً يناسبه . وإليكم كيف وقعت الأمور :

كانت الكتيبة التي ألحق بها الطالب الضابط للقيام بطلعة متمركزة في مكانها قرابة ساعتين تحت نيران العدو بالقرب مما يشبه جداراً منخفضاً . ثم نطق آمرها الذي كان في طليعتها بضع كلمات ، فتحرك قادة السرايا ، وسارت الكتيبة مبتعدة عن الحاجز ، وقطعت زهاء مائة خطوة وتوقفت لتصطف أرتالاً وصدر الأمر لبيشت أن يبقى في الجانب الأيمن من السرية الثانية .

لبث بيشت في المكان المحدَّد له وهو لا يفهم ماذا يجري ، ولا يعرف أين هو ، ولا لماذا هو في ذلك المكان . حبس أنفاسه بغير شعور منه ، في حين راحت قشعريرة باردة تسري في ظهره ، وهو يحدّق إلى الظلمة البعيدة متوقعاً حدوث

شيء رهيب . لم يكن شعوره خوفاً على كل حال (لأنه لم يكن هنالك إطلاق نار بعد) ، وإنما كان نوعاً من دهشة من أنه صار خارج القلعة في وسط البر .

نطق آمر الكتيبة بضع كلمات أخرى في مقدمة الكتيبة . فتناقل الضباط الأمر من جديد بصوت خافت ، فإذا الجدار الذي تشكله السرية الأولى يهوي على الأرض على حين فجأة . كان الأمر يقضي بالرقاد على الأرض . واستلقت السرية الثانية بدورها ، وتهاوى بيشت على الأرض فشعر بوخزة في يده من شيء مدبب . ولم يبق واقفاً غير آمر السرية الثانية . كانت قامته القصيرة تلوِّح سيفاً وتتحرك في مقدمة الرتل ولا تتوقف عن الكلام :

ـ انتبهوا ، يا أولاد ! أظهروا لهم الآن من أية طينة جُبلتم ! لا تطلقوا النار ، بل هاجموهم بالحراب ـ أولئك الكلاب ـ حين أصرخ «هورراه !» اندفعوا ورائي ، جميعاً ، ولا تتباطئوا في الخلف . لسوف نريهم من أي شيء جُبلنا . يجب ألا يتلطخ شرفنا بالعار ، أليس كذلك ، أيها الشجعان ؟ في سبيل أبينا القيصر !

سأل بيشت طالباً آخر يستلقي إلى جانبه :

ـ ما اسم آمر سريتكم ؟ ما أشجعه !

فأجاب الآخر :

ـ نعم ـ إنه دائماً على أهبة للعمل ... واسمه ليسينكوفسكي .

في تلك اللحظة ومضت شرارة في مقدمةالسرية ، ودوّى انفجار رهيب أصمَّ أسماعَ الرجال ، وتطايرت الحجارة عالية متصادمة في الفضاء (بعد خمسين ثانية سقط حجر على ساق أحد الجنود وأصابها بأذىً) . إنها قنبلة أُطلقت من مدفع مُحكم الرمي ، وكان سقوطها قرب السرية دليلاً على أن الفرنسيين رأوا الرتل .

صاح آمر السرية في صوت بلغ من القوة أن قائد الكتيبة اضطر أن يأمره بالصمت وأن يقلَّ من ضجيجه . صاح يقول :



ـ أنتم ترموننا بالقنابل ، أليس كذلك ؟ رويدكم هنيهات فنسًاقط عليكم ، وعندها تذوقون طعم الحراب الروسية ! عليكم اللعنة !

بعيد ذلك نهضت السرية الأولى ، وحذت السرية الثانية حذوها ، وصدر الأمر بتثبيت الحراب ، وتقدَّم الجنود . واشتدَّ هلع بيشت بحيث غدا لا يشعر بشيء ولا يدرك شيئاً . إلى أين هو ذاهب ؟

ومن يكون هو ؟ كان يمشي كالسكران . وها هي ملايين الشعل تسطع من جميع الجهات على حين فجأة ، يعقبها أزيز وانفجارات . فصرخ وركض لا يعرف إلى أين لأن الجميع صاروا يصرخون ويركضون . واصطدم بشيء وسقط فوق شيء آخر . إنه قائد السرية الذي جرح بينما كان يركض في طليعة رجاله ، وها هو يمسك الطالب الضابط من ساقه وقد حسبه فرنسياً . فلما استطاع بيشت أن يخلِّص ساقه وينهض ثانية لم يلبث أن شعر بعد لحظة واحدة برجل يتهاوى على ظهره في الظلام الحالك ، ويكاد يسقطه من جديد . في تلك اللحظة سمع رجلاً آخر يصيح قائلاً : «ماذا تنتظر قبل أن تطعنه ؟» . وتناول أحدهم بندقية وأغمد حربتها في شيء رخو : فانطلقت صرخة ثاقبة رهيبة تقول بالفرنسية : «إليَّ ، يا رفاقي ! آه ... رباه !» . وعندئذ أدرك بيشت أنه طعن فرنسياً بحربته . فتقاطر على جسده عرق بارد . واعتراه ارتعاد شديد كأن الحمى تنهشه ، فأسقط بندقيته . لكن هذا الاضطراب لم يدم أكثر من لحظة واحدة ، وسرعان ما عاودته فكرة أنه بطل . فتناول بندقيته مرة أخرى ، واندفع يختلط بالجنود صارخاً : «هورراه !» ، مبتعداً عن الفرنسي القتيل . وما أن ركض مسافة عشرين خطوة حتى وصل إلى الخندق الذي كان رجالنا قد احتلوه ، وكان قائد الكتيبة فيه .

قال بيشت مخاطباً قائد الكتيبة :

ـ قتلتُ فرنسياً .

فأجابه قائد الكتيبة :

ـ مرحى ، مرحى ، يا بارون !

١٢

قال بيشت ، وهو يرافق كالوجين الى منزله :

ـ أتعرف أن براسكوخين قتل ؟

ـ مستحيل !

ـ بل صحيح ! رأيته بعينيً .

ـ حسناً ، وداعاً . فأنا في عجلة من أمري .

خاطب كالوجين نفسه ، وهو يقترب من مسكنه : «ما أشدً غبطتي ! إنها المرة الأولى التي يواتيني فيها الحظ أثناء أداء خدمتي . إنها موقعة عظيمة . لقد خرجت منها سالماً لم يمسسني سوء ، وسوف تتضمن التقارير ملحوظات ممتازة عني ، ولا ريب أني سأنال سيفاًمذهباً . وأنا أستحقه على كل حال» .

بعدما أبلغ الجنرال المعلومات المطلوبة دخل غرفته التي كان الأمير جالتسين رجع اليها منذ مدة طويلة ، وقعد يقرأ كتاباً لبلزاك عثر عليه على منضدة كالوجين .

أحسً كالوجين بغبطة لا توصف حين وجد نفسه سالماً في بيته مرة أخرى ، ولبس قميص نومه ، واضطجع في فراشه ، وشرع يصف لجالتسين تفاصيل الموقعة من وجهة نظر تظهره هو ، كالوجين ، بمظهر ضابط ينعم بقدر كبير من الكفاءة والشجاعة . (يخال لي أنه لم يكن ثمة ضرورة لذلك ، فجميع الناس يعرفون هذا الأمر ، وإن أحداً لا يملك الحق في وضع ذلك موضع الشك ، أللهم إلا المرحوم الكابتين براسكوخين الذي ، رغم شعوره بأنه شرفه كثيراً بالأمس

أن يخرج معه متأبطاً ذراعه ، قد أفضى ليلة البارحة إلى أحد الأصدقاء أن كالوجين رجل جريء جداً من غير شك ، «لكن ، بيني وبينـك ، لا يحـب الذهاب إلى التحصينات على الاطلاق» .

ما أن انفصل براسكوخين ، الذي كان يسير إلى جانب ميخايلوف ، عن كالوجين وشرع يستردُّ شيئاً من الثقة لاقترابه من منطقة أقلَّ خطراً ، حتى أبصر على حين فجأة برقاً ساطعاً يضيء السماء خلفه ، وسمع صرخة الخفير : «مدفع هاون !» ، فقال جندي كان يسير وراءه : «هذه مقبلة على الكتيبـة رأساً» .

التفت ميخايلوف . بدت النقطة المضيئة كأنها تتوقف في سمتها على ذلك الوضع الذي لا يستطيع المرء معه إطلاقاً أن يحدِّد الوجهة التي ستمضي فيها . لكنَّ ذلك لم يدم أكثر من لحظة : فإن القذيفة ، وكانت تسرع كثيراً وتقترب كثيراً ، أصبحت شرارات فتيلتها الملتهبة تشاهد متميزة ، وصار أزيزها المشؤوم يُسمع واضحاً ، وأخذت تهبط في وسط الرتل .

صرخ أحدهم يقول :

ـ ارتموا على الأرض !

انبطح ميخايلوف وبراسكوخين على الأرض ، وأغمض الأخير عينيه . ولم يبلغ الأسماع غير اصطدام القذيفة بالأرض القاسية قريباً منه . وانقضت ثانية بدت له ساعة كاملة : القذيفة لم تنفجر . فاستولى عليه الذعر . لربما أسرف في ذعره من دون سبب ! لعلَّ القذيفة سقطت بعيدة عنه فلا يسمع منها إلا خريرها ! وفتح عينيه ، واغتبط حين رأى ميخايلوف منبطحاً على بطنه تماماً . وفي تلك اللحظة ذاتها لمح الفتيلة المشتعلة من القذيفة التي تدور على مسافة قصيرة منه لا تبلغ ياردة واحدة . استولى عليه الرعب ، رعب بارد . وطرد من نفسه كل عاطفة أخرى وكل فكرة أخرى ، ونفذ إلى كيانه كله . فغطى وجهه

بيديه .

انقضت ثانية أخرى ـ ثانية في خلالها تلاحق في خياله عالم كامل من المشاعر ، والأفكار ، والآمال ، والذكريات .

«من تراها ستصيب ـ ميخايلوف أم أنا ؟ أم كلانا ؟ واذا أصابتني أنا ، فأين تكون الإصابة ؟ في الرأس ؟ انتهى كل شيء إذن . أما إذا كانت في الساق فسيبترونها لي (وسوف أُصرُّ عندئذ على أن يخدروني بالكلوروفورم) . وقد أظلُّ على قيد الحياة . لعلَّ القذيفة لن تقتل غير ميخايلوف ، وعندها أستطيع أن أروي كيف كنا إلى جانب بعضينا حين قتل ، وكيف ترششت بدمه . كلا ، إنها أقرب إليَّ ، فأنا الذي سأموت» .

تذكَّر في تلك اللحظة الاثني عشر روبلاً التي لا يزال مديناً بها لميخايلوف ، وتذكَّر ديناً آخر عليه ببطرسبورج كان ينبغي أن يدفعه منذ مدة طويلة ، واللحن الغجريَّ الذي غنَّاه الليلة الماضية . وتراءت له في خياله المرأة التي أحبَّ تلبس قبعة تزينها أشرطة ليلكية . وتذكَّر رجلاً أهانه قبل خمس سنوات ولم يثأر منه بعد . ولكن الشعور بالواقع الراهن وانتظار الموت المروِّع لم يبارحه ، بل كان دائم الحضور ، يختلط بهذه الآلاف من الذكريات ويتحد بها اتحاداً لا انفصام له . وخطر بباله فجأة أن «القذيفة قد لا تنفجر» ، فحاول يائساً أن يفتح عينيه . ولكن عينيه ، في تلك اللحظة ذاتها ، ومن خلال جفنيه المطبقين ، نفذ إليهما نور شعلة أحمر ، وإذا شيء يخبطه في صدره وسط ضجة هائلة . فوثب وراح يركض ، ثم ترنح على سيفه الذي اندسَّ بين قدميه ، وسقط على جنبه .

كانت أول فكرة خطرت بباله أنه قال : «الحمد لله ، هي رضة لا أكثر» ، وكاد أن يرفع يده إلى صدره فيجسه بها ، لكن ذراعيه بدتا كالمربوطتين إلى جانبيه . وأحسَّ أن رأسه يشبه أن يكون مشدوداً بين فكّي ملزمة . ومرَّت أمامه جماعات من جنود ، فشرع يعدُّها : «واحد ، اثنان ، ثلاثة ! وهذا ضابط يلتفُّ

بمعطفه» . ثم تراقص أمام بصره برق ، فتساءل : هل الرمي من هاون أم من مدفع ... «هو مدفع في أغلب الظنّ . وهذا رمـي من جديـد . وهؤلاء جنـود آخرون ـ خمسة ، ستة ، سبعة ... إنهم يمرون جميعاً أمامي» . وفجأة خاف أن يدوسوه . فأراد أن يصرخ قائلاً إنه مجروح ، ولكن لسانه الجاف ظلّ ملتصقاً بسقف فمه . وجعل عطش شديد يعذّبه . وأحسّ برطوبة في صدره . فجعله هذا الإحساس بالرطوبة يفكّر في المـاء ، واشتهـى أن يشرب ما كان يبلّل صدره . قال في نفسه : «لا بدّ أنني خدشت أثناء سقوطي ، الأمر الذي جعلني أنزف دماً» . وأرخى العنان للخوف من أن يدوسه الجنود الـذين ما يزالـون يتقاطرون أمامه ، فأعمل كلّ قواه محاولاً أن يصيح : «احملوني معكم !» . لكنه بدلاً من الصياح أطلق أنيناً هائلاً بحيث ارتاع منه نفسه . وأخذت بعد ذلك نيران حمراء تتراقص أمام عينيه . وأحسّ كأن الجنود يرمون صخـوراً فوق جسده . ثم أخذت النيران التي تدور وتلتف أمام عينيه تقلّ شيئاً بعد شيء . وحاول أن يبعد الصخور عن صدره ، وتصلّب ، ثم لم يعد يرى شيئاً أو يسمع شيئاً أو يفكر في شيء أو يشعر بشيء . لقد قتلته شظية أصابته في ملء صدره .

١٣

استلقى ميخايلوف على الأرض عند رؤيته القنبلة . فقد عانـى ، مثـل براسكوخين ، طائفة لا حصر لها من الأفكار والعواطف المتنوعة قبل أن تنفجر القنبلة . كان يصلي في سرّه ، ولا يبرح يردّد : «لتكن مشيئتك» . وكان يحدّث نفسه في الوقت ذاته قائلاً : «لماذا تطوعت في الجيش ؟ لماذا طلبت نقلي إلى سلاح المشاة للمشاركة في هذه الحملة ؟ ألم يكن أفضل لي لو بقيت في فوج الرماحين بمدينة ت ... وقضيت الوقت هنالك في صحبة صديقتي ناتاشا ؟ أما

الآن فهأنذا ...»

وأخذ يعدُّ : «واحد ، اثنان ، ثلاثـة ، أربعـة» ، هامساً في نفسه أنـه إذا انفجرت القذيفة على رقم شفعي سيبقى على قيد الحياة ، أما اذا تمَّ الانفجار على رقم وتري فسيكون نصيبه الموت» . وحين انفجرت القنبلة قال لنفسه : «انتهى كل شيء ! لقد قُتلت !» . (إنه لا يتذكر على كل حال ما إذا كانت القنبلة انفجرت عند تلفظه برقم شفعي أم وتري) . وقد شعر بصدمة وألم شديد في رأسه ، فصاح يقول وقد ضمَّ يديه : «إغفـر لي خطايـاي ، يا رب !» . ونهض ، ولكنه عاد فسقط على ظهره مغشياً عليه .

كان إحساسه الأول حين أفاق من إغمائه هو الإحساس بدم يسيل على أنفه ، وبألمٍ في رأسه يخفُّ شيئاً بعد شيء . فقال في نفسه : «هذه روحـي تصعد ، ترى ماذا في العالم الآخر ؟ تقبَّل ، يا رب ، روحي في سلام !» . ثم حدَّث نفسه بعد ذلك قائلاً : «شيء واحد يدهشني ، هو أنني وأنا أموت لا أزال أدرك وقع خطوات الجنود وقصف المدافع في وضوح شديد» .

صاح فوق رأسه صوت سرعان ما عرف فيه صوت الطبال إغناتييف :

ـ من هنا . هاتوا النقالات ! هيه ، لقد أصيب آمر السريّة .

أمسك به أحدهم من كتفيه ، وفتح هو عينيه في جهد كبير . فرأى فوقه السماء ، وعدداً كبيراً من النجوم ، وقذيفتين تمران في الفضاء متسابقتين . ورأى إغناتييف ، وجنوداً يحملون نقالات وبنادق ، والسدَّ ، والخنادق . وأدرك فجأة أنه لما ينتقل بَعْدُ إلى العالم الآخر .

لقد أصابه حجر بجرح طفيف في رأسه . فكان شعوره الأول نوعاً من الأسف والحسرة : هيأ نفسه بصورة جيدة وفي هدوء تام للانتقال إلى العالم الآخر بحيث أن عودته إلى الواقع ، إلى القنابل والخنـادق والـدم ، ساءتـه وكدَّرته . وكان شعوره الثاني طغيان من الفرح لأنه لا يزال على قيد الحياة .

أما الشعور الثالث الذي اجتاح نفسه فهو الشعور بالرغبة في الابتعاد عن الحصن بأقصى سرعة ممكنة . وضمَّد له ضارب الطبل رأسه بمنديل ، ثم أمسكه من تحت إبطه ، وقاده في اتجاه مركز الإسعاف .

قال الكابتين يحدِّث نفسه بينما وعيه يعود إليه شيئاً بعد شيء : «لكن إلى أين ذاهب أنا ، ولأية غاية ؟ واجبي أن أبقى على رأس سريتي ، وألا أبتعد ـ لا سيما وأن الرتل لن يلبث أن يصل إلى خارج منطقة النار».

وقال للطبال ، وهو يسحب ذراعه من يده :

ـ لا يقلقنَّك أمري ، يا صاحبي . لن أذهب إلى مركز الإسعاف : سأظلّ قريباً من سريتي .

ورجع أدراجه .

قال إغناتييف :

ـ بل يفضل أن يضمدوا لك جرحك تضميداً مناسباً ، يا صاحب السعادة . فالمرء لا يشعر بالجرح للوهلة الأولى . ولكن الأمر قد يسوء .. أنظر إلى هذه النيران ههنا ... حقاً ، يا صاحب السعادة ...

وقف ميخايلوف بضع لحظات متردداً . وأغلب الظنّ أنه كان يمكن أن يتَّبع نصيحة إغناتييف لولا أنه تذكر في هاتيك اللحظة أعداد الجرحى الذين قد يكونون موجودين في مركز الإسعاف . «لعلهم سيبتسمون عندما يرون جرحي» . ورجع إلى سريته رغم إلحاح ضارب الطبل .

سأل الملازم البحري الذي استلم قيادة السرية في غيابه :

ـ أين الضابط المرافق براسكوخين الذي كان قربي ؟

فأجاب الملازم البحري في امتعاض :

ـ لست أدري . قتل ، على ما أعتقد .

ـ قتل ؟ أم جرح فقط ؟ كيف تجهل هذا ؟ أما كان يسير معنا ؟ لماذا لم

تنقله ؟

ـ كيف يمكننا أن ننقله تحت عصف مثل هذه النيران ؟

قال ميخايلوف في غضب :

ـ كيف يمكن أن تفعل هذا ، يا ميخائيل إيفانوفيتش ؟ كيف يمكن أن تتركه إذا كان لا يزال حياً ؟ إفرض أنه مات . كان ينبغي نقل جثمانه رغم ذلك .

ـ كيف يمكن أن يكون حياً عندما أقول لك إنني ذهبت إليه ورأيته بنفسي ؟ أُعذرني ... ليتنا نستطيع نقل قتلانا على الأقل . آه ... يا للأوغاد ! إنهم يفعلون ذلك مرة أخرى . يرموننا الآن بقنابل .

جلس ميخايلوف ، ورفع يديه إلى رأسه عندما شعر بألم شديد من جرّاء الحركات التي قام بها . قال :

ـ لا . ضروري أن نعود ونبحث عنه . لعلّه لا يزال حياً . هذا «واجبنا» ، يا ميخائيل إيفانوفيتش .

لم يجب ميخائيل إيفانوفيتش. فقال ميخايلوف يخاطب نفسه : «أواه ، يا رب ! علينا الآن أن نبعث جنوداً لأنه لم يحضره من قبل ... ولكن ، كيف نبعث بهم تحت هذه النيران الجهنمية ؟ قد يقتلون من دون ريب» .

وقال دون أن يرفع صوته كثيراً ، بنبرة ليست نبرة إصدار الأوامر ، لأنه يدرك معنى ما قد يُحدثه إصدار هذا الأمر في نفوس الجنود من ضيق وتبرُّم :

ـ يا رفاق ! يجب أن يرجع أحدنا إلى وراء لنقل الضابط الذي يثوي جريحاً هنالك في الخندق .

وقد كان محقاً . إن أحداً لم يتقدَّم للقيام بهذه المهمة .

قال ميخايلوف محدثاً نفسه : «يجوز أن يكون قد مات . فليست هنالك ضرورة لتعريض هؤلاء الرجال للخطر من دون جدوى . إنها غلطتي وحدي . كان يجب عليَّ أنا أن أهتمَّ بالأمر . سأذهب بنفسي ، فأعرف ما إذا كان مات أم

لا يبرح في قيد الحياة . ذلك واجبي» .

وقال يخاطب الملازم ، وقد أمسك معطفه بيد ، بينما لم تترك الأخرى الأيقونة الصغيرة للقديس متروفان المعلّقة حول عنقه والتي يؤمن بها إيماناً كبيراً :

ـ ميخائيل إيفانوفيتش ! أعهد إليك بالسرية ، وسألحق بكم .

واندفع راكضاً في الخندق .

حينما ثبت له أن براسكوخين مات شرع يجرُّ نفسه عائداً وهو يلهث ، مسوياً من وضع ضماده الذي انزلق عن رأسه ، شاعراً بألم شديد مرة أخرى . وحين بلغ الكتيبة كانت قد وصلت إلى سفح الرابية خارج نطاق مرمى العدو تقريباً . أقول «تقريباً» لأن قذيفة تائهة كانت تصل إلى ذلك المكان في بعض الأحيان .

أسرع ممرض يضمد الكابتين المساعد ميخايلوف ، في حين راح هذا الأخير يهمس لنفسه : «يجب عليَّ أن أسجِّل اسمي في مركز الاسعاف غداً . وهذا يساعد في ترقيتي» .

١٤

مئات من الجثث التي كانت تحركها قبل ساعتين آمال شتى ورغبات شتى ، سامية أو تافهة ، ترقد الآن مغطاة بالدم متصلبة الأعضاء على السهل المفروش بالأزهار والندى بين التحصينات والخنادق ، كما ترقد على البلاط الأملس في كنيسة الموتى في سيباستوبول . ومئات من الرجال يجرون أنفسهم جراً ، ويزحفون على بطونهم زحفاً ، يتقلبون ويئنون ، ويطلقون من بين شفاههم المتيبسة لعنات أو صلوات ، بين الجثث الملقاة في الحقل المزهر أو فوق السقالات أو على المضاجع أو الأرض الغارقة بالدم في مركز الاسعاف . ولكن الفجر مثله في الأيام السابقة ، يشرق على هضبة سابون فيصبغ الأفق بحمرة قانية ،

وتشحب الأنجم الراعشة ، وينتشر الضباب الأبيض على البحر الداكن الذي يعلو هديره في آخر الليل . لقد أشعل الفجر السماء في الشرق ، وانزلقت سحب أرجوانية طويلة على خط الأفق اللازوردي الواضح . وكما في الأيام الماضية أشرقت الشمس القوية من الظلمات ، حاملة وعود الفرح والحبَّ والسعادة إلى كل من يتنفَّس في هذا العالم الذي ارتدت اليه الحركة والحياة .

١٥

في مساء اليوم التالي كانت موسيقى فوج القنّاصة تعـزف من جديـد في الجادة . وكان ضباط ونبلاء متطوعون وجنود ونساء شابـات يتجولـون حول السرادق أو تحت ممرات أشجار الأكاسيا المزهرة التي تعطِّر الجوَّ بأريجها .

وكالوجين والأمير جالتسين وكولونيل آخر يطوفون قـرب السرادق ، وقـد تماسكت أذرعهم ، يتحدثون عن موقعة الليلة المنصرمة . كان الموضوع الرئيسي لحديثهم ، كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات ، لا يدور على الاشتباك ذاته ، بل على الأعمال التي أداها كل واحد من المتحدثين . وكانت وجوههم ونبرات أصواتهم تُفصح عن جدٍّ وحزن ، كأن خسائر الأمس مسَّت شغافهم فأحزنتهم جميعاً . وإذا شئنا الحقيقة ، فطالما أن أحداً منهم لم يفقد إنساناً عزيزاً على قلبه ، فإن ذلك التعبير من الحزن كان تعبيراً مصطنعاً يشعرون أن من واجبهم أن يصطنعوه . كان كالوجين والكولونيل ، رغم أنهما من أحسن الرجال،على استعداد أن يشهدا معارك من هذا النوع في كل يوم إذا توفَّر لهما الحصول على سيف من ذهب أو رتبة ميجور جنرال في كل مرة . حسنٌ أن أسمع الناس يصفون أحد الغزاة الذين لا يتورعون عن التضحية بملايين الأرواح تحقيقاً

لأطماعهم بأنه وحش كاسر . لكن اسألوا الليوتنان البحار بتروشيف أو الليوتنان أنتونوف أو غيرهما أن يصدقوكم القول ، تروا أن كلاً منهم هو في نوعه نابليون صغير ، وحش صغير ، مستعد أن يأمر فوراً بخوض معركة وقتل مائة رجل لا لهدف غير أن يزين ياقته بنجمة إضافية ، أو أن يحصل على زيادة في راتبه تعادل ثلثه .

قال الكولونيل :

ـ كلا ، أستميحك العذر . بدأ الاشتباك في الجناح الأيسر . كنت أنا هنالك .

فأجابه كالوجين :

ـ حسناً . لربما كان ذلك . فقد قضيت معظم وقتي في الجناح الأيمن . ذهبت إليه مرتين : في المرة الأولى لرؤية الجنرال ، وفي المرة الثانية لرؤية المعاقل . كانت الأمور حامية هنالك ، وربي !

قال جالتسين :

ـ لا بدَّ أن كالوجين يعرف ذلك . بالمناسبة ، لقد أخبرني ف ... اليوم أنك رجل شجاع ...

قال الكولونيل :

ـ لكن خساراتنا ضخمة ! في فوجي سقط أربعمائة رجل . انها معجزة أنني لا أزال حياً .

في تلك اللحظة ظهر ميخايلوف في نهاية الطرف الآخر من الجادة معصوب الرأس متجهاً صوب أولئك السادة .

قال كالوجين :

ـ ماذا ، أجرحت إذن ، يا كابتين ؟

فأجاب ميخايلوف :

ـ أجل ، جرحاً خفيفاً أصابني به حجر .

وقال الأمير جالتسين يسأل بالفرنسية ، وهو يختلس النظر الى قبعة الكابتين المساعد ، دون أن يوجِّه حديثه إلى شخص معين :

ـ هل خفضت الراية ؟

فأجاب ميخايلوف بالفرنسية أيضاً ، وفي نيته أن يظهر أنه يستطيع ، هو الآخر ، أن يفهم الفرنسية ويتكلمها :

ـ لا ، لم تخفض بعد .

فقال جالتسين يخاطبه باللغة الروسية في أدب ، كأنما يودّ أن يقول (كما اعتقد الكابتين ذلك) «يصعب عليك أن تتكلم الفرنسية حتماً ، فلماذا لا نتخاطب بالروسية وكفى ؟» ، فقال :

ـ أتقصد القول إن الهدنة لا تزال قائمة ؟

قال الأمير جالتسين ذلك ، وانصرف وصحبه من المرافقين .

شعر الكابتين المساعد ، مرة أخرى ، أنه في وحدة رهيبة مثلما شعر بالأمس . وبعدما انحنى تحية لعدد من الأشخاص كان يريد أن يتحاشى بعضهم ولا يجرؤ على مواجهة بعضهم الآخر ـ جلس قرب نصب كازارسكي التذكاري ، وأشعل سيجارة .

ظهر البارون بينشت في الجادة أيضاً . وأعلن أنه شهد مفاوضات الهدنة ، وأنه كلَّم ضباطاً فرنسيين ، وزعم أن أحدهم قال له : «لو تأخر طلوع النهار نصف ساعة ، لاستؤنفت الكمائن» ، وزعم أنه ردَّ عليه بقوله : «أيها السيد ، لن أقول لك لا ، كيلا أردَّ عليك بتكذيب» .

وعلى الرغم من أنه شارك في وفد المفاوضة ، إلا أنه لم يتح له أن يقول كلاماً يتسم بالذكاء ، مع رغبته الشديدة في أن يتحدث إلى فرنسيين («لأن محادثة هؤلاء الفرنسيين مسلية جداً») . وكان قد راح وجاء فترة طويلة على طول

خطوط العدو يستوضح من الفرنسيين الذين يلقاهم بالفرنسية : «من أي فوج أنتم ؟» ، فلا يتلقى منهم أي جواب عن استيضاحه . ولكنه حين أوغل داخل خطوط العَدو في لحظة من اللحظات لم يخطر لخفير فرنسي أن «هذا الجندي» يفهم اللغة الفرنسية ، فشتمه قائلاً : «جاء يراقب أشغالنا هذا القوّاد !» ، ففقد البارون بيشت بعد ذلك كل اهتمام بمناقشات الهدنة ، وأسرع قافلاً إلى بيته . وفي أثناء الطريق تخيَّل العبارات الفرنسية التي رواها لأصدقائه في الجادة .

في الجادة كان هنالك الكابتين زوبوف يتحدث بصوت عال ، والكابتين أوبزوغوف الذي لا يتملَّق انساناً كسباً لرضاه ، مرتدياً ثياباً رثة ، وكان أيضاً طالب ضابط يواتيه الحظُّ في قضاياه الغرامية على الدوام ، وكان أيضاً كثيرون ممن عرفناهم البارحة . لم يكن غائباً غير براسكوخين ونيفردوف وبضعة أشخاص آخرين أصبحوا لا يخطرون ببال إنسان ، ولا يتذكرهم إنسان ، مع أن أجسادهم التي لا زالت دافئة لم تغسل بعد ولم تكفَّن أو تدفن .

١٦

رايات بيض معلقة فوق تحصيناتنا وفوق الخنادق الفرنسية . وفي السهل المزهر بينهما ترقد أكداس من جثث مشوَّهة ، حافية الأقدام ، مرتدية بزات زرقاء أو رمادية . ورجال من حملة النقالات يرفعون الجثث ويكدسونها على عربات . والهواء مفعم برائحة لحم متعفن . وجموع من الناس تدفقت من سيباستوبول ومن معسكر الفرنسيين تتأمل المشهد . وهم يسرعون بعضهم إلى بعض بكثير من الاستطلاع الشره البشوش .

فلنصغينَّ إلى ما يقول هؤلاء الناس .

هنا ، ضمن حلقة من الروسيين والفرنسيين ، ثمة ضابط شاب يتحدث بلغة فرنسية رديئة لكن مفهومة بما فيه الكفاية ، ينعم النظر في جعبة للحرس . قال يسأل بالفرنسية ويتلقى الأجوبة بها :

ـ وما هذا الطائر المربوط هنا ؟

ـ هذه جعبة لفوج من الحرس ، يا سيدي ، وعليها النسر الامبراطوري .

ـ وأنت من الحرس ؟

ـ معذرة ، يا سيدي . أنا من الخط السادس في الجبهة .

ـ وهذا من أين اشتُري ؟

وأشار الشاب إلى فم السيجارة الأصفر الخشبي الذي كان الضابط الفرنسي يستعمله في التدخين .

ـ من باكلافا ، يا سيدي ! بسيط جداً ، من خشب النخيل .

ـ جميل !

قال الضابط الروسي الذي لا تقوده في حديثه مشاعره الحرة ، بل تقيّده الألفاظ التي لا يعرف سواها .

وقال الضابط الفرنسي :

ـ إذا رغبت الاحتفاظ به ذكرى لقائنا هذا أكون شاكراً .

ورمى الفرنسي المؤدب سيجارته وقدَّم هديته إلى الضابط الروسي وهو ينحني له انحناءة خفيفة . فأهدى إليه الضابط الروسي فم سيجارته ، واغتبط الجميع ، روساً وفرنسيين ، وابتسموا راضين .

وهذا رجل من سلاح المشاة فاتن الطلعة يرتدي قميصاً وردي اللـون ، ويلقي معطفه على كتفيه ، يرافقه جنديان آخران شبكا أيديهما وراء ظهريهما ، وارتسمت على وجهيهما علائم المسرة وحب الاطلاع . تقدم الرجل من فرنسي

وطلب إليه ناراً يشعل غليونه بها . فحرَّك الفرنسي رماد غليونه القصير ، وأورى النار بتحريك التبغ ، وسكب منها قليلاً في غليون الروسي .

قال الجندي ذو القميص الوردي بلكنة رديئة ، في حين ابتسم الآخرون :

ـ تبغ جيد .

فأجاب الفرنسي :

ـ نعم ، تبغ جيد ، تبغ تركي . وعندكم تبغكم أيضاً ـ الروسي ! أهو جيد ؟

فقال الروسي مجيباً ، بينا راح صديقاه يهتزان من الضحك :

ـ روسي ، جيد .

واسترسل الروسي في كلامه :

ـ فرنسي ما جيد ، صباح الخير ، يا سيد !

واذ أفرغ الروسي جميع ما يختزن من ألفاظ فرنسية ربت على معدة الفرنسي ضاحكاً . فضحك الفرنسيون أيضاً .

وانبرى زواوي[1] من الفرنسيين قائلاً :

ـ ليسوا على شيء من الأناقة ، هؤلاء ... الروس .

واقترب من جندنا شخص آخر أسمر اللون لكنته إيطالية ، وقال :

ـ ممَّ يضحكون إذن ؟

فقال الروسي ذو القميص الوردي ، وهو يطيل النظر في كميّ الزواوي المطرزين :

ـ قفطان جيد .

وإذا كابورال فرنسي يصرخ قائلاً :

---

(١) جندي من فرقة مشاة فرنسية كانت تتألف من جنود جزائريين يرتدون ملابس شرقية مزركشة .

ـ لا تتجاوزوا الخط ! لا تتحركوا من أماكنكم ... عليكم اللعنة !
وتفرّق الجنود مستائين .

بعد هذا المكان ، في وسط عدد من الضباط الفرنسيين ، كان ضابط روسي من سلاح الفرسان يتخطّر على صهوة جواده .
كانوا يتحدثون عن رجل اسمه الكونت سازونوف . قال ضابط فرنسي ليس له على كتفيه إلا نجمة واحدة :
ـ أنا أعرفه كثيراً ، يا سيدي . هو واحد من أولئك الكونتات الروس الحقيقيين . ما أعظم حبنا له !
فأجاب الضابط الروسي :
ـ هنالك رجل اسمه سازونوف أعرفه ، ولكنه ليس كونتاً إذا صدقت معلوماتي . هو رجل أسمر يماثلك في العمر تقريباً .
ـ تماماً ، يا سيدي . إنه هو بعينه. أوه ! لشدَّ ما أحبُّ أن أراه ، هذا الكونت العزيز . إذا لقيته ، فأرجوك أن تبلغه تحياتي .
وأضاف يقول محيياً :
ـ كابتين لاتور !
فاستأنف الروسي كلامه راغباً في الحديث ، دالاً على الجثث :
ـ أليست رهيبة هذه المهمة التي نقوم بها ؟ كانت ليلة حامية ، أليس كذلك ؟
ـ أوه ، يا سيدي ، شيء فظيع ! لكن ، ما أشجع جنودكم ، ما أشجعهم ! إنها لذة أن يقاتل المرء شجعاناً مثلهم .
قال الضابط الروسي :
ـ يجب أن نعترف أن جنودكم شجعان جسورون أيضاً .

وسلّم مقتنعاً أنه كان في غاية الذكاء .
وكفى هذا الآن .

فلنخولنّ أبصارنا إلى ذلك الصبي في العاشرة من عمره ، وقد وضع على رأسه قبعة عتيقة (أغلب الظنّ أنها قبعة أبيه) ، وانتعل حذاءين بغير جوربين ، وارتدى بنطالاً من قطن لا تشدُّه إلا حمالة واحدة . لقد اجتاز الأسوار منذ بداية الهدنة ، وطفق يطوف السهل ، ناظراً في فضول إلى الفرنسيين والجثث المتناثرة على الأرض . وكان يقطف زهوراً زرقاء ما أكثر ما تنبت في ذلك السهل . وهو الآن قافل إلى البيت يحمل حزمة كبيرة من الورد ، ساداً أنفه بيده تحاشياً للرائحة الكريهة التي تحملها إليه الريح . وهو يتوقف أمام كومة من الجثث جمِّعت في هذا المكان ، ويحُدِّق طويلاً إلى هاتيك الجثة المبتورة بتراً رهيباً والباقية من غير رأس ، وهي أقرب الجثث إليه . وبعد أن ظلّ جامداً يتأمل الجثة زمناً قصيراً ، خطا نحوها ولمس بقدمه ذراع الميت المتصلبة المتدلية . تأرجحت الذراع قليلاً . فلمسها من جديد بجرأة أكثر ، فتأرجحت قليلاً ، ثم رجعت إلى وضعها الأصلي . فصرخ الطفل فجأة ، وخبأ وجهه بين الورود ، وركض صوب التحصينات بقدر ما تسمح له قدماه أن يسرع .

بلى ، هنالك رايات بيضاء ترفرف على التحصينات وعلى الخنادق . لكن السهل المزهر مغطىً بجثث الموتى . والشمس المجيدة تهبط من السماء الصافية نحو البحر الأزرق المتموِّج سطحه تموجاً رخواً ، والمتلألىء تحت الأشعة الذهبية .

وألوف البشر يتجمعون ، ينظر بعضهم الى بعض ويتحدثون ، ويبتسم بعضهم لبعض . وهؤلاء البشر ـ هؤلاء المسيحيون المعتنقون جميعاً قانوناً إلهياً واحداً ، قانون المحبة والتضحية ـ يجثون على ركبهم راكعين يتأكلّهم الندم وهم

يرون ما صنعت أيديهم . يجثون على ركبهم راكعين له ، هو الذي وهب لهم الحياة وأودع في نفس كل منهم رهبة الموت ومحبة كل ما هو خير ونبيل في وقت واحد . هل يرتمي بعضهم في أحضان بعض وقد اغرورقت عيونهم بدموع الفرح والسعادة ؟

الخرق البيضاء تختفي ، وأزير آلات الموت والعذاب يدور من جديد . ومن جديد يُسفح الدم البريء ، دم الرجال الطيبين ، في حين تتصاعد في كل الجهات أصداء أنات ولعنات .

قلتُ ما كان يجب عليَّ أن أقول هذه المرة . لكنَّ قلقاً ثقيلاً يغمر نفسي . لربما كان يجب ألا أقول هذا الكلام . لعلَّ الخواطر التي تحدثت عنها الآن تنتمي الى تلك الفئة من الحقائق الشريرة المدفونة في أعمق أعماق نفس كل إنسان ، والتي يدركها كل واحد منا على غير شعور ، غير أنه لا يصحُّ استدعاؤها وإبرازها للنور كيلا تصير خطيرة ، مثلها مثل ما يترسَّب في قاع كأس الخمرة ، هذا الذي لا ينبغي تحريكه كيلا تفسد الخمرة ...

أين في قصتي الشرُّ الذي يحسن تجنُّبه ، وأين الخيرُ الذي يجب اتخاذه قدوة ؟ من يجب أن نعدَّ شقياً ومن يجب أن نجعله بطلاً لهذه القصة نعجب به ؟ جميعهم أخيار وأشرار في وقت واحد .

لا كالوجين ، بشجاعته البراقة ـ شجاعة السيد المهذب ـ وحبه للظهور الذي كان حافزة الى جميع أعماله ؛ ولا براسكوخين الرجل التافه الذي يضرُّ ولا ينفع (رغم أنه سقط في ساحة الشرف دفاعاً عن الايمان والعرش والوطن) ؛ ولا ميخايلوف الخجول ؛ ولا بيشت الطفل الذي يملك اعتقادات ثابتة ولا يملك قواعد سلوك ، لا أحد من جميع هؤلاء يمكن أن يعدَّ في هذه الصفحات بطلاً أو مجرماً .

البطل الحقيقي في قصتي — البطل الذي أحبّه بكل قوى نفسي ، البطل الذي حاولت أن أبرزه هنا بكل جماله ، كان ولا يزال وسيظلُّ — الحقيقة .

٢٦ حزيران ١٨٥٥





سيباستوبول في آب ١٨٥٥

١

حوالي نهاية شهر آب ، في ملء الغبار الكثيف الحار المتصاعد من الطريق الصخرية المزروعة بالتلال بين دوفانكوي(١) وباختشيساراي ، كانت عربة ضابط تتقدم في بطء صوب سيباستوبول (وهي عربة من ذلك النوع

(١) آخر محطة في الشمال من سيباستوبول (المؤلف) .

الخاص الذي لا تلقى له مثيلاً في أي مكان آخر ـ عربة فيها شيء من شكل البريتشكا اليهودية والعربة الروسية والسلة) .

في مقدمة العربة كان خادم عسكري يرتدي معطفاً من قماش الكتان ، ويعتمر قبعة كانت تخصُّ أحد الضباط شوَّهتها كثرة الاستعمال ، مقعياً على كعْبيه ، ممسكاً بالأعنَّة . وفي الوراء ، على حزم وأكياس مغطاة بمعطف أحد الجنود ، جلس ضابط من سلاح المشاة يلبس معطفاً صيفياً . كان هذا الضابط ، بمقدار ما يمكن أن نحكم على طول قامته من حيث هو جالس ، قصيراً عريض الجسم ، إلا أن عرضه من الكتف إلى الكتف دون عرضه من الصدر إلى الظهر . له رقبة سميكة وقذال سميك بارزة عضلاتها . ولم يكن له خصر ، كما لم يكن له كرش أيضاً . وبالعكس ، إذا نظرت الى وجهه حسبته نحيلاً ، خاصة وأنه استحال أصفر اللون بشع الصورة . كان يمكن أن يكون جميل الصورة لولا ترهُّل في الوجه وتجاعيد عريضة رخوة ليست بسببٍ من الشيخوخة ، ولكنها تضفي على ملامحه شيئا من الخشونة وتجعلها تبدو أكثر عرضاً ، كما تخلع على وجهه نظرة عامة من حرمان من نضارة . كانت عيناه الصغيرتان بلون البندق فيهما شيء من القحة والحيوية . وكان له شاربان كثيفان لكن ليس عريضين ، نهاياتها معضوضتين . وكانت ذقنه ، وخاصة فكّاه ، مغطاة بلحية قوية كثيفة سوداء لها من العمر يومان فقط .

هذا الضابط جرح في رأسه بشظية قنبلة في اليوم العاشر من شهر أيار ، وكان رأسه لا يزال مضمداً ، ولكنه أحسّ أنه شفي تماما منذ أسبوع فبارح المستشفى في سمفيروبول ، وهو الآن في طريقة للانضمام إلى فوجه المرابط في مكان ما في المنطقة التي يتمُّ فيها تبادل إطلاق النار ـ أهو في سيباستوبول نفسها ، في الجهة الشمالية ، أم في إنكرمان ، هذا ما لم يستطع أحد أن ينبئه به على وجه التحديد . إن صوت نيران المدفعية ، لا سيما في الأماكن التي لا تعترضها

الجبال ، أو حين تحمل الريح أصوات قصف المدافع ، تُسمع منذ الآن واضحة وضوحاً شديداً . تارة يهزُّ الهواء انفجار ويرعش سامعه رغم إرادته ، وتارة تبدو هديراً أقلَّ شدة يتَّابع سريعاً مثلٍ ضربات طبل تتخللها أحيانا ضجة تصمُّ الآذان ، وتارة ينصهرُ الضجيج كلُّه في رعد واحد متصل مثل عاصفة في حمّى قواها حينما تقصف البروق في كل مكان وتنهال الأمطار كالسيول . كان كل واحد يقول إن القصف بالمدافع ازداد رهبة (وكان الناس يسمعون ذلك بآذانهم) . وكان الضابط يستحثُّ خادمه على الاسراع . كان واضحاً أنه يتعجَّل الوصول إلى بغيته . والتقيا موكباً طويلاً من عربات الفلاحين الروس ممَّن حملوا مؤناً إلى سيباستوبول ، وهم الآن في طريق عودتهم منها وقد تكدَّست عرباتهم بجنود مرضى أو جرحى يرتدون معاطف رمادية ، وبحارة يلبسون قفاطين سوداء ، ومتطوعين يضعون على رؤوسهم طرابيش حمراء ، وجنود ملتحين من الاحتياط . وقد اضطرت عربة الضابط أن تتوقف في الغبار الذي ثار في الطريق من جراء عربات الفلاحين ، وتجمُّع سحابة ثقيلة تنفذ في كل شيء ـ في العيون والآذان ـ وتلتصق بجلد الوجه المتعرِّق ، أقول أخذ ينظر إلى وجوه المرضى والجرحى الذين يمرون أمامه دون أن يعيرهم بالاً .

قال الجندي الخادم ، وهو يلتفت إلى سيده ويدل على عربة ملأى بالجرحى تمرُّ أمامها :

ـ هذا جندي من سريتنا ـ هو الذي كان ضعيفاً على الدوام .

إن فلاحاً روسياً ملتحياً يضع قبعة من لباد على رأسه يجلس جلسة مواربة في مقدمة العربة ، جاعلاً قبضة السوط تحت مرفقه ، آخذاً بربط سير العجلة . ووراءه في العربة خمسة جنود جالسون أو متمددون في أوضاع مختلفة تهزهم انتفاضات العربة . واحد منهم ضمدت ذراعه ، ومعطفه ملقى كيفما اتفق على قميصه شديد الاتساخ . ورغم صفرة وجهه وهزال جسمه فقد كان يجلس في

وسط العربة ، ويرفع يده كمن يريد أن يحيي الضابط ، لكنه سرعان ما عدل عن ذلك حينما تذكر أنه جريح ، متظاهراً أنه لم يشأ إلا أن يحك رأسه . وإلى جانبه ، في آخر العربة ، رقد رجل لا ترى منه غير يديه المتشبثتين بجانبي العربة ، وغير ركبتيه المرفوعتين اللتين تتأرجحان هنا وهنالك مثل خرقة يهزها الريح . وكان شخص ثالث منتفخ الوجه معصوب الرأس بضمادة فوق قبعة جندي يجلس على حافة العربة وقد دلى ساقيه بحيث يلامس عجلاتها . وكان واضعاً مرفقيه على ركبتيه وكأنه نائم . خاطبه الضابط قائلا :

ـ دولجنيكوف !

فتح الجندي عينيه ، ونزع قبعته عن رأسه ، وقال بصوت يبلغ من الجهارة والثخانة والرنين أن من يسمعه يحسبه صادراً عن خمسين رجلاً في وقت واحد :

ـ هنا !

ـ متى جُرحت ، يا صاحبي ؟

فانتعشت عينا الجندي الكابيتان . لقد عرف ضابطه ، فقال بذلك الصوت الجهير الراعد ذاته :

ـ يوما طيباً ، يا صاحب السعادة !

ـ أين يعسكر فوجك الآن ؟

ـ في سيباستوبول . كنا سننتقل يوم الأربعاء ، يا صاحب السعادة !

ـ إلى أين ؟

ـ لست أدري ، يا صاحب السعادة . إلى الناحية الشمالية في أغلب الظن ...

واستأنف يقول بصوت ممطوط ، وهو يعيد قبعته إلى رأسه :

ـ إنهم يطلقون النار الآن ، يا صاحب السعادة . في كل مكان تسقط قذائف ـ حتى أنهم يبلغون إلينا في الخليج . «هو» يصلينا ناراً حامية رهيبة.

واستبهمت بعد ذلك أقواله التي استرسل فيها فما عادت تُسمع . وكان واضحاً من تعبير وجهه ومن وضعه أنه يقول ، في حقد رجل متألم ، أموراً لا تبعث على الطمأنينة ولا تشدُّ العزيمة .

الضابط ، وهو الليوتنان كوزلتسوف ، لم يكن صنفاً عادياً من الرجال ، لم يكن واحداً من أولئك الناس الذين يعيشون ويتصرفون على هذا الشكل أو ذاك لأن الآخرين يعيشون ذلك أو يفعلوه : إنه يفعل ما يحلو له هو . والآخرون هم الذين يحذون حذوه بعد ذلك ويشعرون أنه كان على صواب . وكانت الطبيعة قد وهبت له أمورا كثيرة : فهو يحسن الغناء ، ويعزف على القيثارة ، ويعرف كيف يتكلّم فيكون لكلامه تأثير وسلطان ، ويكتب بسهولة (ولا سيا إذا أنيط به أن يكتب أوراقاً رسمية ـ وبذلك فرض نفسه على مهمات مرافق قائد في الفوج) . غير أن أبرز سمة في طبعه هي أنه كان معتزاً بنفسه كثيراً . وكان هذا الاعتزاز بالنفس ، رغم اعتماده على مواهب ليست فذة ، يسيطر على نفسه بكليّتها ، ويحتكر طاقاته كلها ، ويفرض نفسه على حياته كقوة موجِّهة غالبة . كان يملك ذلك الاعتزاز بالنفس الذي ينمو لدى الرجال خاصة ، ولدى رجال الجيش بصورة أخصّ ، وينتهي إلى الاندماج بكيان صاحبه بقوة بحيث أن صاحبه لا يتصوّر إلا واحداً من أمرين : أن يكون الأول في كل شيء أو أن يتوارى عن الوجود . كان اعتزازه بنفسه يسيطر على أخفى حركات قلبه ، فيحبُّ في قرارة نفسه أن يتأكد من تفوُّقه على جميع من يقارن نفسه بهم .

ـ حقاً ! لا ينقصني إلا أن أتأثر بثرثرة هذا الجندي العادي !

غمغم الليوتنان ، وهو يحاول أن يغالب نوعاً من الحذر الثقيل والاضطراب الفكري الذي تركه في قلبه وعقله مشهد موكب الجرحى وسماع أقوال الجندي ، الأمر الذي كانت دلالته تزداد وضوحاً وتهديداً على غير إرادة منه كلما اقترب هدير قصف المدافع أكثر فأكثر .

أضاف بنبرة خشنة ، وهو يلملم أطراف معطفه :

ـ يضحكني ذلك الجندي ! هيا ، يا نيقولاييف ، تابع طريقك ! ... أتراك نائماً ؟

فهزَّ نيقولاييف الأعنَّة ، وقرقع بلسانه ، فانطلقت العربة تجري مسرعة .

قال الضابط :

ـ لن نقف إلا لإطعام الحصان ، ثم نعاود السير فوراً هذه الليلة .

٢

حين راحت عربته تدخل شارعاً تحيط به خرائب وأنقاض بيوت تتارية حجرية في دوفانكوي ، توقف الليوتنان كوزلتسوف بسببٍ من موكب جديد من عربات تحمل قذائف وقنابل إلى سيباستوبول .

كان اثنان من جنود المشاة جالسين على أحجار جدار منهار بقرب الطريق بين التراب والغبار يأكلان بطيخة مع شيء من الخبز .

سأل أحدهما وفمه ملآن خبزاً ، فيما كان جندي آخر قد توقف بجانبهما وعلى كتفه بقجة :

ـ أأنت منطلق إلى مكان بعيد ، أيها الرفيق ؟

فأجاب الجندي ، وهو يعدّل وضع بقجته ويحوِّل بصره عن البطيخة :

ـ منطلق للالتحاق بسريتي . لقد قضينا أربعة أسابيع في الريف نبحث عن أعلاف لسريتنا ، واستدعونا الآن جميعاً . ولكننا لانعرف مكان فوجنا . قيل لنا إن جماعتنا دخلوا كورابلنايا في الأسبوع الماضي ، فلربما كنتم تعرفون شيئاً ، أيها السادة ؟

تمتم الجندي الآخر ، وهو رجل عجوز من جنود المواكبة ، فيما راح يغمد موساه في البطيخة البيضاء التي لم يكتمل نضجها :

ـ فوجك الآن في المدينة ، يا صاحبي . لقد رجعنا منذ نصف يوم فقط . هناك جحيم ، يا أخ ، فخير لك ألاً تذهب . تمدَّد في مكان من أكداس العلف ، وانتظر يوماً أو يومين ثم يهدأ كل شيء .

ـ ماذا تقصد ، يا رفيقي ؟

ـ ماذا ؟ ألا تسمع ؟ إنهم يطلقون النار في كل مكان هذا اليوم ، فلم يبق مكان آمناً . ما أكثر القتلى الذين سقطوا منا ! لا تستطيع أن تعدّهم !

قال ذلك ، وهو يحرِّك يده بإشارة ، ويعدِّل قبعته على رأسه .

هزَّ الجندي الذي توقف رأسه مفكراً ، وطقطق بلسانه ، ثم أخرج من جزمته غليوناً وحرَّك تبغه الذي كان يشتعل نصف اشتعال ، حرَّكه دون أن يملأ الغليون ، وأشعل صوفانة من غليون رفيق يدخِّن ، ونزع قبعته ، وقال يخاطب الجنديين :

ـ الإنسان لايستطيع أن يبتعد عن المولى ، يا رفاق ! وداعاً !

وأنهض بقجته على كتفه ، ومضى .

ناداه الرجل الذي كان يحفر البطيخة قائلاً :

ـ خير لك أن تنتظر قليلاً !

فدمدم الجندي العابر ، وهو يشقُّ لنفسه طريقاً بين عجلات العربات المتزاحمة :

ـ لا فرق ! يبدو أنه يجب عليَّ أن أشتري لنفسي بطيخة أيضاً . ما أسخف ما يقوله هؤلاء الناس !

٣

حين وصل كوزلتسوف إلى محطة تبديل الخيل كانت مزدحمة بجمهور غفير . وأول شخص أبصره على درجات الباب كان نحيلاً ، هو رئيس المحطة ، يشتجر مع ضابطين يلاحقانه .

قال رئيس المحطة ، راغباً رغبة واضحة في أن يخز بكلامه ذينك الرجلين :

ـ لن تنتظرا ثلاثة أيام فحسب ، بل ربما عشرة ... حتى الجنرالات يجب أن ينتظروا ، يا سيدي العزيز ! ما أظن أنكما تتوقعان أن أُشَدَّ إلى عربتكما بنفسي بدلاً من الحصان ، أليس كذلك ؟

فصرخ كبير الضابطين ، وفي يده فنجان شاي :

ـ إذن إياك أن تعطي أحداً خيولاً طالما أنك لا تملك واحداً منها . كيف أمددت بالخيل هذا الخادم الذي ينقل أمتعته ؟

وتدخل الآخر متردداً ، وهو ضابط في ريعان الشباب :

ـ فكِّر في الأمر بنفسك ، يا سيدي رئيس المحطة . إننا لا نسافر تحقيقاً للذة خاصة . أنت ترى ، فهم قد يحتاجون إلينا هناك طالما أنهم استدعونا . سأشكو الأمر إلى الجنرال . ذلك أن ... حقاً ... كما لو كنت ... لا تحترم رتبة ضابط !

قاطعه الضابط الأكبر قائلاً في نبرة انزعاج :

ـ أنت دائماً تفسد كل شيء ! أنت لا تزيد عن أن تعرقل جهودي ... يجب على المرء أن يعرف كيف يخاطب هؤلاء الناس ! بأساليبك المهذبة وعباراتك اللطيفة أفقدت هذا الرجل حسَّ الاحترام . إنني أطلب خيلاً في هذه اللحظة بالذات !

ـ وددتُ لو أستطيع ذلك ، يا سيدي العزيز ، لكن ، من أين آتي بها ؟

صمت رئيس المحطة كمن هو مستغرق في التفكير وانتعش وجهه على حين غرة ، وأخذ يشرح ملوّحاً بذراعيه :

ـ أفهمكما الفهم كلّه ، يا سيديَّ العزيزين ! وأدرك كل شيء إدراكاً كاملاً . لكن ، ما حيلتي ؟ أمهلاني قليلاً (هنا على وجه الضابطين شعاع من أمل) ... أمهلاني حتى نهاية الشهر ولن ترياني بعدها هنا . أُفضّل أن أعيش في هضبة مالاخوف عن أن أبقى هنا ، أحلف لكما ! فليدبروا الأمر بأنفسهم كما يشاؤون . هل تتصوَّر أنه لم يبق عندي عربة واحدة ، وأن الخيل لم تصب شيئاً من العلف منذ ثلاثة أيام ؟

واختفى رئيس المحطة وراء البوابة بعد هذا القول .

دخل كوزلتسوف الغرفة مع الضابطين .

قال كبيرالضابطين للصغير بهدوء تام كأنما نسي أنه بلغ منذ لحظة أوج الغضب :

ـ طيب . نحن في الطريق منذ ثلاثة شهور ، وفي وسعنا أن ننتظر بعض الوقت أيضاً . هذا ليس كارثة . ولسوف نصل في وقت قريب .

كانت الغرفة المتسخة ، الملأى دخاناً ، تزدحم بعدد من الضباط واكداس من الأمتعة حتى أن كوزلتسوف وجد صعوبة في العثور على مكان على حافة النافذة . شرع يلف سيجارة ، وهو يدرس وجوه الآخرين ويصغي إلى أحاديثهم . كان أكبر جمع من الناس محتشداً عن يمين الباب حول منضدة عرجاء وسخة وضع فوقها سماوران من نحاس مخضرٍّ في بعض مواضعها ، كما وضعت فوقها أكياس صغيرة من ورق فيها سكر . وكان ضابط شاب لم ينبت شارباه بعد يرتدي معطفاً قوزاقياً جديداً قد يكون فُصِّلَ من فستان إحدى النساء يملأ إبريق شاي . وكان أربعة ضباط آخرون ، شباب هم أيضاً ، يشغلون أركاناً مختلفة من الغرفة . واحد منهم استلقى نائماً على كنبة

وقد لفَّ معطفاً من الفرو تحت رأسه ؛ وثان وقف قريباً من المنضدة يقدُّ شريحة من لحم خروف مقلي لرفيق مبتور الذراع يجلس إلى جانبه ؛ وضابطان يرتدي أحدهما معطف مرافق قائد ، ويرتدي الآخر معطف ضابط من سلاح المشاة مصنوع من صوف ناعم ، وقد تدثر فوقه بخرج مشدود إلى الكتف بزنار ، يجلسان بجانب المدفأة . كان واضحاً من طريقتهما في النظر إلى رفاقهما وطريقة صاحب الخرج في تدخين سيجاره أنهما لا ينتميان إلى قوات الجبهة ، وأنهما لا يشكوان هماً .. لم يكن معنى هذا أن سلوكهما يشتمل على معنى الاحتقار لزملائهما ، غير أن المرء يدرك فيهما ثقة بالنفس ، ونوعاً من طمأنينة هادئة يرجع إلى الثراء وإلى مالهما من صلات شخصية بجنرالات . الخلاصة أنهما كانا يشعران بالتفوُّق شعوراً يبلغ من القوة أنهما يكادان يرغبان في إخفائه . وكان في الغرفة أيضاً طبيب شاب كثيف الشفتين ، وضابط من ضباط المدفعية ألماني المظهر - كانا جالسين على الكنبة ، عند قدمي الشاب النائم تقريباً ، آخذين في عدِّ مبلغ من المال . وكان هنالك أيضاً عدد من الجنود الخدم ، بعضهم يستسلمون للنوم وبعضهم الآخر منهمكين في العمل بقرب صناديق وأكياس مودعة قرب الباب . ولم يعرف كوزلتسوف بين جميع هذه الوجوه أحداً سبق أن التقاه ، ولكنه أصغى إلى ما يقال حواليه في اهتمام . لقد أحبَّ الضباط الشباب حديثي التخرج من المدرسة الحربية كما أدرك ذلك من أول نظرة ألقاها عليهم ؛ فقد ذكّروه بأخيه الذي تخرَّج من برهة ، وعليه أن يلتحق بعد بضعة أيام بإحدى بطاريات سيباستوبول . وقد نفر من الضابط ذي البقجة الذي أحسَّ أنه سبق له أن رأى وجهه في مكان عام - إن كل شيء في هذا الضابط يثير في نفسه الاشمئزاز . لاح له وكأنه يفيض غطرسة وميداً . ومن أجل أن «يردَّه إلى الصواب متى جرؤ أن ينطق بحرف واحد !» ترك كوزلتسوف النافذة ومضى يقتعد حافة المدفأة العريضة . لم يكن كوزلتسوف ، باعتباره ضابطاً أصيلاً

كفؤاً من ضباط الجبهة ، يكره «الضباط الكبار» فحسب ، بل كان يستاء دائماً من مظهرهم وأوضاعهم ، وسرعان ما صنَّف هذين الضابطين في هذه الفئة .

٤

قال أحد الضباط الشباب :

ـ تُرى ، أليس من المزعج حقاً أننا كدنا نبلغ هدفنا ، ومع ذلك لا نملك أن نصل إليه ! قد تجري اليوم معركة لا نشارك فيها .

من نبرة صوته الحادة ، والبقع الحمر التي نقَّطت وجهه في بعض المواضع خلال حديثه ، يدرك المرء هذا الخجل الرائع في الفتى الذي لا خبرة له ، والذي لا يبرح يخشى ألا يحسن الكلام كما ينبغي .

تفرَّس فيه الضابط الذي بُترت ذراعه مبتسماً ، وقال :

ـ سيتَّسع وقتك للذهاب إلى هناك . صدقني .

فنظر الضابط الشاب في كثير من الاحترام إلى الرجل الأكتع الذي التمع وجهه الهزيل فجأة مبتسماً ، ثم انهمك في إعداد الشاي دون أن يضيف كلمة واحدة . حقاً ، لقد كان وجه الضابط المبتور الذراع ، ووضعه كله ، خاصة تدلي الكمّ الخالي في معطفه ، كان هذا كلّه يعبِّر عن هدوء كبير ونوع من قلة الاكتراث ، وكأنه لا يردُّ على ما يقال ويُفعل من حوله إلا في سرِّه قائلاً : «بلى ، هذا كلّه حسن ، ولكنني أعرفه كله ، وفي مقدوري أن أفعله لو أردت» .

قال الضابط الشاب من جديد ، وقد التفت إلى رفيقه المرتدي معطفاً قوزاقياً :

ـ أنقضي الليل هنا أم نواصل سفرنا بواسطة حصاننا ؟

وقرَّر رفيقه البقاء .

استرسل ذلك الذي يهيىء الشاي ، فقال يخاطب الضابط مبتور الذراع ، ويناوله سكيناً سقطت منه :

ـ تصوَّر فقط ، يا كابتين . أخبروني أن الخيول باهظة الثمن جداً في سيباستوبول . فاشترينا معاً حصاناً من سمفيروبول .

ـ لا شك أنهم سرقوكم حقاً !

ـ الحق أنني لا أعرف ، يا كابتين . دفعنا تسعين روبلاً ثمناً له وللعربة . فهل هو سعر باهظ ؟

أضاف هذا السؤال مخاطباً جميع الحاضرين ، ناظراً إلى كوزلتسوف الذي يحدِّق إليه .

قال كوزلتسوف :

ـ لا ، ليس الثمن باهظاً إذا كان الحصان صغير السن .

ـ أتظنُّ ذلك ؟... أكدوا لنا أن السعر باهظ جداً . الحصان يعرج قليلاً ، لكن هذا العرج سيزول . قالوا لنا إن الحصان قوي جداً .

سأل كوزلتسوف ، وكان يتمنى أن يلمَّ بأنباء أخيه :

ـ في أية مدرسة كنت ؟

قال الضابط الشاب الثرثار :

ـ نحن الآن في فوج النبلاء . نحن ستة ، في طريقنا إلى سيباستوبول ـ بناء على رغبتنا الخاصة . ولكننا لا نعرف أين بطاريتنا الآن . بعضهم يقول إنها في سيباستوبول ، وهؤلاء الرفاق هناك يزعمون أنها في أوديسا .

سأل كوزلتسوف :

ـ ألم تتمكنوا من معرفة حقيقة الأمر في سمفيروبول ؟

ـ هم لا يعرفون شيئاً ... تصوَّر فقط أن أحد رفاقنا ذهب إلى المكتب فأجابوه بفظاظة شديدة . تصوَّر ما أبعث ذلك على الاشمئزاز ! ما رأيك في سيجارة

جاهزة ؟

أضاف هذا السؤال الأخير متوجهاً إلى الضابط مبتور الساق الذي كان يهمُّ بإخراج علبة سجائـره . كان يشعـر بنـوع من الحماسة المتواضعـة . وتابـع يستفسره :

ـ أنت عائد من سيباستوبول أيضاً ؟ ما أروع هذا ! لكم كنا جميعاً نفكّر فيكم على الدوام في بطرسبورج ، فيكم جميعاً وفي جميع الأبطال !

قال هذا مخاطباً كوزلتسوف في نبرة احترام فيها شيء من طيبة .

سأله الليوتنان :

ـ حسناً ، وهل ينبغي أن تعودوا ؟

ـ ذلك ما نخشاه . لا شك أنك تدرك أننا بعد أن اشترينا هذا الحصان ، وابتعنا جميع ما نحتاج إليه : ركوة قهوة على الكحول وحاجات أخرى صغيرة لا غنى عنها بحال من الأحوال ـ أنفقنا كل ما نملك فلم يتبقَّ معنا شيء من مال .

قال ذلك بصوت خافت ، وهو يلقي على رفيقه نظرة مختلسة . وأردف يقول :

ـ لو كان علينا أن نرجع الآن ، لما عرفنا حقاً كيف نتدبر أمرنا .

سأله كوزلتسوف :

ـ ألم تقبضوا نفقات السفر إذن ؟

فأجاب الضابط الشاب في صوت مهموس :

ـ لا ! أكدوا لنا أننا سنقبضها هنا .

ـ هل معكم شهادة ؟

ـ كنت أعرف أن الشهادة لا غنى عنها . لكنني عندما كنت في موسكو فإن عضواً في مجلس الشيوخ ، هو عمي وكنت في بيته ، قال لي إنهم سيسلمونني الشهادة هنا ، وإلا ما تردَّد في تسليمي إياها بنفسه . سيسلموني الشهادة في

سمفيروبول ، أليس كذلك ؟

ـ حتماً !

ـ أنا أيضاً أعتقد أنهم سيفعلون ذلك .

قال الشاب بلهجة تبرهن على أنه بعدما ألقى هذا السؤال مراراً وتكراراً في عشرين محطة مختلفة تلقى فيها عشرين جواباً مختلفاً لم يعد يُصدِّق كثيراً ما يقال له عن هذا الموضوع .

٥

(هذا الفصل منعته الرقابة سابقاً)

فجأة تدخل الضابط الذي كان تشاجر ورئيس المحطة عند درج الباب منذ قليل ، بعد أن دنا من المتحادثين وراح يوجِّه بعض كلامه إلى الضابطين الكبيرين ، مثلما يوجهه إلى أشخاص أخطر شأناً :

ـ كيف يتاح لهم أن يعطوك إياها ؟ أنا أيضاً طلبت أن أدخل في الجيش العامل كهؤلاء السادة ، بل لقد تخلَّيت عن وظيفة ممتازة وأصررت على الذهاب إلى سيباستوبول ذاتها . ولم أقبض قرشاً واحداً عدا ما قبضت من نفقات السفر من بطرسبورج ، وهو مائة وستة وثلاثون روبلاً . وقد أنفقت حتى الآن مائة وخمسين روبلاً من جيبي الخاص . فكروا في الأمر . ثمانمائة فرسخ يجب أن أقطعها ، وهذا هو الشهر الثالث الذي أمضيته في السفر . لقد سافرت مع هؤلاء السادة طوال شهرين . من حسن الحظ أنني كنت أملك قليلاً من المال ، وإلا فما عساه كان يحدث ؟

سأله أحدهم :

ـ الشهر الثالث ؟ أهذا ممكن ؟

فاسترسل المتحدث في كلامه قائلاً :

ـ أجل . وماذا في مقدوري أن أعمل ؟ لولا رغبتي في أن أقاتل لما تنازلت عن وظيفة ممتازة وطلبت السفر . واضح إذن أنني لم أطل السفر عن عمد ، أو أن الخوف هو الذي يصدني عن الإسراع في الوصول ... وإنما استحال عليَّ الوصول بمزيد من السرعة . في بيريكوب مثلاً اضطررت إلى الانتظار أسبوعين ، ولم يتنازل رئيس المحطة أن يخاطبني ... كان يقول لي : «سافر حينما تشاء . هذه حزمة من طلبات حملة البريد فقط» . إنه قدري ولا ريب ... كنت أحبُّ طبعاً أن أسافر ـ لكنه قدري ! إنني لم أطل مدة الطريق بسببٍ من ذلك القصف الرهيب بالمدافع . ولكن الأمر في النهاية واحد على كل حال ، أسرعت أم لم أُسرع ـ ومع ذلك فقد كنت أحب أن ...

إن هذا الضابط يكلّف نفسه من العناء في تعليل سفره وتبرئة نفسه أن يخال المرء ، رغم إرادته ، أن الرجل خائف . وقد ازداد هذا الانطباع وضوحاً حين أخذ يسأل عن المكان الذي يرابط فيه فوجه ، واستوضح إن كان ذلك المكان خطراً . بل لقد اصفرَّت ملامحه ، وبدا صوته وكأنه يختنق في حلقه عندما أجابه الضابط المبتور الذراع ، وهو من ذلك الفوج ذاته ، بأنه خلال اليومين الأخيرين وحدهما خسر الفوج سبعة عشر ضابطاً .

الحقيقة أن هذا الضابط غدا الآن جباناً حقاً ، مع أنه لم يكن كذلك قبل ستة شهور . حدث فيه تبدُّل كبير طرأ وسيطرأ على كثيرين غيره . كان يعيش في عاصمة أحد الأقاليم التي فيها مدارس ضباط ، وكان يشغل وظيفة هادئة مريحة . لكنه ما أن قرأ في الصحف وفي الرسائل الخاصة قصص الأعمال العظيمة التي يقوم بها أبطال سيباستوبول ، رفاقه القدامى ، حتى اشتعل في نفسه حبُّ الظهور ، بل التهبت الوطنية في نفسه .

في سبيل هذه العاطفة ضحّى بميزات كثيرة : وظيفة مريحة ، ومسكن لطيف ، وأثاث فاخر حصل عليه بجهود خمس سنوات ، وأصدقاء وآمال في الزواج من فتاة ثرية . تنازل عن هذه السعادة كلها وطلب الانخراط في الخدمة منذ شهر شباط ، حالماً بالحصول على مجد تليد ورتبة جنرال . وبعيد مرور شهرين على تقديمه الطلب وصله عن طريق التسلسل بواسطة الدائرة التي يعمل فيها سؤال عما إذا كان يلتمس مساعدة من الحكومة ، فأجاب بالنفي . وانتظر نقله نافد الصبر ، رغم أن حماسته كانت قد فترت قليلاً في أثناء هذين الشهرين . وانقضى شهران آخران تلقى في نهايتهما سؤالاً آخر : هل انتمى في يوم من الأيام الى خلية ماسونية ، فأجاب بالنفي مرة أخرى ، وأخيراً ، بعد انتظار أربعة شهور ، تلقى في الشهر الخامس الأمر بنقله . لكنه خلال هذه الفترة التي دامت أربعة أشهر انتهى من أحاديثه مع أصدقائه ، وخاصة من ذلك الاستياء الغامض الذي يحدثه في نفس المرء كل تغيرٌ مفاجىء يطرأ على وضعه ، انتهى إلى الاقتناع بأنه ارتكب حماقة ضخمة بانخراطه في الجيش العامل . وحين وصل في سفره إلى المحطة الخامسة ، ووجد نفسه وحيداً يغطي الغبار وجهه ، وأحسَّ قرصات محرقة في معدته ـ وحين سمع من أحد حملة بريد سيباستوبول وصفاً لأهوال الحرب ، واضطر أن ينتظر اثني عشرة ساعة للحصول على حصان ـ ندم كثيراً على ذلك القرار الذي اتخذه عن خفة وطيش . ومنذ تلك اللحظة صار يسير في طريقه مثل ضحية ، ممتلىء النفس توجساً غامضاً ، مرتاع القلب من هول ما ينتظره . وخلال شهرين قضاهما في محن متنقلاً من محطة إلى أخرى ، مضطراً إلى الانتظار في كل محطة تقريباً ، ملتقياً بضباط عائدين من سيباستوبول يسردون عليه قصصاً ، رهيبة مروعًة ، كان ذلك الشعور يزداد في نفسه قوة بغير انقطاع ، فإذا بالضابط المسكين ـ وكان يحسب نفسه بطلاً ويتأهب للقيام بأجرأ الأعمال ـ عندما وصل إلى دوفانكوي يغدو

رجلاً جباناً يرثى له . لقد أُلحق منذ شهر بجماعة الضباط الشباب المتخرجين من المدرسة ، فكان يحاول أن يطيل مدة السفر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، متصوراً أن هذه الأيام هي الأيام الأخيرة في حياته . وكان في كل محطة يعنى بسريره ، وينال حظه من الشراب ، وينظم لعبة بالورق ، ويقلِّب دفتر الشكاوى تمضية للوقت ، ويغتبط ويسرُّ حين لا يعطونه خيلاً .

كان يمكن أن يتصرَّف مثل بطل حقاً لو نقل من بيته إلى التحصينات ، وسيكون عليه أن يعاني من آلام نفسية كبيرة قبل أن يصبح رجلاً هادئاً صبوراً ، في عمله وفي الخطر المحدق به على السواء ، مثله مثل سائر الضباط الروس الذين ألفنا رؤيتهم . أما أن تلتهب نفسه حماسة منطفأة فذلك أمر صعب بعد اليوم .

٦

سألت صاحبة المنزل ، وهي امرأة بدينة متسخة الثياب في حدود الأربعين من العمر ، بعدما دخلت القاعة حاملة وعاء من حساء الملفوف :

ـ من الذي طلب حساءً ؟

وسرعان ما انقطع الحديث ، واتجهت أنظار جميع الحاضرين في الغرفة إليها ، حتى إن أحد الضباط غمز بعينه وهو ينظر إلى أحد رفاقه*.

قال الضابط الشاب :

ـ أوه . كوزلتسوف هو الذي طلبه . يجب أن نوقظه من نومه ...

ونادى ، وهو يقترب من الكنبة ويهزُّ النائم من كتفه :

ـ إنهض وتناول طعامك !

فهبَّ شاب في حوالي السابعة عشرة من عمره ، تتلألأ عيناه السوداوان وتحمرُّ وجنتاه ، وانتصب على قدميه بحركة سريعة ، وهو يفرك عينيه ويخطو إلى وسط الغرفة .

قال يخاطب الطبيب الذي صدمه حين نهوضه :

ـ أوه ، ألتمس معذرتك .

وما أسرع أن تعرَّف الليوتنان كوزلتسوف على أخيه ، فاتجه ناحيته . سأله مبتسماً :

ـ ألا تعرفني ؟

فصاح كوزلتسوف الأصغر قائلاً :

ـ آه ! آه ! آه ! آه ! هذا شيء رائع !

وطفق يقبِّل أخاه .

قبَّل الشقيقان بعضهما ثلاث مرات ، لكنهما ترددا قبل القبلة الثالثة وكأن كلاً منهما يسأل الآخر : «لماذا قبلات ثلاث حتماً ؟»

قال الأخ الأكبر ، وهو يطيل النظر في وجه أخيه :

ـ حسناً ، ما أسعدني ! تعال نخرج إلى الباب ونثرثر .

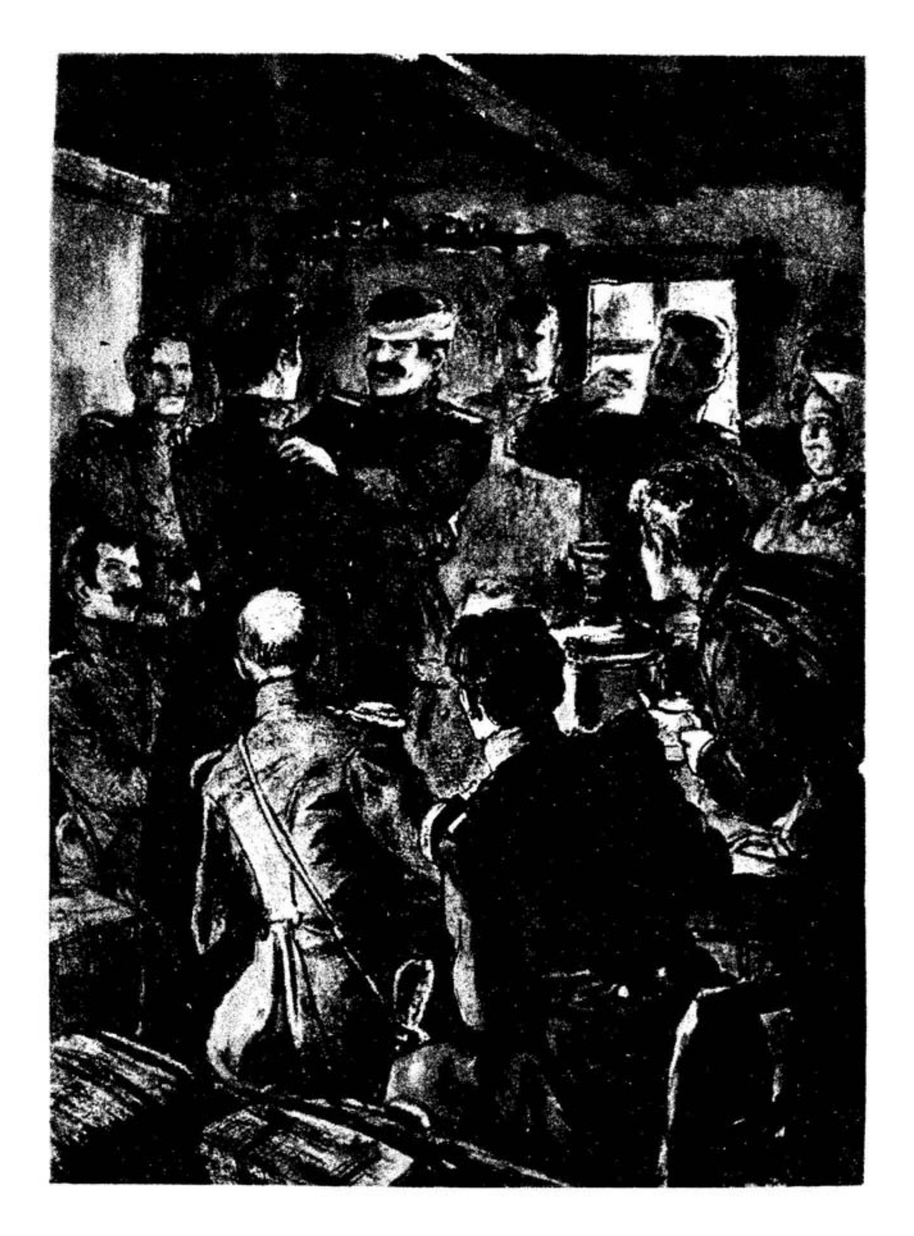
ـ بلى ، هلمَّ بنا . لا أريد حساء . كل الحساء عني ، يا فيدرسون .

ـ لكنك طلبت شيئاً تأكله .

ـ نعم ، وأصبحت لا أريد شيئاً الآن .

خرج الشقيقان إلى درج الباب ، فانثال الأخ الأصغر يسأل أخاه : «حسناً ، كيف حالك ؟ كيف هي الأمور معك ؟» . وظلَّ يردّد أنه سعيد برؤية شقيقه ، دون أن يقول عن نفسه شيئاً على الاطلاق .

بعيد مرور خمس دقائق توقف الشقيقان عن الحديث لحظة ، فسأل الأخ الأكبر أخاه لماذا لم ينخرط في سلاح الحرس مثلما كان يتوقع الجميع له .



أجابه الشاب الصغير ، وقد احمرَّ خجلاً من هذه الذكرى :

ـ آه ... نعم ! لقد أزعجني ذلك كثيراً . لم أتوقع أن يحدث هذا على الإطلاق . تصوَّر ... قرابة نهاية دورتنا بالضبط ... ذهبنا نحن الثلاثة ندخِّن ـ هل تذكر تلك الغرفة الصغيرة التي تقوم وراء مسكن البواب ؟ لا بدَّ أنها كانت موجودة في زمانك أيضاً ـ لكن تصوَّر فقط أن يبصرنا ذلك الوغد ، الحارس ، فأسرع يبلِّغ ضابط الخدمة (رغم أننا رشوناه قبل ذلك بعطايا كثيرة) . فأسرع الضابط إلينا على رؤوس أصابعه . وما أن تناهت إلينا أصداء قدميه حتى أسرع الآخرون فرموا سجائرهم والتجأوا إلى الباب الجانبي . لكنني كنت آخر واحد . وقال لي الضابط كلاماً سيئاً ، ولم أسكت له طبعاً بل رددتُ عليه ، فأخبر المفتش بذلك ، وكانت قضية ! ... أنقصوا لي درجة السلوك مع أن نتائجي في جميع المواد كانت ممتازة ، إلا في الميكانيكا فكانت درجتي فيها اثنتي عشرة . وهكذا لم يسمحوا لي بدخول الحرس . وعدوني أن أُنقل إليه فيما بعد . ثم عُرض عليَّ بعدئذ أن أُنقل إلى الحرس ، لكنني رفضت ، وطلبت إرسالي إلى جبهة القتال .

ـ هكذا إذن !

ـ أعترف لك بصراحة : لقد أصبح كل شيء هناك يثير اشمئزازي بعدما حدث ، وشرعت اتعجَّل المجيء إلى سيباستوبول في أقرب وقت ممكن . ثم إن المرء يستطيع هنا ، إذا واكبه الحظ ، أن ينال ارتقاء أسرع من ارتقائه في الحرس . لا بدَّ للمرء من عشر سنين في الحرس كيما يصبح كولونيلاً ، أما هنا فإن تودليبين لم يكن إلا ليوتنان كولونيل فأصبح جنرالاً في مدى سنتين . وإذا متُّ ـ حسناً فلأمت ...

قال الأخ الأكبر مبتسماً :

ـ هكذا أنت إذن ؟

فعاد الأخ الأصغر يقول مبتسماً متورد الوجنتين كمن يقول شيئاً يبعث على الخجل :

ـ لكن الشيء الرئيسي ، كما تعلم ، الشيء الرئيسي هو أنني شعرت بالخجل . والسبب الذي دفعني إلى طلب المجيء إلى الجبهة حقاً هو أن المرء يخجل من العيش في بطرسبورج في هدوء بينما يموت رجال هنا في سبيل الوطن .

وأضاف بمزيد من الارتباك والحرج :

ـ وفضلاً عن ذلك ، فقد كنت أحبُّ أن أكون بقربك ...

لم ينظر الأخ الأكبر إليه ، بل قال وهو يخرج علبة سجائره :

ـ يا لك من فتىً غريب الأطوار . لكن من المؤسف أننا لا يمكن أن نكون معاً .

استوضح الأخ الأصغر فجأة :

ـ أخبرني بصراحة مطلقة : هل الأمر في التحصينات رهيب إلى الحدِّ الذي يصفون ؟

ـ يبدو في البداية مرعباً ، ولكن المرء يعتاده . سوف ترى بنفسك .

ـ أجل ... ثمة سؤال آخر : أتظنهم يستولون على سيباستوبول ؟ أنا لا أعتقد أنهم يستطيعون ذلك أبداً ، أنا واثق من ذلك .

ـ السموات وحدها تعلم .

ـ ثمة شيء يضايقني جداً ... وهو مصيبة حقاً ! أتعلم أنه سرقت مني في الطريق حزمة أشياء كانت فيها قبعتي الرسمية ؟ هذا يضعني في حرج كبير . فكيف تراني أستطيع التجوُّل من دونها ؟ لعلَّك تعرف أنهم سلَّمونا قبعات رسمية جديدة ! وقد طرأت تبدلات أخرى كثيرة على كل حال . كل شيء تحسَّن . سأروي لك كل شيء عن هذا ... فقد تجوَّلت في كل مكان من موسكو .

كان كوزلتسوف الأصغر ، فلاديمير ، يشبه شقيقه ميخائيل كثيراً لكن الشبه بينهما يماثل الشبه بين وردة برعمٍ ووردة تفتحت . كان للأصغر الشعر الأشقر الذي لشقيقه ، لكنه أكثف منه ، وأكثر تجعداً عند الصدغين . وعلى قذالـه خصلة صغيرة شقراء ـ آية السعادة على حدّ قول المرضعات . كان جلد وجهه الناعم الأبيض لا يبدي شيئاً من اللون دائماً ، ودم الشباب السخي المتدفق فيه لا يُفصح عن عواطفه . وكانت عيناه تشبهان عيني أخيه ، تبدوان أوسع وأوضح ضياءً ، ومردُّ هذا إلى أنهما مخضلتان ، في كثير من الأحيان ، بغشاء رطب يجعلهما تلتمعان . وعلى وجنتيه بدأ ينبت زغب أشقر ناعم ، وكذلك فوق شفتيه الحمراوين اللتين ما أكثر ما ترسمان ابتسامة خجل تكشف عن أسنان براقة ناصعة البياض . وقامته المشوقة ومنكباه العريضان وقميصه الروسي الأحمر المفتوح ـ حيث انتصب أمام شقيقه ، وسيجاره في يده ، مستنداً على درابزون الدرج ، ووجهه وحركاته تدلُّ على سرور غامر ـ كانت كلها تعبِّر عن فتىً جميل فتَّان لا يستطيع المرء أن يحوِّل بصره عنه . كان يشعر بسعادة عميقة للقاء شقيقه الأكبر بعد طول غياب . وكان ينظر إليه في احترام وإعجـاب ويتصوَّره بطلاً من الأبطال . ولكنه من بعض النواحي ، وخاصة من ناحية آداب المجتمع الراقي (كمعرفة اللغة الفرنسية مثلاً ، وفن مصاحبة علية القوم ، واتقان الرقص ، وما شابه) فقد كان يشعر بشيء من الخجل من أخيه ، وكان يعدُّ نفسه أعلى منه ، بل يتمنى أن يُكمل له ثقافته في هذا المجال إذا أمكن ذلك . ومهما يكن من أمر ، فان آراءه في هذه الأمور قائمة على أفكـار من بطرسبورج تجمَّعت لديه في دارة سيدة كبيرة كانت مغرمة بالشبان الوسيمين ، وكانت تدعوه أحياناً لقضاء أيام العطلة عندها ، مثلما تجمعت لديه من إقامةٍ في موسكو في دارة عمه عضو مجلس الشيوخ ، حيث شارك ذات يوم في حفلة راقصة كبرى .

٧

تحدثا إلى أن شبعا ، تحدثا إلى أن وصلا إلى تلك النقطة التي يحسُّ فيها الشقيقان بعد الاندفاعات الأولى أن ليس لهما اهتمامات مشتركة كثيرة رغم ما يربط بينهما من حب قوي ، فصمت كلاهما فترة طويلة .

قال الأخ الأكبر :

ـ حسناً إذن ، إجمع حـاجيـاتك ، ولنـرحـل !

فاحمارَّ وجه الأخ الأصغر فجأة وبدا عليه الارتباك . سأل بعيد لحظة من صمت :

ـ هل سنذهب إلى سيباستوبول رأساً ؟

ـ طبعاً . ليست أمتعتك كثيرة على ما أعتقد ، وفي مقدورك تهيئتها في وقت قصير .

فقال الأصغر متنهداً :

ـ حسناً . فلننطلق على الفور .

ومشى متجهاً إلى غرفته .

وقف في الممشى دون أن يفتح الباب ، وخفض رأسه حزيناً ، وشرع يفكِّر : «نسافر على الفور إلى سيباستوبول رأساً ... إلى ذلك الجحيم ... شيء فظيع ! لكن ، فليكن ما يكون . فلا بدَّ أن أحزم أمري عاجلاً أم آجلاً . يكفيني أني أسافر في صحبة شقيقي ...» .

في هذه اللحظة فحسب ، حين تصوَّر أنه سيركب عربة لا ينزل منها إلا في سيباستوبول ، وأنه ليس هنالك مصادفة تحبسه بعد الآن عن الوصول ، اعتراه لأول مرة ذلك الإحساس الواضح بالخطر الذي يسعـى إليـه ، فاضطربـت نفسه ، واستبدَّ به خوف شديد حين أدرك أن الخطر قريب منه جداً . فلما سكن

اضطرابه قليلاً دلف إلى الغرفة . وانقضت ربع ساعة دون أن يخرج منها ، فنفذ صبر شقيقه وفتح الباب ينادي عليه . كان كوزلتسوف الصغير في تلك اللحظة يتحدث مع ضابط يقف أمامه وقفة تلميذ مذنب . فلما أبصر شقيقه فقد سيطرته على نفسه تماماً ، وقال وهو يلوِّح بذراعه تلويحة عريضة مخاطباً شقيقه كمن يريد أن يهدىء تذمره :

ـ أنا قادم حالاً ، حالاً . أرجو أن تنتظرني خارج الغرفة .

خرج بعد لحظات ، وأقبل على شقيقه وهو يصعِّد تنهيدة حرَّى قائلاً :

ـ تصوَّر فقط أنه يستحيل عليَّ أن أسافر معك بعد كل شيء .

ـ ماذا ؟ يا للهراء !

ـ سأخبرك الحقيقة كلها ، يا ميشا ... نحن لا نملك الآن قرشاً واحداً ، ونحن جميعاً مدينون بمال لهذا الكابتين المساعد الذي تراه هنا . وأشعر من جراء ذلك بخزي شديد !

قطَّب الأخ الأكبر حاجبيه ، ولبث صامتاً فترة طويلة . وسأل شقيقه أخيراً ، وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه :

ـ أمدين أنت بمبلغ كبير ؟

ـ كبير ؟ لا ... ليس المبلغ كبيراً . لكنني أحسُّ من ذلك بخجل رهيب . لقد دفع عني في ثلاث محطات ، عدا ثمن السكَّر الذي كان يمدّني به ... بحيث لا أعرف ... بل إنني قامرت معه قليلاً ... وخسرت قليلاً .

قال الأخ الأكبر بلهجة قاسية متحاشياً النظر إلى شقيقه :

ـ هذا سيىء جداً ، يا فولوديا ! ماذا كنت تستطيع أن تفعل لو أنك لم تجدني هنا ؟

ـ حسناً ، خطر لي أنني أستطيع أن أدفع عندما أحصل على بدل السفر في سيباستوبول . أستطيع أن أفعل ذلك ، ألا أستطيع ؟ الأفضل إذن أن أسافر

معه غداً .

فتناول الأخ الأكبر محفظته ، وأخرج منها بأصابع مرتجفة ورقتين نقديتين من فئة العشرة روبلات ، وورقة من فئة الثلاثة روبلات . وقال :

ـ هذا كل ما معي من مال . فكم له بذمتك ؟

لم يقل كوزلتسوف الحقيقة كاملة عندما زعم أن ذلك كل ما معه من مال ، لأن معه أيضاً أربعة روبلات ذهبية خيطت عليها زخرفة كميّ سترته العسكرية احتياطاً للطوارىء ، وكان قد حلف أنه لن يمسَّها بحال من الاحوال .

فلما تمَّ إجراء الحساب تبين أن كوزلتسوف الصغير مدين بثمانية روبلات فيما عدا بقية خسارة القمار . فأعطى كوزلتسوف الكبير الى شقيقه المبلغ المطلوب ، مقتصراً على إسماعه أن من لا يملك ما يترمَّق به لا ينبغي له أن يقامر . وسأل قائلاً :

ـ ما هي المبالغ التي قامرت بها ؟

لم يرد الأخ الأصغر عليه . بدا له السؤال جارحاً فكأن أخاه يشكُّ في استقامته وصدقه .

استاء من نفسه ، وشعر بالخزي والعار من سلوكه الذي يمكن أن يولِّد مثل هذه الشكوك والشبهات . وبلغت هذه الملحوظة الجارحة التي أبداها له أخ يحبّه هو أعظم الحبِّ من عمق التأثير في طبيعته الحساسة أنه آثر أن يصمت ، مخافة ألا يستطيع خنق شهقات البكاء التي وصلت إلى حلقه . وتناول المال دون أن ينظر إليه ، ورجع إلى رفاقه .

٨

كان نيقولاييف الذي شدَّ عزيمته في دوفانكوي يشرب قدحين من الفودكا

اشتراهما من جندي التقاه عند الجسر يهزُّ الأعنَّة ، فتجري العربة سريعة متأرجحة على الطريق الحجرية الموصلة إلى سيباستوبول عبر نهر بيلبيك . وجلس الشقيقان في العربة جنباً إلى جنب تتصادم أرجلهما كلما انتفضت هذه العربة . كانا صامتين رغم أن كلاً منهما يفكّر في الآخر .

كان الأخ الأصغر يخاطب نفسه قائلاً : «لماذا قال ما قال ؟ لكأنني في نظره لص حقاً ! أعتقد أنه لا يزال غاضباً مني ، فقد ساء تفاهمنا إلى الأبد . ما أروع ما كان يمكن أن نكون أثناء الإقامة معاً في سيباستوبول ! شقيقان تجمعهما صداقة عميقة ، يحاربان في سبيل الوطن جنباً إلى جنب . أحدهما ، الأكبر سناً ، ليس واسع الثقافة ، لكنه شجاع ؛ وثانيهما ، وهو لا يزال في بكور الشباب ... فتىً رائع حقاً ... في غضون أسبوع واحد سأبرهن للجميع أنني لست بالصبيِّ الصغير . سأكفُّ عن الخجل ، ولن يحمارَّ وجهي بعد اليوم . وستكتسب ملامحي طابع الرجولة . وسيطول شارباي حتى ذلك الحين ـ وهما منذ الآن شاربان لائقان وإن لم يكونا كبيرين كثيراً» .

وشدَّ بإصبعه الزغب الذي ينبت عند طرفي فمه . وتابع حديثه لنفسه قائلاً : «قد تقع اليوم عند وصولنا إلى هناك معركة ، فنشترك فيها معاً ، هو وأنا . أنا واثق أنه شديد البأس قوي الشكيمة ـ رجل ممن يتكلمون قليلاً ولكنهم يفعلون خيراً مما يفعل الآخرون . وددت لو أعرف ما إذا كان يتعمد دفعي إلى حافة العربة على هذا النحو تعمداً ! لعلّه مدرك أن جلستي ليست مريحة ، ولكنه يتظاهر أنه لا ينتبه إلى ذلك !» .

واسترسل في تفكيره بينه وبين نفسه ، وهو يلتصق بحافة العربة مخافة أن يتحرك فيبدو عليه أنه يشتكي من جلسته غير المريحة : «سوف نصل إلى هناك في هذا النهار. ولربما نمضي رأساً إلى التحصينات ـ أنا مع مدافعي وأخي مع سريته . سوف نسير معاً ، ويهجم الفرنسيون علينا فجأة ، فأطلق أنا النار ،

وأطلق . وأقتل من الفرنسيين عدداً كبيراً ، ولكنهم يتابعون هجومهم . لا سبيل إلى إطلاق النار الآن . هلكت . ولا نجاة لي . ولكن هذا أخي يندفع على حين فجأة وسيفه في يده . فأتناول أنا بندقية ، وأهجم على العدو يتبعني سائر الجنود . ويسرع الفرنسيون إلى أخي ، فأسرع أنا إليهم أيضاً . أقتل فرنسياً ، ثم أقتل فرنسياً آخر ، وأنقذ أخي . وتجرح ذراعي ، فأمسك بندقيتي بالذراع الأخرى وأظلُّ أركض رغم كل شيء . وتصيب أخي رصاصة ، فيهوي على الأرض أمامي . وأتوقف لحظة ، وأنحني على جثته حزيناً ، وأنهض وأصرخ : «اتبعوني وستثأر له !» . وسأخاطب الجنود قائلاً : «لقد أحببت أخي أكثر من أي شيء آخر في هذا الوجود . لقد فقدته ! فلننتقم له ! لندمرنَّ العدو أو نموتنَّ جميعاً على الفور» . ويندفع الجنود كلهم ورائي صارخين . فإذا بالجيش الفرنسي يتصدّى للقائنا كاملاً وفي طليعته الجنرال بيليسييه ، ونقتل الفرنسيين جميعاً . ولكنني أجرح أخيراً .. أجرح مرة أولى ، وأجرح مرة ثانية ومرة ثالثة ، فأسقط في ساحة المعركة محتضراً . ويحيط بي الناس كلهم مندفعين إليَّ . ويدنو مني جورتشاكوف نفسه . ويسألني ما إذا كنت أطلب شيئاً . فأجيبه أنني لا أطلب شيئاً ـ إلا أن أحظى بالموت إلى جانب شقيقي . فينقلونني ويرقدونني إلى جانب جثة أخي الدامية . وأنهض جسمي قليلاً وأنطق بهذه الكلمات البسيطة وحدها : «بلى ، أنتم لم تقدّروا حقَّ القدر رجلين أحبا وطنهما حباً صادقاً : وقد ماتا الآن معاً . فليغفر لكم الرب !» ثم تفيض روحي» .

من كان يمكنه أن يقول في تلك اللحظة إلى أي مدىً ستتحقق هذه الأحلام ؟

سأل الأخ الأصغر أخاه بغتة ، ناسياً أنه عزم ألا يتوجَّه إليه بحديث :

ـ قل لي : أسبق لك أن شاركتَ في التحام جسماً لجسم ؟

فأجاب شقيقه الأكبر :

ـ كلا ، لم يحدث لي هذا أبداً . لقد قتل من فوجنا ألفا رجل ، ولكن ذلك كله حدث أثناء القيام بأشغال . أنا نفسي جرحتُ أثناء ذلك.الحرب لا تجري كما تتصوَّر ، يا فولوديا .

تأثر قلب الفتى من أن شقيقه ناداه «فولوديا» . وتمنَّى لو يشرح ما بنفسه لأخيه الذي يجهل أنه جرحه بكلامه .

سأل الفتى بعد دقيقة صمت :

ـ ألست غاضباً مني ، يا ميشا ؟

ـ غاضب ؟ لماذا ؟

ـ هكذا ... بسبب ما حدث ... إنه ...

أجاب الأخ الأكبر ، وهو يلتفت إلى أخيه ويربِّت على ركبته في مودة :

ـ لم أغضب منك على الإطلاق .

ـ أغفر لي إذن ، يا ميشا ، إذا أسأت إليك .

قال الأخ الأصغر ذلك ، وأدار وجهه يخفي العبرات المترقرقة في عينيه .

٩

سأل الأخ الأصغر حين وصلت العربة إلى قمة الهضبة :

ـ أيمكن أن تكون هذه سيباستوبول حقاً ؟

رأيا الخليج يمتدُّ أمامهما مع غابة من صواري السفن الراسية فيه ، وكان أسطول العدو يظهر متأرجحاً على صفحة البحر من بعيد ، وفيما حول ذلك ترى سرايا الشاطىء البيضاء ، والثكنات ، وأقنية الماء ، ومستودعات المرفأ ، ثم مباني المدينة . وكانت سحب من دخان أبيض وأرجواني تصعد فوق التلال

الصفراء فتحيط بالمدينة أو تسبح في السماء الزرقاء فتصبغها أشعة الشمس الغاربة بلونها الوردي ، وهي تهبط إلى الأفق منيرة رؤوس أمواج البحر الداكنة .

نظر فولوديا إلى هذا المكان الرهيب الذي طالما حلم به ، وتأمله دون أن تسري في جسده رعدة من خوف . حتى أنه أحسَّ بمتعة جمالية وهو يركِّز انتباهه على هذا المشهد الذي يتصف بطرافة جذابة حقاً . وخامره نوع من الفرح البطولي لأنه ، هو أيضاً ، سيكون بعد نصف ساعة في هذا المكان . وظلَّ يحدِّق بانتباه شديد لم يضعف إلا حين وصلا إلى مستودع تجهيزات فوج شقيقه في الناحية الشمالية ، حيث سيتم إرشادهما أخيراً على الأمكنة التي ترابط فيها وحدة الأخ الأكبر وسرية الأخ الأصغر .

ضابط القطار الذي يرأس المستودع يسكن على مقربة مما كان يدعى «المدينة الجديدة» (وهي مجموعة أكواخ من ألواح الخشب بنتها عائلات البحارة) في خيمة متصلة بعنبر بُني بأغصان مورقة خضراء من شجر السنديان لما تيبس بعد .

وجد الشقيقان الضابط جالساً أمام مائدة من نوع الموائد التي تُطوى ، وشاهدا على المائدة قدحاً من شاي بارد ، وإلى جانبه صينية تضمُّ زجاجةَ فودكا وكافياراً جافاً وفتات خبز . وكان الضابط مرتدياً قميصاً متسخاً أصفر اللون ، عاكفاً على كدسة كبيرة من الأوراق النقدية يعدُّها بمعونة آلة ذات كرات . ولكنه يجب علينا ، قبل أن نتحدث عن شخص هذا الضابط وما جرى بينه وبين الشقيقين ، أن ننعم النظر ، فيما أعتقد ، داخل هذا العنبر كيما ندرك نوع الحياة التي يعيشها ، ونعرف العمل الذي يقوم به . إن مسكنه الجديد واسع المساحة ، متين ، مفروش بمناضد ومقاعد مصنوعة من أغصان الصفصاف ، وذلك شيء لا يُعمل في العادة إلا لمخيمات الجنرالات أو قادة الأفواج . وكيلا

تسقط أوراق الأشجار الجافة من السقف والجدران شُدَّت عليها ثلاثة بسط بشعة لكن جديدة وربما غالية الثمن أيضاً . وعلى السرير الحديدي الموضوع بجانب أكبر بساط من هذه البسط (رُسمت عليه امرأة على صهوة حصان) مُدَّ غطاء من قطيفة قانية الحمرة ، ووضعت مخدة من جلد وسخ متمزق في بعض المواضع ، وأُلقي معطف مبطن بفرو الراكون . وعلى المنضدة مرآة ذات إطار من الفضة ، إلى جانبها فرشاة وسخة وساخة رهيبة من فضة أيضاً ، وبقربها مشط مكسور ممتلىء بشعر مدهن . وتناثرت على المنضدة أشياء هنا وهنالك : شمعدان فضي ، وزجاجة خمرة لها علامة ضخمة حمراء وذهبية ، وساعة من ذهب مع صورة تمثل بطرس الأكبر ، وخاتمان من ذهب ، وعلبة ملأى ببرشامات دواء ، وقطعة خبز ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب . وتحت السرير زجاجات خمرة ملأى وفارغة . وهذا الضابط مسؤول عن أمتعة الفوج وعلف الخيول ، ويعيش مع سمسار تربطه به صداقة قوية . وهو يقوم بأعمال مختلفة . ولقد كان هذا التاجر نائماً في الخيمة المجاورة حين دخل الشقيقان . أما ضابط القطار فكان يعدُّ الأموال العامة التي يشرف على تصريف أمورها بمناسبة نهاية الشهر . وهو شاب حسن الهيئة وسيم الطلعة تبدو عليه سيماء العسكرية ، ممدود العود ، ذو شاربين طويلين وطلعة جميلة . غير أن في مظهره أشياء تصدم الناظر إليه ، ألا وهي تعرُّقه المستمر وانتفاخ وجهه (حتى كأنه قربة خمر) ، وعيناه الشهباوان الصغيرتان جداً اللتان تختفيان في هذا الوجه المنتفخ ، وكذلك وساخته الشديدة من قمة رأسه الذي يتشعَّثُ عليه شعر أدهن إلى أخمص قدميه الكبيرتين العاريتين المدسوستين في مشايتين مبطنتين بنسيج هو تقليد لفرو السمّور .

قال الأخ الأكبر كوزلتسوف ، وهو يدخل المستودع ويحدِّق تحديقاً شرهاً في كدسة الأوراق النقدية :

ـ ما أكثره من مال ! ليتك تقرضني نصفه ، يا فاسيلي ميخائيلوفيتش !

فارتعش ضابط القطار حينما وقعت عيناه على زائره كمن ضُبط بالجرم المشهود ، وطوى كدسة الأوراق وحيّا دون أن ينهض . قال :

ـ آه ، لو كان هذا المال مالي ! لكنها أموال الدولة ، يا صاحبي العزيز !

وسأل ، وهو يدسُّ حزمة الأوراق النقدية في صندوق صغير كان موضوعاً قربه ، متفرساً في فولوديا :

ـ ومن يكون هذا الذي معك ؟

ـ إنه شقيقي . تخرَّج من المدرسة منذ قليل . وقد جئنا نستفهم عن المكان الذي يرابط فيه فوجنا .

قال ضابط القطار ، وهو ينهض :

ـ أجلسا ، يا سيديَّ .

مضى إلى الخيمة غير مكترث بضيفيه . لكنه صاح يستوضحهما من الخيمة :

ـ أتريدان أن تشربا شيئاً ؟ لربما كأس من البورتر ؟

ـ لا بأس بكأس ، يا فاسيلي ميخائيلوفيتش .

دُهش فولوديا من هيئة ضابط القطار ، ومن حركاته المنطلقة على سجيتها ، ومن معاملة شقيقه له باحترام وتقدير .

قال بينه وبين نفسه ، وهو يجلس على الكتبة في تأدب وخجل :

«أعتقد أنه ضابط من أفضل الضباط . وهو إلى ذلك بسيط جداً ، مضياف جداً ، وشجاع جداً» .

صاح الأخ الأكبر يسأله من خلال حاجز الخيمة :

ـ أين تمركز فوجنا إذن ؟

ـ ماذا ؟

فكرر كوزلتسوف السؤال . فأجاب ضابط القطار :

ـ كان سايفر هنا هذا الصباح . وقال إن الفوج نُقل إلى التحصين

الخامس .

ـ أمؤكد هذا ؟

قال ضابط القطار ، وهو لا يزال يتحدث من وراء حاجز الخيمة :

ـ مؤكد ما دمتُ أؤكده . ولكن الشيطان وحده يعرف ما إذا كان يقول الحقيقة ! إنه يكذب لأقل سبب . هيه ، هل لك في قليل من البورتر ؟

فقال كوزلتسوف :

ـ حسناً ، بلى ، أعتقد أنني أرغب في قليل منه .

وتابع الصوت المنطلق من وراء الخيمة يخاطب السمسار النائم :

ـ وأنت ، يا أوسيب إغناتيفيتش ، هل تشرب قليلاً من البورتر أيضاً ؟ كفاك نوماً . فقد تجاوزت الساعة الرابعة !

فأجابه صوت نحيل يلثغ لثغاً حلواً :

ـ هلا تركتني وشأني ؟ أنا لست نائماً !

ـ إنهض أخيراً . فأنا أضجر من دونك .

وخرج ضابط القطار من الخيمة إلى ضيفيه .

صرخ ينادي خادمه :

ـ هات زجاجة من بورتر سمفيروبول !

فدخل الخادم العنبر ، وأخرج البورتر من تحت المقعد متعجرف الهيئة فيما لاح لفولوديا ، وصدم الضابط أثناء ذلك .

قال ضابط القطار ، وهو يملأ الكؤوس :

ـ بلى ، يا سيدي ، أصبح لفوجنا الآن آمر جديد . نحتاج إلى مال كثير لشراء كل ما يعوزنا .

فقال كوزلتسوف ، وهو يرفع كأسه باحترام :

ـ يبدو لي أنه نسيج وحده ، واحد من الجيل الجديد .

ـ بلى ، من الجيل الجديد ! سيصبح شحيحاً كالآخرين . حين كان رئيس كتيبة ، كان يغضب من التقتيرات . أما الآن فاختلفت أغنيته .

ـ فعلاً ، يا صاحبي القديم . هكذا الأمور .

لم يكن الأخ الأصغر يفهم شيئاً ممَّ يتحدثان ، لكنه يحسُّ إحساساً غامضاً أن شقيقه لا يتكلم بصدق ، ولا يقول هذه الأشياء إلا لأنه يشرب بورتر ضابط القطار .

فرغت زجاجة البورتر وبقي الحديث مستمْراً بهذه اللهجة طوال مدة ، حينما فتح باب الخيمة ودخل منه رجل قصير القامة ، نضر الوجه ، يلبس ثوباً منزلياً من نسيج ناعم رقيق أزرق مع زنار وشرابات ، ويضع على رأسه قبعة ذات ضفيرة حمراء تزينها عقدة . أقبل يملِّس شاربيه الأسودين الصغيرين ، فلما حيَّاه الضابطان ردَّ تحيتهما بحركة من كتفه لا تكاد تُلمح ، محدقاً بنظره إلى البساط .

قال ، وهو يجلس بجانب المنضدة :

ـ يسرني أن أشرب كأساً ، أنا أيضاً .

وأردف ، سائلاً فولوديا بطريقة ودية :

ـ هل أنت قادم من بطرسبورج ، أيها الشاب ؟

ـ أجل ، يا سيدي ... وذاهب إلى سيباستوبول .

ـ بناء على رغبتك الخاصة ؟

ـ أجل ، يا سيدي .

قال السمسار :

ـ لماذا تفعلون ذلك ، أيها السادة ؟ أحسبني على استعداد للرحيل إلى بطرسبورج سيراً على قدميَّ لو سمحوا لي بذلك . يا إلهي ، بدأت أضجر من هذه الحياة الملعونة !

سأله كوزلتسوف الأكبر :

ـ مم تشكو ؟ وكأنك لا تعيش حياة مريحة ههنا !

فنظر إليه السمسار لحظة ، وأشاح عنه . وتابع كلامه مخاطباً فولوديا :

ـ الخطر المستمر ، وأنواع الحرمان ، واستحالة حصول المرء على ما هو في حاجة إليه ... فما الذي يستحثكم على طلب المجيء إلى هنا ؟ أنا لا أفهمكم ، أيها السادة . لو أنكم تجنون ربحاً ـ ولكنكم لا تجنون مثل هذا الربح ! هل ترى أن من الخير لك في مثل سنك أن تتعرَّض للتشوُّه إلى الأبد !

فقال كوزلتسوف الأكبر بلهجة تعبِّر عن الإنزعاج ، متدخلاً في الحديث :

ـ من الناسّ من يريدون الحصول على منافع ، ومنهم من يحبون أن يخدموا في سبيل الشرف .

ـ أينْ هو الشرف حين يموت المرء جوعاً ؟

قال السمسار ، وهو يضحك احتقاراً ، وانصرف بوجهه إلى ضابط القطار الذي أخذ يضحك هو أيضاً . وأردف يقول ، مشيراً بإصبعه إلى صندوق موسيقى :

ـ إملأ الصندوق ولنسمع لحن «لوسيا» ، فأنا أحبه .

سأل فولوديا شقيقه حين خرجا من العنبر عند الغسق ، واستأنفا السير في الطريق إلى سيباستوبول :

ـ ألا قل لي : أي نوع من الشبان هو فاسيلي ميخائيلوفيتش ؟

ـ ليس رجلاً سيئاً . ولكنه بخيل بخلاً رهيباً . إنه يقبض ثلاثمائة روبلاً في الشهر على الأقل ، ولكنه يعيش عيشة خنزير مثلما رأيت . أما هذا السمسار فلا أستطيع أن أحتمل رؤيته . وسوف أضربه ضرباً مبرِّحاً ذات يوم . هل تتصوَّر أن هذا الوغد جاء من تركيا بحوالي اثني عشر ألف روبل ؟

وشرع كوزلتسوف يحدِّث شقيقه عن الاختلاسات التي يقوم بها أمثال ذلك

الحقير ، حانقاً ذلك الحنق الخاص (يجب أن نعترف بذلك) الذي يشعر به امرؤ يستنكر الشرَّ لا لأنه شرٌّ ، بل لأنه يؤذيه أن يرى أناساً غيره يجنـون منـه المنافع .

١٠

كان الليل قد أسدل ستائره تماماً حينما بلغا سيباستوبول . وما كان يحسّه فولوديا حين كانت العربة تقترب من الجسر العريض الذي يمتدُّ على الخليج لم يكن تشاؤماً بل كان ثقلاً يجثم على فؤاده . إن ما رآه وما سمعه يتعارض تعارضاً كبيراً مع تجاربه الماضية والتي لا تزال حية في نفسه : صالـة الامتحانـات الواسعة المضيئة بأرضها الخشبية المصقولة ، وأصوات رفاقه الرنانة وضحكاتهم الصاخبة ، والنبرة الرسمية الجديدة ، وقيصره المحبوب الذي اعتـاد أن يراه أحياناً كثيرة خلال السنوات السبع الأخيرة ، والذي حـين ودَّعهـم مخضـل العينين بالدموع سماهم «أولادي» .. إن كل ما رآه الآن لا يشبـه الأحـلام الجميلة التي كان يحلمها زاخرة بضياء ساطع واندفاعات سخية .

قال فولوديا :

ـ أوه ، لماذا ؟ فلنذهب معاً . سأرافقك إلى الحصن . ينبغي على المرء أن يعتاد هذا عاجلاً أم آجلاً . إذا كنت تستطيع أن تذهب فأستطيع أن أذهب أنا أيضاً .

ـ الأفضل ألا تفعل !

ـ بلى ، أرجوك ! بذهابي معك أعرف على الأقل كيف ...

ـ نصيحتي ألا تذهب ... ولكن ما دمت تلحُّ ...

كانت السماء صافية سوداء . وكانت النجوم ونيران المدافع وأنوار القذائف المستمرة تتلألأ براقة في الظلمة . إن مبنى السرية الواسع الأبيض وقناطر الجسر الأولى تبرز واضحة المعالم . وفي كل ثانية تقريباً تُسمع طلقات مدفع أو انفجارات قذيفة تتعاقب سريعة ، أو تدوّي في آن واحد هزيماً يزداد وضوحاً وعمقاً ويهزُّ الهواء هزاً . وبين حين وآخر تسمع همهمات هائجة تصدر عن البحر أشبه ما تكون بصدى بعيد لهزيم الانفجار وكأنها تردُّ على أصوات النيران . وكان هواء بارد يأتي من جهة البحر مفعماً بالرطوبة . واقترب الشقيقان من الجسر . فصاح جندي من جنود الاحتياط ، وهو يضع سلاحه على ذراعه بحركة خرقاء :

ـ من هناك ؟

ـ جندي .

ـ المرور ممنوع .

ـ كيف هذا ؟ لا بدَّ لنا من المرور !

ـ إسأل الضابط .

كان الضابط جالساً على قاعدة مرساة غافياً ، فنهض وأمر أن يؤذن لهما بالمرور ، قائلاً :

ـ تستطيعان الذهاب إلى هناك ، ولكن من غير عودة من هنا .

وصرخ يقول ، حينما شاهد عربات عسكرية مثقلة بأحمال من القفف تهمُّ باجتياز الجسر :

ـ أين تسيرون بهذه الأحمال ؟

وصل الشقيقان إلى أول جسر عائم ، فالتقيا بطائفة من جنود يتحدثون بصوت عال وهم في طريقهم إلى المعبر الثاني .

قال أحدهم :

-إذا كان استلم المال للتجهيزات فقد أخذ حقه كاملاً ... هذا ما جرى .

وقال آخر :

- آه ، يا إخوان . عندما يصل المرء إلى الناحية الشمالية يختلف الأمر تماماً هنالك في مقدورنا أن نتنفس على أقل تقدير .

قال الأول :

- خير لك أن تسكت . البارحة انفجرت هنالك قنبلة من تلك القنابل اللعينة ، فبترت سيقان اثنين من البحارة .

اجتاز الشقيقان الجسر العائم الأول ، وتوقفا ينتظران العربة على الجسر العائم الثاني الذي كانت الأمواج قد غمرته في بعض نواحيه . والريح التي كانت تبدو ضعيفة على الأرض تهبُّ هنا زوبعة شديدة . فالجسر العائم يهتزُّ ويتأرجح ، والأمواج تلطم العوارض الخشبية فتحدث قرقعة أو تتحطم على الحبال والمراسي وتجتاح سطح الجسر . وعن يمين جهة البحر يدفُّ هدير الماء مزمجراً في ظلام الليل . وعند الأفق يُرى الخط الأسود المستقيم الذي لا نهاية له ، والذي يفصل بين المياه والسماء المنجمة ، يرى بالتضاد أشهب واضحاً لدى اقترابه من الأمواج . وفي البعيد تسطع أنوار سفن الأعداء . وعن يسار تبرز كتلة أحد المباني قائمة في الظلمة ، ويميِّز السامع صخب أمواجها التي تلطم جنباته . وهذا مركب بخاري يُشاهد وهو يبتعد سريعاً عن أرصفة الناحية الشمالية محدثاً ضجةً مسموعة . وتنفجر قذيفة في موضع قريب فيضيء برقها المركب خلال ثانية قصيرة ، ويظهر سطحه عامراً بالقفف ، ورجلان واقفين ، والزبد الأبيض ورشاش الأمواج الخضراء التي يشقها المرء خلال سيره ، ورجل ثالث واقفاً على الحافة غاطساً قدميه في الماء ، عارياً إلا من قميص ، عاكفاً على إصلاح شيء من الأشياء ببلطة في يده . وإلى الأمام ، فوق سيباستوبول ، تستمرُّ تلك الأنوار ذاتها في شقّ السماء ، ويظلُّ الهزيم الرهيب

يزداد وضوحاً واقتراباً . وتدفقت موجة على الجانب الأيمن من الجسر فغمرت جزمتي فولوديا . ومرَّ بقربه جنديان يخوِّضان في الماء الهدّار . ودوَّت قرقعة على حين غرة ، وإذا ضوء ينير مقدمة الجسر فتظهر عربة وراءها عسكري على ظهر حصان ، وتساّقط الشظايا في الماء صافرة فيرتجُّ الماء ارتجاجاً شديداً وتطير كتلٌ منه في الهواء .

صاح راكب الحصان يقول ، وهو يوقف حصانه أمام كوزلتسوف الأكبر :

ـ هذا ميخائيل سيميونوفيتش ! هل شفيت تماماً ؟

ـ كما ترى ! إلى أين يقود القدر خطاك ؟

ـ أنا ذاهب إلى الناحية الشمالية لأجيء بخرطوش . أنا أنوب الآن عن مرافق قائد الفوج ... ونحن ننتظر الهجوم بين ساعة وساعة .

ـ وأين هو مارتزوف ؟

ـ ذهبت بإحدى ساقية أمس قنبلة حين كان نائماً في غرفته بالمدينة . أتعرفه ؟

ـ أصحيح أن فوجنا في الحصن الخامس ؟

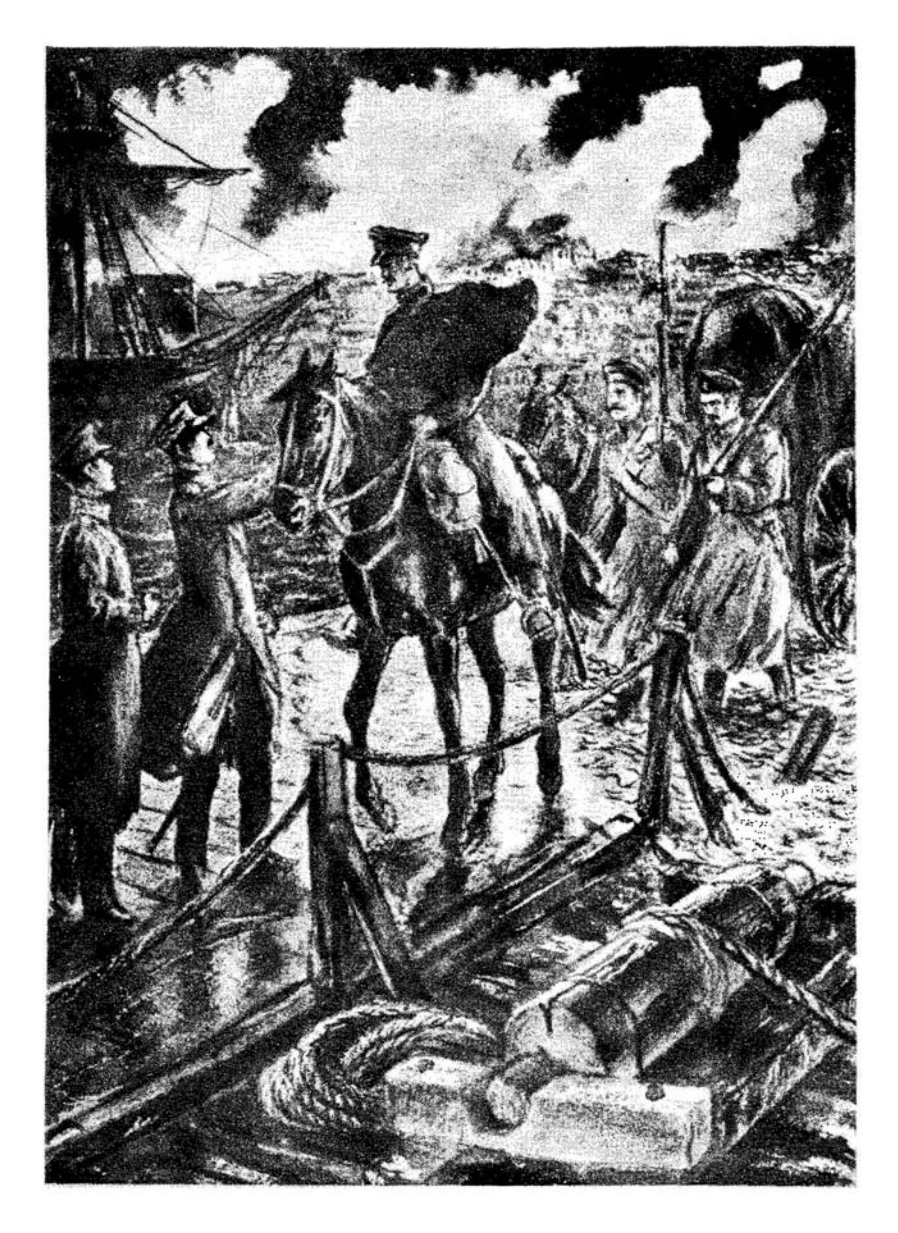
ـ نعم . حللنا فيه محلّ فوج م ... إذهب إلى الاسعاف ، فتلقى فيه بعض أصدقائنا ، فيرشدونك إلى الطريق .

ـ ألم يُصب مسكني في شارع مورسكايا بأذىً ؟

ـ هوووه ، يا صاحبي العزيز ! دمَّرته القنابل منذ مدة طويلة . لن تعرف سيباستوبول مرة أخرى . الشوارع لا نساء فيها . ولا مطاعم . ولا موسيقى . آخر ملهى ليلي انتقل بالأمس . كل شيء في سيباستوبول الآن كئيب حزين . وداعاً !

ومضى الضابط خبباً .

سيطر خوف شديد على فولوديا فجأة . كان يخال له أن قنبلة أو شظية



ستصل إليه في أية لحظة فتصيبه في رأسه . الظلمة الرطبة ، وجميع هذه الأصوات ، ولا سيما خرير المياه المتطايرة ـ هذه الأمور كلها بدت كأنها تنصح له بالتوقف . فليس ثمة خير ينتظره هنا ، ولن تطأ قدماه بعد اليوم أرض هذه الناحية من الخليج ، ويجب عليه أن يتراجع فوراً ، أن يهرب إلى أبعد مكان عن ساحة الموت الرهيبة هذه . وقال يحدِّث نفسه مرتعشاً من الصدمة التي أحدثتها في نفسه هذه الفكرة أولاً ، ومن برودة الماء الذي نفذ في حذائيه وبلَّل قدميه ثانياً : «ولكن لربما فات الأوان وتقرر مصيري الآن !» .

زفر فولوديا زفرة عميقة ، وابتعد خطوات عن شقيقه . همس ، وهو يرسم إشارة الصليب :

ـ آه ، رباه ! هل يمكن أن أُقتل حقاً ـ أنا بعيني ؟ يا ربّ ارحمني !

وقال الأخ الأكبر حين وصلت العربة إلى الجسر :

ـ هيا ، يا فولوديا . هلمَّ بنا . هل رأيت القذيفة ؟

على الجسر التقى الشقيقان بعربات محملة بالجرحى وعربات محملة قففاً ، وبامرأة تدفع عربة صغيرة مكدَّسة بأثاث . ولم يوقفهما أحد في الطرف الآخر .

كانا يلتصقان بجدران مبنى سرية نيقولاس بغريزتهما ، ويتقدمان مرهفين سمعيهما إلى دويّ القنابل التي تنفجر الآن فوق رأسيهما ، وإلى صفير الشظايا ساقطة من السماء . وهكذا وصلا إلى المكان الذي توجد فيه أيقونة على سور السرية . وسمعا هنالك أن السرية الخامسة الخفيفة التي ألحق بها فولوديا ترابط في كورابلنايا . فقررا ، رغم الخطر ، أن يمضيا ليلتهما معاً عند الأخ الأكبر في الحصن الخامس ، ثم يذهبا في الغداة إلى سرية الأخ الأصغر . وسارا في دهليز يتخطيان بأقدامهما أجسام الجنود النائمين بمحاذاة الجدار ، ووصلا أخيراً إلى مركز الاسعاف .

١١

حين دخلا القاعة الأولى ، الملأى بالأسرَّة التي يرقد عليها جرحى ، وشما تلك الرائحة الخاصة بالمستشفيات والتي هي مزيج من روائح ثقيلة مزعجة إلى أقصى حد ، جاءت ممرضتان تلقاهما .

الأولى امرأة في الخمسين من العمر ، سوداء العينين ، قاسية الملامح ، تمسك بيديها لفائف أضمدة وخرقاً ، وتصدر أوامرها إلى جندي في ميعة الصبا من دائرة الخدمات الصحية كان يتبعها . والثانية فتاة فاتنة في العشرين من العمر ، وجهها شاحب رقيق يحيط به شعر أشقر ، وتحت طاقيتها التي تحبس رأسها تعبِّر نظرتها عن خجل أخاذ يمازجه يأس عاجز . كانت تسير إلى جانب المرأة الكبرى واضعة يديها في جيبي صدارها وكأنها تخشى أن تتخلَّف عنها .

سألهما كوزلتسوف عما إذا كانتا تعرفان أين مارتزوف الذي قطعت إحدى ساقيه بالأمس .

استوضحته الكبرى :

ـ هو ضابط من فوج ب ... على ما أظن ؟ أهو قريب لك ؟

ـ كلا ، بل هو رفيق :

قالت تخاطب الأخت الصغرى بالفرنسية :

ـ دليهما على مكانه . من هنا .

واتجهت إلى سرير مريض يتبعها الممرض .

قال كوزلتسوف لفولوديا الذي ارتفع حاجباه ، وانقبضت أساريره على ألم ، وكأنه لا يستطيع أن يحول بصره عن الجرحى :

ـ هيا . إلى ماذا تنظر ؟ هيا بنا !

فتبع فولوديا شقيقه ، ولكنه لم يكف عن إلقاء نظرات على ما يحيط به ، وهو

يدمدم في اضطراب : «آه ... يا ربي ! يا ربي !» .

قالت الممرضة الصغيرة تسأل كوزلتسوف الأكبر ، وهي تشير إلى فولوديا الذي يتنهَّد ويئن سائراً وراءها في الممشى :

ـ أظن أنه لم يجيء إلى هنا منذ مدة طويلة ، أليس كذلك ؟

ـ لقد وصل منذ برهة .

فنظرت الممرضة الصغيرة إلى فولوديا ، وشرعت تبكي فجأة ، قالت في صوت يعبِّر عن ألم رهيب :

ـ يا ربي ! يا ربي ! متى ينتهي هذا كله ؟

دخلوا جناح الضباط . كان مارتزوف مضطجعاً على ظهره ، واضعاً تحت رأسه يديه العضلتين العاريتين حتى مرفقيه . وحين تنظر إلى وجهه الأصفر فأنت تقرأ على صفحته آلام رجل يكزُّ على أسنانه ليمنع نفسه من أن يصرخ توجعاً . وكانت قدم الساق السليمة خارجة من تحت الغطاء . وكان ظاهراً أن أصابع رجليه تضطرب تحت الجورب في حركات تشنجية .

سألته الممرضة ، وهي تُنهض رأسه الأصلع قليلاً ، مصلحةً وضع مخدته بأصابعها الرقيقة الناعمة (التي لاحظ فولوديا في إحداها خاتماً من ذهب) :

ـ حسناً ! كيف حالك الآن ؟

فأجابها الجريح بنبرة غاضبة :

ـ إنني أتوجَّع ! هذا يكفي ـ المخدة لا بأس بها على هذا الشكل !

واضطربت أصابع رجله تحت الجورب بمزيد من التشنُّج . وتابع يقول مخاطباً كوزلتسوف :

ـ كيف حالك ؟ ما اسمك ؟...

فلما ذكر كوزلتسوف اسمه أضاف يقول :

ـ أوه ! آسف ! أستميحك العذر . فالمرء ينسى هنا كل شيء .

وأضاف دون أن يبدي شيئاً من سرور ، بل راح يحدِّق في فولوديا بنظرة مستفهمة :

ـ كيف . لقد أقمنا في غرفة واحدة .

ـ هذا أخي . وصل اليوم من بطرسبورج .

فقال الجريح ، وقد عبست قسمات وجهه :

ـ هِمْ ! أما أنا فسأحصل على تسريح ! أوه ... ما أشدَّ هذا الألم ! الأفضل أن أنتهي فوراً !

سحب ساقه وحرَّك أصابع قدمه بحركة أسرع ، وغطّى وجهه بيديه .

قالت الممرضة في صوت خافت ، وقد ترقرقت الدموع في عينيها :

ـ يجب أن نتركه وشأنه . حاله سيئة جداً .

كان الشقيقان قد قررا ، منذ وصلا الناحية الشمالية ، أن يذهبا معاً الى الحصن الخامس . لكنهما غيرّا رأييهما حين خرجا من سرية نيقولاس بتفاهم صامت وإتقان لم يُفصحا عنه .

واتجه كل منهما إلى المكان المعين له كيلا يتعرضا للخطر من غير جدوى .

قال الأخ الأكبر :

ـ كيف تهتدي إلى المكان ، يا فولوديا ؟ رويدك قليلاً ! سيقودك نيقولاييف حتى كورابلنايا . أما أنا فأذهب وحدي ، وسأزورك غداً .

هذا ما تبادله الشقيقان من كلام في وداعهما الأخير .

١٢

استمرَّ هدير المقصف عنيفاً ، وظلَّ شارع إيكاترينينسكايا الذي سار فيه فولوديا يتبعه نيقولاييف الصموت هادئاً مقفراً . إن فولوديا لا يميِّز في بهمة الليل

إلا الشارع العريض بصفوف جدرانه البيضاء الواسعة وأكثرها أمسى خراباً ، وإلا بلاطات الرصيف التي يسير عليها . ومن حين إلى حين يلتقي بجنود وضباط . فلما وصل إلى مستوى بناء الأميرالية محاذياً الجانب الأيسر من الشارع أبصر غراس أكاسيا مزروعة على طول الرصيف ، مسنودة بدعامات من خشب مدهون بلون أخضر ، ولاحظ أن الأوراق الهزيلة من هذه الشجيرات مغطاة بالغبار . كان يسمع وقع قدميه وقدمي نيقولاييف الذي يسير وراءه متنفساً تنفساً ثقيلاً . إنه لا يفكّر في شيء معين : الراهبة الجميلة ، وساق مارتزوف ، وأصابع رجليه المتحركة تحت الجورب ، والظلمة ، والقنابل ، ورؤى الموت المختلفة ، ذلك كله كان يختلط في فكره اختلاطاً عجيباً . فكانت نفسه الفتية شديدة التأثر تهتز اهتزازاً شديداً ، وكان قلبه ينقبض توجعاً حين يتصوَّر وحدته ويشعر أنْ أحداً لا يكترث بمصيره في ساعة الخطر الذي يتعرَّض له ، مهمهماً بينه وبين نفسه : «سوف أُقتل ، وسوف أعاني آلام الاحتضار ، فلا يبكي عليَّ أحد » . هذه هي إذن حياة الحرب التي تصوَّرها في أحلام جميلة رائعة ، زاخرة بالقوة والبطولة وتبادل المحبة والإخلاص . وكانت القنابل تصفر وتنفجر أقرب فأقرب . وكان يصل إليه صدى التنهيدات التي يطلقها نيقولاييف من صدره بكثرة ، لكن دون أن ينبس بحرف . فلما اجتاز جسر كورابلنايا الصغير لمح شيئاً يسقط في الخليج على مقربة منه مرسلاً دوياً هائلاً ، فأضاء الأمواج الدكناء ، طوال لحظة قصيرة ، ضياء أحمر كالأرجوان ، وانبثقت من الماء شظايا فأثارت لججه .

قال نيقولاييف في صوت خشن :

ـ أنظر ! إنها لم تنطفىء !

فأجابه فولوديا بغير إرادة منه ، مدهوشاً من صوته النحيل :

ـ لا ، لم تنطفىء !

التقيا برجال جرحى محمولين على نقالات ، وبعربات متزايدة مثقلة بالقفف . وراح فوج من الجنود يتقاطر رتلاً نحو كورابلنايا . ومرَّ فرسان مسرعون ، وهذا أحدهم ، وهو ضابط يتبعه قوزاقي ، يوقف حصانه أمام فولوديا فيتفرَّس فيه لحظة ، ثم ينصرف عنه ضارباً فرسه بسوطه يحثه على الاسراع .
فقال الشاب المسكين محدثاً نفسه وقد كاد أن يبكي هذه المرة حقاً : «وحيد ! أنا وحيد ! لا يهمُّ أحداً من الناس أن أحيا أو أن أُقتل» .

وبعدما صعد في منحدر بجانب سور أبيض عالٍ دلف الى شارع صغير تحيط به من الجانبين بيوت صغيرةمدمرة تنيرها أضواء القذائف في كل لحظة . وخرجت من أحد الأبواب امرأة سكرى شعثاء الهندام في صحبة بحار ، فاصطدمت بفولوديا في العتمة .

ـ لو كان رجلاً لائقاً على الأقل ... آه ... معذرة ، يا حضرة الضابط !

كان قلب الفتى المسكين ينقبض أكثر فأكثر . وعلى الأفق الأسود كان الومض يزداد تلاحقاً ، والقذائف تصفر وتنفجر حولهما . وفجأة أطلق نيقولاييف من صدره تنهيدة ، وشرع يتكلم بصوت بدا لفولوديا أجوف لا حياة فيه :

ـ كنت تستعجل إلى هنا . فلا تني تستحثني قائلاً : «يجب أن نرحل ! يجب أن نرحل !» ما أروع هذا المكان الذي حثثتني إليه ! السادة الحكماء يلجؤون إلى المستشفى متى أصيبوا بجرح طفيف ... فالحياة هناك رخية حلوة !

أجاب فولوديا ، آملاً أن يطرد بالحديث ما كان اجتاح نفسه من شعور أليم :

ـ حسناً . وإذا كان شقيقي استردَّ عافيته !

فقال نيقولاييف :

ـ شفي حقاً ! أين هي عافيته إذا كان لا يزال مريضاً ؟ فالأصحاب حقاً يبقون في المستشفى في مثل هذه الأزمان إذا كانوا يملكون شيئاً من عقل . أتراك تجد الحياة هزلاً هنا ؟ المرء معرَّض لفقد ذراعه أو ساقه في كل لحظة . إنهم

يفعلون ذلك به قبل أن يدرك ماذا أصابه ! الشقاء يخيِّم على المدينة بأسرها فما بالنا بالتحصينات ؟ أنت تتلو جميع ما تعرف من أدعية وصلوات وأنت في طريقك إلى هناك . يا للحيوان القذر الذي مرَّ بقربك ... (صاح نيقولاييف هذه الصيحة وقد سمع أزيز شظية تطير على مقربة منه) . لقد أمروني الآن أن أدلك على الطريق ، وليس على الخادم إلا أن يطيع الأوامر . ذلك معروف أما العربة فقد عهدوا بها الى جندي مجهول . وقد فتحت بُقجنا . «إذهب ! إذهب !» . ولكن إذا فُقد شيء من أمتعتنا فإن نيقولاييف هو الذي سيُسأل عنه .

سار الرجلان خطوات أخرى ، ووصلا إلى ساحة ، وسرعان ما عاد نيقولاييف إلى صمته وهو يتنهد من جديد . قال فجأة :

ـ إليك ، يا صاحب السعادَة . هذه هي مدفعيتك ! إسأل الخفير فيدلُّك !

قطع فولوديا عدة خطوات أخرى فلم يعد يسمع زفرات نيقولاييف وراءه . فجأة شعر أنه وحيد وحدة تامة . سقط هذا الشعور بالوحدة الكاملة تجاه الخطر ، تجاه الموت الذي يبدو له وشيكاً ، سقط على قلبه ككتلة ثقيلة وجمَّده تجميداً . فوقف في وسط الساحة والتفت إلى الوراء للتأكد مما إذا كان أحد يلاحظه ، ثم وضع رأسه بين يديه ، وهتف مذعوراً : «آه ، يا رب ، هل يمكن أن أكون جباناً رعديداً شقياً ؟ عندما أكون قادراً على أن أموت ميتة كريمة في سبيل الوطن وفي سبيل القيصر الذي كنت أحلم متحمساً أني أضحي بحياتي في سبيله ؟ واحسرتاه ! أنا إنسان مسكين ، أنا شيء يرثى له !» وفيما فولوديا غارق في هذه اللجة من اليأس والكمد ، فيما هو يعاني هذا العذاب من خيبة أمله في نفسه ، سأل الخفير عن مسكن آمر السرية ، واتجه الى المكان الذي أشار عليه ..

كان آمر السرية يقيم في منزل صغير من طابقين تدخل إليه من ساحة يخفرها حارس . وكان نور ضعيف تبعثه شمعة واحدة يشعُّ من إحدى نوافذه المرقَّعة بالورق .

وكان الخادم جالساً على درجات المدخل يدخِّن غليونه ، فانطلق يُعلم آمر السرية عن وصول فولوديا ، ثم رجع وأدخله غرفة فقيرة الأثاث . وفي الغرفة ، تحت مرآة مكسورة بين نافذتين ، منضدة عليها أوراق إدارية . وهنالك بضع مقاعد ، وسرير من حديد فرش بملاءات نظيفة ، وسجادة صغيرة عند قدمي السرير .

بقرب الباب يقف سرجان ميجور بهيُّ الطلعة ذو شاربين طويلين علَّق سيفه بحزامه وزيَّن معطفه بصليب ووسام حملة هنغاريا . وفي وسط الغرفة يقف ضابط أعلى ، قصير القامة في حوالي الأربعين من العمر ، يرتدي معطفاً رقيقاً مهترئاً ، ويسير في الغرفة رائحاً جائياً ، وأحد خديه متورِّم معصوب بضماد .

قال فولوديا ، وهو يدخل الغرفة ، مكرراً جملة أعدَّها من قبل :

ـ يشرِّفني أن أقدِّم نفسي ، الملازم البحري كوزلتسوف الأصغر ، ملحق بالسرية الخامسة الخفيفة .

فردَّ آمر السرية على تحيته بجفوة ، وطلب إليه الجلوس دون أن يصافحه .

جلس فولوديا خجلان على كرسي بقرب منضدة الكتابة ، وشرعت يده تلعب بمقص موجود عليها . واستمر آمر السرية في سيره صامتاً ، وذراعاه خلف ظهره ، خافضاً رأسه ، كمن يحاول أن يتذكر شيئاً ما . وكان لا يزيد عن أن يلقي من حين إلى حين نظرة خاطفة على اليد التي تعبث بالمقص .

كان آمر السرية رجلاً بديناً ، تصل صلعته إلى قمة رأسه ، ويتدلى شارباه

الكثيفان باستقامة فوق فمه ، له عينان واسعتان شهباوان ويـدان جميلتـان بيضاوان سمينتان ، وقدمان متجهتان إلى الخارج تدلُّ مشيتهما الواثقة المتعمدة الرشاقة على أن الرجل لا يشكو من خجل .

قال ، وهو يقف أمام السرجان ميجور :

ـ بلى ، يجب أن يزاد طعام خيول الذخيرة مكيال شوفان منذ الغد ، فقد صارت هزيلة جداً . ألا تظن ذلك ؟

فأجاب السرجان ميجور ، وهو يقف وقفة الاستعداد ، ويحرّك أصابعه مثلما يفعل رجل يحب أن يشير بيديه تعبيراً عن المعاني التي يتضمنها حديثه :

ـ نستطيع أن نؤمن ذلك ، يا صاحب السعادة . فقد انخفض سعر الشوفان في هذه الأيام . ثم إن ناقل العشب فرانتشوك بعث إليّ بالأمس ، يا صاحب السعادة ، كلمة يقول فيها إنه يجب شراء محاور للعجلات . يقولون إنه يمكن الحصول عليها هناك بأسعار بخسة . هل تأمر بذلك ؟

قال آمر السرية :

ـ حسن . قل له أن يشتري ـ إن لديه قدراً كافياً من المال .

ورجع يذرع أرض الغرفة .

استوضح فجأة ، وهو يتوقف أمام فولوديا :

ـ وأين هي أمتعتك ؟

كان فولوديا المسكين قد بلغ من اعتقاده أنه جبان درجة يتخيَّل معها وراء كل نظرة إليه أو إشارة احتقاراً لشخصه من حيث هو رجل رعديد . كان يبدو له أن آمر السرية نفذ إلى سرِّه وراح يستهزىء به . فأجاب مغمغماً مضطرباً أن أمتعته بقيت في غرافسكايا ، وأن شقيقه وعد أن يحضرها له في الغداة .

لم يصغ آمر السرية إلى شروح فولوديا ، بل التفت إلى السرجان ميجور يسأله :

ـ وأين نضع الملازم البحري ؟

ـ الملازم ، يا سيدي ؟

قال السرجان ميجور هذه العبارة ، ثم صبَّ في نفس فولوديا مزيداً من اضطراب حينما رماه بنظرة كمن يقول : «ما نوع هذا الملازم ؟» . وتابع كلامه بعد لحظة ، فقال :

ـ يمكن إسكانه في الطابق الأرضي ، يا صاحب السعادة . في مقدورنا إنزاله في غرفة الكابتين المساعد الموجود في الحصن الآن . وسريره شاغر .

فقال آمر السرية :

ـ حسن جداً . هل يناسبك هذا إلى حين ؟ أنت متعب ولا ريب . سنحاول أن نسكنك في الغداة سكنى أفضل .

فنهض فولوديا وانحنى تحيةً .

قال آمر السرية ، بينا فولوديا يتجه صوب الباب :

ـ أتريد قدحاً من الشاي ؟ يمكن تسخين السماور .

انحنى فولوديا وخرج . وقاده خادم الكولونيل إلى الطابق الأرضي ، إلى غرفة عارية وسخة مزدحمة بأشياء قديمة مبعثرة ، فيها سرير من حديد من دون غطاء يستلقي عليه في تلك اللحظة رجل يلبس قميصاً وردي اللون يتدثر بمعطف من جوخ سميك ، حسبه فولوديا جندياً أول الأمر .

قال الخادم ، وهو يهزُّ النائم من كتفه :

ـ بيتر نيقولاييفيتش ! الملازم البحري سينام هنا ...

وأضاف الخادم مخاطباً فولوديا :

ـ هذا هو الطالب الضابط في سريتنا .

فقال فولوديا :

ـ لا تزعج نفسك ، أرجوك !

لكن الطالب الضابط ، وهو رجل مديد القامة متين البنية جميل الوجه وإن تكن ملامحه تدل على غباء ، نهض عن السرير ، ورمى المعطف على كتفيه ، وغمغم وهو يخرج من الغرفة نصف نائم :

ـ لا بأس . سأغفو في الفناء .

١٤

أول شيء اجتاح أفكار فولوديا بعدما بقي وحيداً هو شعور بخوف عميق من حالة الارتباك واليأس التي تردّى فيها . ودّ لو ينام فينسى ما يحيط به ، وينسى نفسه خاصة . نفخ على الشمعة ، وخلع معطفه ، واستلقى على السرير ، وجرّ المعطف فوق رأسه تهرُّبا من الخوف الذي يثيره الظلام في نفسه منذ أيام طفولته . واستولت على ذهنه فجأة فكرة أن قنبلة ستسقط الآونة على البيت مخترقة السقف ، وتقتله . أرهف أذنيه ، فلم يسمع خطوات آمر السرية الذي يمشي في الغرفة فوقه .

همس في نفسه : «إذا سقطت القنبلة فلسوف تقتل أولاً من هم موجودون في الطابق الأول ـ ولن تصل اليَّ إلا بعد ذلك» . هدّأت هذه الفكرة باله ، فهمّ أن يستسلم للنوم ، لكنَّ فكرة أخرى هاجمته .

قال في نفسه : «لنفرض أن الفرنسيين استولوا الليلة ، وفجأة ، على سيباستوبول وبلغوا هذا المنزل ؟ بماذا أدافع عن نفسي ؟» . نهض ، وجعل يراوح في الغرفة ويغادي . لقد طرد الخوف من خطر واقعي ذلك الخوف الغيبي من الظلام الذي سيطر على نفسه . ليس في الغرفة كلها شيء ضلب غير سرج وساور .

وعاود الهمس بينه وبين نفسه : «أنا جبان ـ جبان رعديد ، جبان حقير !» .
وتملكه شعور بالاشمئزاز من نفسه والاحتقار لها . فاستلقى مرة أخرى ، وحاول ألا يشغل باله بالتفكير . لكن انطباعات النهار انبثقت في فكرة وتحركت وازدادت نشاطاً بتأثير هدير القصف المتصل الذي يرجُّ زجاج النافذة الوحيدة في الغرفة رجاً قوياً ، وعاوده الشعور بالخطر . إنه يرى الآونة ، بعين خياله ، جرحى غارقين في دمائهم تارة ، وشظايا قذيفة تسقط في الغرفة تارة أخرى ... ثم يرى الراهبة الجميلة تضمِّد جراحه وتبكي عليه وهو يجود بآخر أنفاسه . وتراءى له وجه أمه معبراً عن تلك المعاني ذاتها التي يعبِّر عنها يوم ودَّعته في تلك المدينة الصغيرة بالريف بعدما سكبت عبرات سخية أمام أيقونة تصنع المعجزات ـ فبدا له أنه لن ينام . وجعل يفكِّر في الله ، القادر على كل شيء ، السامع لكل دعاء ... مثلت صورة الله في ذهنه أوضح ما تكون . فجثا راكعاً ، ورسم إشارة الصليب ، وضمَّ يديه للصلاة مثلما تعلَّم عندما كان طفلاً . فأغرقته هذه الحركة في جوٍّ تملؤه العذوبة والثقة ، جوٍّ كان نسيه منذ طويل زمن .

وشرع يفكِّر : «إن كان يجب أن أموت ، إن كان يجب أن أغيب عن هذا العالم يا الله ، فليحدث هذا في أقرب وقت ؛ أما إن كان يجب أن أبرهن عن شجاعة ورباطة جأش وصلابة لا أملكها ، فَهَبْ لي ذلك ! خلِّصني من العار والخزي ، فإنني لن أقوى على احتمالها . علِّمني ماذا يجب أن أفعل لتحقيق مشيئتك» .

ما أن انتهى فولوديا من هذا الدعاء حتى كانت نفس الطفل ، الخائفة الحبيسة في حدود ضيِّقة هي حدود الواقع المظلم ، تمتلىء على غير انتظار بضياء وشجاعة ، وتطلُّ بشعور الثقة الرجولية على آفاق جديدة ، فسيحة براقة . وقد زخرت خلال هذه اللحظات القصيرة التي استغرقتها تلك الحماسة السعيدة بطائفة أخرى كثيرة المعاني والعواطف ، فلم يلبث أن نام نوماً هادئاً رخياً ، بينما

قصف المدافع لا يزال يتردَّد وزجاج النوافذ لا يزال يهتزُّ .

أيها الرب العظيم ! وحدك سمعت وعرفت تلك الصلوات البسيطة الحارة اليائسة التي صعدت إليك في ذلك المكان الرهيب الذي يسيطر الموت عليه . وحدك تعرف تلك الصلوات التي نبعثها من أعمق أعماق الجهل والعذاب والندامة الغامضة . عرفتها من ذلك الجنرال الذي كان قبل لحظات يحلم بفدائه أو بصليب القديس جورج وساماً حول عنقه . وكان يشعر باقترابك هنيَّ البال . وعرفتها من ذلك الجندي الشقي المرهق الجائع المقمَّل الذي اضطجع على الأرض العارية في سرية نيقولاس متضرعاً إليك أن تمنحه الحياة الآخرة جزاء ما عانى من آلام رهيبة لا يستحقها .

١٥

صدف أن التقى كوزلتسوف بجندي من فوجه في الشارع ، فمشى معه إلى الحصن الخامس .

قال الجندي :

ـ التصق بالجدار ، يا صاحب السعادة !

ـ لماذا ؟

قال الجندي ، وهو ينصت إلى أزيز قذيفة مرت صافرة وسقطت بصخب أجوف على الأرض الصلبة في الطرف الآخر من الشارع :

ـ خطر ، يا صاحب السعادة ! إنها تمرق الآن فوق رؤوسنا .

لكن كوزلتسوف استمرَّ يتقدَّم وسط الطريق غير آبه بكلمات الجندي .

ههنا الشوارع ذاتها التي عرفها ، والانفجارات ذاتها ، والأصوات ذاتها ، والزمجرات التي يطلقها الجرحى ، وسرايا المدفعية ، والمتاريس ، والخنادق ، مثل

تلك التي لقيها في سيباستوبول في الربيع . ولكن مجمل الانطباع الذي يخرج به من ذلك كله هو أكثر حزناً ، وأشدُّ ضراوة . فثمة ثغرات أكثر في المباني ، وليس ثمة أضواء تنير النوافذ باستثناء مبنى كورتشين (وقد اتخذ مستشفى) ، وفي الشوارع ليس هنالك امرأة ، والمدينة لا تظهر بما كانت تظهر به قبل ذلك من قلة المبالاة ومن الاستمرار فيما ألفته من عادات حياتها الطبيعية ، فهي تبدو غارقة في انتظار ثقيل يمازجه تعب وقلق .

هذا هو الخندق الأخير ، وصوت جندي من فوج ب ... تعرَّف عليه آمر سريته السابق ، وأخيراً هذه هي الكتيبة الثالثة محتشدة في الظلام مستندة إلى الجدار ، لا يتعرف عليها المرء إلا بواسطة البروق الخاطفة بين حين وحين الصادرة عن التراشق بالمدافع ، وبالضوضاء المتجمِّعة فيها أصوات وقعقعات بنادق في بهمة الليل .

سأل كوزلتسوف :

ـ أين آمر الفوج ؟

فأسرع جندي لطيف يجيبه قائلاً :

ـ في المبنى المصفَّح ، عند البحارة ، يا صاحب السعادة . دعني أدلك على الطريق .

وقاده الجندي ، فراحا يقطعان خندقاً بعد خندق ، حتى بلغا حفرة يجلس فيها بحَّار يدخن غليونه ، ووراءه باب يخرج منه شعاع من ضوء .

ـ هل أستطيع الدخول ؟

فقال البحَّار ، وهو يغيب وراء الباب :

ـ سأبلِّغ عن حضورك فوراً .

وكان يدفُّ من الغرفة صوت حديث بين رجلين .

قال أحد الصوتين :

ـ إذا استمرَّت بروسيا على حيادها ، فلن تتحرك النمسا .
وقال الصوت الثاني :
ـ ما شأن النمسا إذا كانتِ البلاد السلافية ... طيب ؛ فليدخل !
لم يسبق لكوزلتسوف أن دخل من قبل هذا المبنى المصفح الذي أدهشته أناقة ترتيبه . فالأرض مبلطة بالباركيه ، وهنالك حاجز يحجب الباب ، وقد ألصق سريران بالجدران ، وفي زاوية الغرفة أيقونة كبيرة ـ أم الآلة ـ مغطاة بإطار من ذهب ، وأمامها يشتعل مصباح وردي اللون . وكان ينام على أحد السريرين بحّار يرتدي كامل ثيابه ، وعلى السرير الآخر ، أمام مائدة موضوع عليها زجاجتا خمرة مفتوحتان ، يجلس المتحادثان ، آمر الفوج الجديد ومرافقه . ورغم أن كوزلتسوف لم يكن جباناً ولا هو يحسُّ أنه مذنب في شيء ، لا تجاه الحكومة ولا تجاه آمر الفوج ، فقد شعر مع ذلك بشيء من الرهبة حين رأى هذا الكولونيل الذي كان رفيقه منذ زمن قصير جداً . ونهض الكولونيل بكبرياء ، وأصغى إليه في ترفُّع شديد .
كما أن المرافق الذي ظلَّ جالساً أدخل الاضطراب إلى نفسه حينما ألقى عليه نظرة كأنها تقول : «لست هنا إلا بصفتي صديقاً لرئيس فوجك . أنت لم تأت لتقدِّم نفسك إليَّ . فلا أتوقع منك ولا أرغب في أن تبدي لي أي مظهر من مظاهر الاحترام» .
قال كوزلتسوف يخاطب نفسه ، وهو ينظر إلى رئيسه : «يا للغرابة ! إنه لم يتولَّ قيادة الفوج إلا منذ أقل من سبعة أسابيع ، ومع ذلك فإن ما يحيط به ـ ملابسه ونظراته وأسلوبه ـ تشعُّ منذ الآن بمعاني الشعور بالسلطة والتفوُّق الذي لا يقوم على أساس فارق السن أو القدم أو الكفاءة ، بمقدار ما يقوم على أساس الثروة . منذ مدة غير بعيدة كان باتريتشيف هذا نفسه يتسلى معنا ويلهو ، ويبقى طوال أسابيع دون أن يرتدي غير ذلك القميص القاتم ذاته ، المصنوع

من نسيج قطني ، ولا يأكل في بيته إلا ذينك الطبقين الأبديين : كبب اللحم وأقراص الجبنة . ولم يكن يدعو أحداً لمشاركته الطعام . وهذا هو الآن يرفل في قميص ناعم من أفضل أنواع الجوخ . وبين أصابعه سيجار ثمنه عشرة روبلات . والخمرة على المائدة يزيد ثمنها عن ستة روبلات ـ ذلك كله دفع أثمانه مبالغ طائلة مكلفاً المحاسب أن يشتريه له من سمفيروبول . ما أعجب هذا التعبير عن الزهو المبتكر في عينيه ، زهو أرستقراطي تكاد هيئته تتكلم فتقول لك : «رغم أنني رفيقك ، لأنني رئيس فوج من المدرسة الجديدة ، فلا تنسَ أن راتبك لا يعدو أن يكون ستين روبلاً فحسب ، أما أنا فبين يديَّ عشرات ألوف الروبلات . صدق أنني لا أجهل أنك مستعد لأن تهب نصف حياتك في سبيل أن تحتل مكاني !» .

قال الكولونيل ، وهو يطيل النظر إلى كوزلتسوف ببرود :

ـ يبدو لي أنك بقيت قيد المعالجة مدة طويلة .

ـ كنت مريضاً ، يا سيدي الكولونيل . وحتى الآن لم يندمل جرحي .

قال الكولونيل ، وهو يلقي على جسم الضابط الضخم نظرة تحمل معنى الشك :

ـ لم يكن ثمة ضرورة لعودتك إذن . هل أنت قادر على النهوض بأعباء الخدمة ؟

ـ من دون ريب ، يا سيدي .

يسعدني أن أسمع هذا منك . ستتسلَّم من الليوتنان زايتسيف قيادة السرية التاسعة التي كنتَ آمراً لها من قبل . وستصلك أوامري على الفور .

ـ كما تشاء ، يا سيدي .

ـ أرجوك أن تبعث المرافق في قيادة الفوج حين خروجك .

وختم الكولونيل حديثه بانحناءة خفيفة تدلُّ على أن المقابلة انتهت .

حين خرج كوزلتسوف من الملجأ همهم بينه وبين نفسه بضع كلمات مبهمة ، وهزَّ كتفيه كمن يشعر بألم أو يحسُّ بضيق أو استياء ـ لقد كان مستاء ، لا من رئيس الفوج لكن من نفسه ومن كل ما يحيط به .

١٦

قبل أن يمضي للحاق برفاقه الضباط ذهب كوزلتسوف إلى سريته يعيد صلته بها ، ويتعرَّف على المكان الذي ترابط فيه . إن المتاريس المكوَّنة من قفف ، والخنادق التي لها أشكالها الخاصة ، والمدافع التي مرَّ بها ، والشنظايا وحطام القذائف التي تعثر بها في طريقه ، هذه المناظر والأشياء كلها التي تضيئها نيران القصف مألوفة لديه . فقد نقشت ذكراها عميقاً في نفسه قبل أشهر ثلاثة ، خلال أسبوعين قضاهما في الحصن لا يبرحه . وعلى الرغم من أن تفاصيل كثيرة رهيبة كانت مختلطة بهذه الذكريات ، فقد كانت تشعُّ منها فتنة خاصة بالماضي ، فكان سعيداً برؤية هذه الأماكن والأشياء التي يعرفها حتى بدت له الأيام الخمسة عشر التي قضاها في الحصن ممتعة . وكانت السرية ترابط في ناحية من السور تقابل الحصن السادس .

ولج كوزلتسوف ممشى طويلاً مصفحاً ، مفتوحاً تماماً من ناحية المدخل ، حيث قيل له إنه سيجد السرية التاسعة . لم يكن يعرف أين يضع قدميه في هذا الدهليز من شدة ازدحامه بالجنود . رأى في آخر الممشى ضوء شمعة من شحم تمسكها يد جندي مضطجع على الأرض ، وجندياً آخر يُقرِّب من الشمعة كتاباً يقرأ فيه متهجياً ، وعدة رؤوس مرفوعة تُلمح واضحة في هذا الضوء الذي يشبه أن يكون ظلاماً ، وقد مالت ترهف سمعها إلى القارىء . وكان الكتاب

«مبادىء القراءة» . وسمع كوزلتسوف هذه الجملة حينما دخل الملجأ :

ـ الصـ..ـلا..ة بعـ..ـد الدر..س . نشكرك ، يا خالقنا ...

وصاح صوت يقول :

ـ قصَّ رأس الشمعة . هذا كتاب عظيم !

وتابع القارىء : «الله ... هو ...»

فلما سأل كوزلتسوف عن السرجان ميجور سكت القارىء ، وتحرّك الجنود ، وشرع بعضهم يسعل وبعضهم يتمخَّط ، كما يحدث عامة بعد صمت طويل قسر المرء نفسه عليه قسراً . وخرج السرجان ميجور ، وهو يزرِّر معطفه ، من بين المتحلِّقين حول القارىء ، وراح يتخطى بساقيه الجنود المضطجعين ، ويدوس على أقدام أولئك الذين لم يجدوا لها مكاناً يضعونها فيه . وأقبل على الضابط .

ـ عمت مساء ، يا صديقي . أهذه هي السرية كلها ؟

ـ تحية ، يا صاحب السعادة . مرحباً بعودتك ، يا صاحب السعادة . أشفيت إذن ، يا صاحب السعادة ؟ الحمد لله على تحسُّن صحتك . فقد افتقدناك .

أجاب السرجان ميجور ، وهو ينظر إلى كوزلتسوف معبراً بوجهه عن فرح وودّ .

كان واضحاً أن كوزلتسوف محبوب بين أفراد السرية .

وسُمعت في نهاية الملجأ صيحات تقول : «عاد آمر سريتنا القديم» ، «ذلك الذي جُرح» ، «كوزلتسوف» ، «ميخائيل سيميونوفيتش» .

اقترب منه عدد من الرجال ، كما اقترب ضارب الطبل يحييه .

قال كوزلتسوف :

ـ كيف حالك ، يا أوبانتشوك ؟ أسليم معافىً ؟

وعاود يقول ، وقد رفع صوته هذه المرة :

ـ مساء طيباً ، يا رفاقي !

فأجابه الجنود مرة واحدة في ضوضاء شديدة :

ـ صحة طيبة ، يا صاحب السعادة !

ـ كيف حالكم ، يا رفاقي ؟

ـ سيئة ، يا صاحب السعادة ! الفرنسيون يتفوقون علينا . إنهم يرمون من وراء خنادقهم . لكنهم لا يظهرون أنفسهم أبداً .

أجاب كوزلتسوف :

ـ قد يواتيني الحظ فأراهم يخرجون من مخابئهم ، يا أولادي . ولن تكون هذه أول مرة ... أواجههم فيها معكم . لسوف نضربهم .

قال عدد من الأصوات :

ـ سنبذل جهدنا ، يا صاحب السعادة .

قال ضارب الطبل يخاطب جندياً آخر بصوت خافت لكن مسموع وكأنه يودُّ أن يسوِّغ في نظره الكلمات التي قالها قائد السرية ، وأن يقنعه أنها لا تشتمل من جهته على تبجُّح أو مبالغة :

ـ لكم هو شجاع حقاً !

وترك كوزلتسوف رجاله ، واتجه إلى ثكنات الدفاع يلحق برفاقه الضباط .

١٧

كانت الصالة الكبرى في الثكنة مزدحمة بجمهور كبير من ضباط البحرية والمدفعية والمشاة . بعضهم نائمون ، وبعضهم يتحدثون جالسين على صندوق أو عربة مدفع ، وجماعة ثالثة ، الأكبر عدداً والأشد صخباً ، اقتعدت الأرض على معطفين قوزاقيين وراء القنطرة تشرب البورتر وتلعب بالورق .

حينما دخل كوزلتسوف تعالت الهتافات من كل ناحية :

ـ هيه ! كوزلتسوف ! كوزلتسوف ! ... رجعتَ إذن ! مرحى ! كيف حال جرحك ؟

هنا أيضاً كان كوزلتسوف محبوباً ابتهج الناس بعودته .

بعدما صافح كوزلتسوف أولئك الذين يعرفهم انضمَّ إلى جماعة اللاعبين الصاخبة التي كان عدد رفاقه أكبر بينها . ثمة ضابط أسمر ، نحيل ، حلو الملامح ، أنفه طويل بارز العظام ، وشارباه كبيران يبتعدان عن الوجنتين ، يُفرِّق «البنك» بأصابعه الأنيقة الشاحبة التي تزدان إحداها بخاتم كبير من ذهب نقشت عليه شارات النبلاء ، ويرمي الأوراق بحركات خرقاء متعجلة تدل بوضوح على قلقه ، في حين كان يحاول إخفاء اضطراب أعصابه تحت ستار من قلة الاكتراث . يتمدَّد عن يمينه ميجر أشيب الشعر سكران متكىء على مرفقيه يزيد عليه في كل دورة نصف روبل يدفعه على الفور مصطنعاً اللامبالاة ، وعن يساره يقعي ضابط قصير احمارَّ وجهه من فرط التعـرُّق ، يرغـم نفسه على الابتسام إرغاماً ، يخرج حين يكشف أوراقه ، ويحرِّك يده في جيـب بنطالـه الخالي . كان يقامر بمبالغ كبيرة ، ولكنه لا يدفع فوراً ، الأمر الـذي يغيـظ الضابط الجميل الأسمر . وكان ضابط أصلع نحيل شاحب ، متسـع الفـم ، حليق الشاربين ، ينمُّ وجهه عن خبث وشر ، يذرع الغرفة وفي يده كدسة من أوراق مالية ، ويقامر بمبالغ يضعها نقداً في منافسة صاحب «البنك» ، ويربح كل مرة . وشرب كوزلتسوف كأس فودكا ، وجلس قريباً من اللاعبين .

قال له صاحب «البنك» :

ـ إلعب ، يا ميخائيل سيميونوفيتش . لا بدَّ أنك جئت بمال كثير .

ـ من أين أجيء بالمال ؟ بالعكس : لقد أنفقت في المدينة آخر ما كنت أملك !

ـ دعك من هذا الكلام ! ... لا بدَّ أنك نهبت أحدهم نهباً في سمفيروبول !
قال كوزلتسوف ، وهو يرجو ألا يصدقوه :
ـ أؤكد لكم أنني لا أحمل إلا قليلاً من مال .
حلَّ أزرار بزته ، وأخذ بضع ورقات قديمة ، وقال :
ـ حسناً . لنقل إنني أودُّ أن أجرِّب حظي ! من يعرف ماذا يمكن أن يقدم الشيطان للمرء من خدمات ! ربَّ بعوضة ، كما تعلمون ، تصنع المعجزات ! ولكن ، لا بدَّ لي من كأس أولاً حتى تشتدّ عزيمتي !
بعد وقت قصير كان قد أفرغ ثلاثة أقداح أخرى من الفودكا ، وبعض كؤوس من البورتر ، وخسر روبلاته الثلاثة الأخيرة .
في أثناء ذلك كان المبلغ الذي سُجِّل على الضابط المتورد الوجنتين قد صار مائة وخمسين روبلاً .
قال ، وهو يهيىء ورقة جديدة بإهمال مصطنع :
ـ كلا ، الحظُّ ينفر مني .
فقال صاحب «البنك» وقد توقف عن التوزيع وراح يحدق في وجهه :
ـ هلاّ تفضلت فدفعت نقوداً ؟
فأجابه الضابط المتعرِّق ، وهو ينهض ويحرك يده في جيبه الخالية ثائر الأعصاب :
ـ إسمح لي أن أدفع غداً .
فقال صاحب «البنك» مزمجراً ، وهو ينهي رمي الأوراق يسرة ويمنة بحركات غاضبة :
ـ لايمكن اللعب بهذه الطريقة .
وتوقف عن التوزيع ، قائلاً :
ـ إنني أقطع اللعب . هذا أمر غير مقبول .

وأضاف قائلاً :

ـ يا زاخار إيفانيتش ، نحن نقامر هنا نقداً ، لا على وعود بالدفع .

ـ ماذا ؟ ألا تثق فيَّ ؟ هذا غريب حقاً !

وتدخل الميجور فقال ، وقد أخذ منه السكر :

ـ من سيدفع لي ؟ لقد دفعت من جهتي عشرين روبلاً . وحين أربح لا أقبض شيئاً .

وكان الميجور قد ربح ثمانية روبلات فعلاً .

قال صاحب «البنك» :

ـ من أين أدفع لك وليس على الطاولة شيء من مال ؟

فصاح الميجور ، وهو ينهض :

ـ هذا ليس من شأني . أنا ألعب معكم ، مع أناس شرفاء ، لا مع هذا السيد !

واحتدم الضابط المتعرِّق بدوره ، فشرع يقول :

ـ سأدفع غداً ، أقول لك . فكيف تجرؤ على إهانتي ؟

صاح الميجور :

ـ أقول ما يحلو لي أن أقول ! الشرفاء من الناس لا يتصرفون على هذا الغرار . أفهمت ؟

فقال عدد من الضباط في آن واحد ، محاولين صدَّ الميجور :

ـ هذا يكفي ، يا فيدور فيدوروفيتش .

ينبغي أن نعجّل فنسدل الستار على هذا المشهد غداً أو في هذا اليوم . سيمضي كل رجل من هؤلاء الرجال إلى لقاء الموت فرحاً فخوراً ، وسيعرف كيف يموت هادىء النفس ثابت الجنان . ولكن العزاء الوحيد الذي يتاح لهم في حياة يفوق هولها كل ما يمكن أن يتصوَّره الخيال ، والملاذ الوحيد الذي يمكن أن

يلجؤوا إليه في حياة ليس فيها عنصر إنساني أو أمل في الإفلات منها إنما هو النسيان وإلغاء الشعور بالواقع إلغاء كاملاً . كل واحد منهم تلتهب في نفسه شرارة مقدسة ستجعل منه بطلاً عندما يحين الأوان . وإذا كانت هذه الشرارة سيشحب بريقها مع الزمن ، فإن لهيباً سيخرج منها متى دقَّت الساعة المحتومة ، فيضيء بنوره أعمالاً عظيمة .

١٨

استمرَّ قصف المدافع شديداً في الغداة مثله قبلاً . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من الصباح كان فولوديا جالساً بين ضباط سريته الذين بدأ يعتاد عليهم ، يتفرَّس في الوجوه الجديدة ، ويلاحظ ، ويسأل ، ويتكلم . فالأحاديث التي تدور بين الضباط ، وهي أحاديث بسيطة رغم ما تحتويه من بعض ادعاء علمي ، تقع من نفسه موقع الرضى والاحترام . واستطاع فولوديا من جهته ، بما يتصف به من مزايا الخجل والبراءة ورقة الصبا ، أن يشدَّ إليه مودة الضباط . وكان أقدم ضابط له رتبة في السرية ، وهو كابتين قصير القامة ، أحمر الشعر ، له ذؤابة وخصل ملساء على الصدغين ، رجلاً نشأ على التقاليد القديمة في سلاح المدفعية : هو فارس يخدم السيدات ، وعالم مدَّعٍ في فنون الرمي ، راح يسأل فولوديا عن معلوماته في شؤون المدفعية ، والمبتكرات الحديثة ، ويمازحه ممازحة الصديق عن شبابه الغض ووجهه الحلو ، ويعامله ، إجمالاً ، معاملة الأب لابنه ـ وكان هذا يبعث الغبطة في جوانح فولوديا . وكان الليوتنان ديادنكو ، وهو ضابط شاب أشعث الشعر يرتدي معطفاً ممزقاً وتبدو في لغته لكنة أوكرانية ، كان يتكلم بنبرة عالية ، ويلوِّح بيديه بإشارات قوية ، ويلوح كمن يترقب أن تسنح

له الفرصة ليتشاجر مع إنسان آخر مشاجرة مسموحة . وكان فولوديا يستلطفه ويحبُّه ، فقد كان يتصوَّر وراء مظهره الفظ شهامة رجل قلبه كبير . وكان ديادنكو ينبري لخدمة فولوديا على الدوام ، ويحاول أن يبرهن له على أن سيباستوبول كلها لا يوجد فيها مدفع واحد صالح للرمي .

أما الليوتنان تشرنوفتسكي ، وهو رجل مقوَّس الحاجبين ، يرتدي بزة نظيفة وإن كانت عتيقة مرقعة ، ويبرز على صديريته المصنوعة من قماش الساتان سلسلة ذهبية ، فهو يروق في عيني فولوديا رغم أن تصرفاته أكثر تهذيباً من تصرفات الضباط الآخرين . كان هذا الليوتنان لا يني يستوضح فولوديا عن القيصر ووزير الحرب ، وعن أفعالهما وحركاتهما ، ويحدثه بحماسة مصطنعة عن أعمال البطولة التي يبديها المدافعون عن سيباستوبول ، ويبدي أسفه الشديد لضآلة الوطنية عند غيرهم ، وينتقد قرارات السلطات ويصفها أنها خالية من حصافة الرأي . والخلاصة أنه كان يعرض كنوزاً من العلم والذكاء والعواطف السامية ، وكان فولوديا يحسُّ ـ دون أن يدرك لماذا ـ أن ذلك كله ليس صادراً عن طبيعة ، بل هو موقف مدروس مصطنع . وقد لاحظ أن الضباط الآخرين يتحاشون الكلام مع تشرنوفتسكي . وكان بين الضباط ذلك الطالب الضابط فلانج الذي أيقظه فولوديا في الليلة الماضية ، ولكنه لم يكن يتكلم ، بل انتحى زاوية في تواضع ، يضحك عندما يقال شيء يبعث على الضحك ، ويتذكر ما ينساه الآخرون ، ويطلب فودكا ويلف سجائر لجميع الضباط . وقد أغرم فلانج (الذي يؤنثون اسمه وينادونه فلانجا) بآداب فولوديا المتصنعة المفعمة بالاحترام لأن فولوديا كان يعامله معاملة ضابط من الضباط ، ولا يتعالى عليه ، فكان الفتى معجباً بذلك ، ومفتناً بمظهر فولوديا الجميل بحيث لا يحوِّل عينيه الواسعتين الطيبتين ، لكن الغبيتين قليلاً ، عن طلعة الملازم البحري الجديد ، حتى أنه كان يخمِّن أيسر رغباته ، ويبدي نحوه إعجاباً عامراً بحماسة وحب .

وانتبه الضباط لهذا الموقف ، فراحوا يستغلونه ويتندرون عليه .

وقبيل العشاء كان الكابتين المساعد كراوت قد أنهى عمله في الحصن فجاء ينضمُّ إلى جماعة الضباط . وكراوت رجل جميل أشقر ، وضابط يقظ دائم التأهب ، له شاربان كبيران وعارضان أحمران . وهو يجيد التكلم باللغة الروسية إجادة تامة ، لكن لغته الروسية أصحّ من أن تكون لغة رجل روسي . وهذه الصفة التي تتميز بها لغته تتميز بها حياته ويتميز بها عمله أيضاً : إنه ضابط مرموق ، ورفيق ممتاز ، وإنسان قدير في شؤون المال . لكن هنالك شيئاً يعوزه من حيث هو رجل ، ربما لأنه كان كاملاً في كل شيء . كان يختلف ، كسائر ألمان روسيا ، عن ألمان المانيا المثاليين في أنه كان رجلاً عملياً .

هتف الكابتين يقول حين دخل كراوت الصالة ملوِّحاً يديه في فرح ، وهو يرنُّ بمهازيه :

ـ هوذا قد جاء ، بطلنا ! ماذا تشرب ، يا فريديريك كرستيانتش ؟ شاياً أم فودكا ؟

فأجاب كراوت :

ـ طلبتُ قليلاً من الشاي ، ولكن قليلاً من الفودكا لا بدَّ أن يحسن إليَّ فأُعدِّل دماغي .

وأضاف يقول مخاطباً فولوديا الذي هبَّ يحييه :

ـ سعيد جداً بمعرفتك . آمل أن نكون على وفاق . يشرفني أن أقدم نفسي : الكابتين المساعد كراوت ... عرفت من حرَّاق الحصن أنك وصلت مساء أمس .

ـ أشكر لك كثيراً أنني قضيت الليل على سريرك .

ـ أكنت مرتاحاً عليه ؟ إن إحدى قوائمه مكسورة ، ولا يتسع الوقت لأحد لإصلاح شيء في زمن الحصار الذي نحن فيه . فلا بدَّ من تركيز قائمة السرير في كل مرة .

سأله ديادنكو :
ـ حسناً . هل كانت الأحوال حسنة أثناء نوبة خدمتك ؟
ـ أوه ، لم تكن سيئة جداً . لكن سكفورتسوف أصيب ، وركيزة المدفع أصابها ضرب ـ وجانب الكابح هُشِّمَ تهشيماً .
قال هذا ونهض فجأة يتمشى . واضح أنه كان في الحالة النفسية التي يكون فيها رجل نجى من خطر .
استأنف كلامه فقال يخاطب الكابتين ، وهو يهزُّه من ركبته :
ـ حسناً ، ديميتري جافريليتش . كيف حالك ، يا عزيزي ؟ ما أخبار ترقيتك ؟ لا أخبار بعد ؟
ـ لا ! لا أخبار حتى الآن .
وتدخل ديادنكو ، فقال :
ـ لن تنال ترقية . قلت لك ذلك من قبل .
ـ ولم لا ؟
ـ لأنك لم تحسن تدبيج تقريرك .
قال كراوت ، وهو يبتسم ابتسامة مرحة :
ـ يا لك من مناكد أبدي ! مناكد ! أوكراني عنيد ! لسوف ترقى الى رتبة ليوتنان عقاباً لك . سترى .
ـ لا ، لن أرقى .
وقال كراوت منادياً الطالب الضابط :
ـ فلانج ، جئني بغليوني واملأه .
فأسرع فلانج ينفذ الطلب راضياً .
أشرق كراوت ابتساماتهم جميعاً : حدثهم عن قصف المدافع ، وسألهم عما جرى أثناء غيابه ، وخاطب كل واحد منهم على حدة .

١٩

سأل كراوت فولوديا :

ـ حسناً . هل ألفت طراز الحياة معنا ؟ اعذرني . ما هو اسمك واسم أبيك ؟ أنت تعرف أن هذه عادتنا في المدفعية ... هل حصلت على حصان ؟

أجاب فولوديا :

ـ لا . لست أعرف ماذا أفعل . كنت أشرح للكابتين ... أنني لا أملك حصاناً ، أو مالاً ، قبل أن أقبض راتبي ونفقات الطريق . وخطر لي في هذه الأثناء أن أسأل آمر السرية أن يعيرني حصاناً ، لكنني أخشى أن يرفض ...

ـ ترجو أبولون سرجييفيتش ...

وصفّق كراوت بشفتيه معبراً عن شكه القوي في نجاح هذا المسعى . وأضاف وقد ألقى نظرة على الكابتين :

ـ ذلك صعب جداً .

فقال الكابتين :

ـ حسناً . إذا رفض فلن يؤذي رفضه أحداً . بيني وبينك ، فالمرء ليس في حاجة ماسة إلى حصان ههنا . ولكن ليس ما يمنع من المحاولة . اسأله اليوم .

وتدخل ديادنكو قائلاً :

ـ أنتم لا تعرفونه . فهو يمكن أن يرفض أي شيء ، لكنه لن يرفض هذا الطلب ... أتراهن ؟

ـ أووه ! نعرف أنك تحب المعارضة دائماً !

ـ أعارض لأنني أعرف . قد يبخل آمر سريتنا بكل شيء ، ولكنه سيعطي حصاناً لأنه لا يجد فيه منفعة له .

قال كراوت :

ـ لا يجد فيه منفعة لأن ثمن الشوفان ثمانية روبلات للحصان الواحد ! منفعته هي ألا يطعم حصاناً في غير منفعة .

قال فلانج ، وقد عاد حاملاً الغليون لكراوت :

ـ قل له أن يعطيك الحصان سكفورتيس ، يا فلاديمير سيميونوفيتش ، فهو حصان جيد .

فسأله الكابتين المساعد :

ـ أهو الحصان الذي وقعت معه في حفرة بسوروكي ، يا فلانجا ؟

واستتلى ديادنكو الكلام راغباً في المشاجرة ، فقال :

ـ ما أهمية أن يكون ثمن الشوفان ثمانية روبلات ؟ في حين يسجلون أن ثمن الشوفان عشرة روبلات ونصف للحصان الواحد ؟ من هنا تأتي المنفعة .

ـ طبيعي أنك لا تتوقع منه ألا يجني شيئاً من عمله . حين تصبح آمراً للسرية فلن تسمح لأحد منا بركوب حصان ولو إلى المدينة .

ـ حين أصبح أنا آمراً للسرية سيكون لكل حصان ثمانية مكاييل من الشوفان كل يوم ، ولن أقتطع من ثمن الشوفان لنفسي شيئاً تقتيراً على الخيل .

قال الكابتين المساعد :

ـ من يعش يرَ . لسوف تتصرف مثله تماماً ...

وأشار إلى فولوديا ، وقال :

ـ كما أنه سيتصرف التصرُّف نفسه .

وقال تشيرنوفيتسكي مخاطباً كراوت :

ـ لماذا تتصور أن هذا السيد يريد أن يجني منفعة . قد تكون له موارده الخاصة . فما حاجته عندئذ إلى الانتفاع ؟

فقال فولوديا ، وقد احمارَّ وجهه وأذناه :

ـ أوه ، كلا ، فأنا ... أرى أن هذا الأمر معيب .

قال كراوت :

ـ يا إلهي ! يا له من مبتدىء غرٍّ !

ـ قصدت أن أقول إن المال إن لم يكن مالي فلا يحقُّ لي أن أضعه في جيبي .

فاستأنف الكابتين المساعد يتكلم بلهجة فيها مزيد من الجد :

ـ سأشرح لك الأمور ، أيها الشاب . أتعرف أنك حين تصبح آمراً للسرية ينبغي أن تحسن تصريف الأمور ، وهذا يكفي . آمر السرية لا علاقة له بطعام الجنود . على هذا جرت العادة في سلاح المدفعية دائماً . أما إذا لم تحسن تصريف الأمور فلن يبقى لك شيء البتة ! ذلك أنك ستكون مرغماً على أن تدفع من جيبك ، دون أن يكون لهذه النفقات اعتمادات في الميزانية . أولاً (وهنا ثنى إحدى أصابعه) تكاليف إنعال الخيل ، وثانياً (وثنى إصبعاً أخرى) أثمان الأدوية ، وثالثاً نفقات المكتب ـ وعدا ذلك فالحصان الجيد يكلف خمسمائة روبل ، يا صديقي العزيز ، وهذا رابعاً . وينبغي عليك ، فوق ذلك ، دون أن يكون ثمة اعتمادات خاصة ، أن تغير ياقات معاطف الجنود . كما أن نفقات الفحم للسماورات أكثر من المبالغ المرصودة لها . وعليك أن تكون مائدة جاهزة لضباطك . والمفروض فيك ، باعتبارك آمر سرية ، أن تراعي في معيشتك مستوى معيناً ، فتكون لك عربة ، ويكون لك فراء ، ويكون لك كيت وكيت مما لا حصر له ...

وهنا قاطعه الكابتين الذي ظلَّ صامتاً إلى ذلك الحين :

ـ فكر خاصة ، يا فلاديمير سيميونوفيتش ، فيما يلي : أنظر إلى رجل مثلي خدم في الجيش عشرين سنة براتب قدره مائتا روبل ، ثم زيد إلى ثلاثمائة . وكان طوال الوقت في فاقة . فهل يراد له فوق ذلك أن يُحرم من إمكانية ادخار

شيء من مال لأيام شيخوخته بعد خدماته كلها ؟

قال الكابتين المساعد :

ـ صحيح ! كلام سليم ! لا تتعجَّل في إصدار حكم ، بل عش واخدم .

شعر فولوديا بخجل رهيب من أنه تكلَّم بغير روية وتفكير . وتمتم بضع كلمات مبهمة ، ثم أصغى صامتاً . بينما استأنف ديادنكو شجاراً آخر ، محاولاً أن يبرهن باندفاع شديد ضار على نقيض ما قيل . وقطع المناقشة وصول خادم الكولونيل معلناً أن الغداء أُعدَّ .

قال تشرنوفيتسكي مخاطباً الكابتين ، وهو يزرِّر سترته :

ـ عليك أن ترجو أبولون سرجييفيتش أن يأمر لنا اليوم بخمرة . ما فائدة بخله ؟ إذا قُتلنا فلن ينتفع بالخمرة أحد .

ـ اطلب منه أنت .

ـ أوه ، لا . فأنت كبيرنا سناً ، ويجب التزام النظام في كل شيء .

٢٠

في الصالة التي قدَّم فيها فولوديا نفسه إلى الكولونيل ليلةِ البارحة كانت المائدة قد أبعدت عن الجدار وفرشت بغطاء وسخ . واليوم صافح آمر السرية يد الملازم البحري واستفسره عن أنباء بطرسبورج ، وعن رحلته . وأضاف بعد لحظة مبتسماً :

ـ حسناً ، يا سادة . من يرغب في الفودكا ؟ أرجو أن تخدموا أنفسكم أنفسكم .. أما الملازمون فلا يشربون .

لا يبدونَّ آمر السرية الآن قاسياً خشناً مثله في الليلة السابقة . بل على

العكس يبدو الآن مضيفاً لطيفاً يبشُّ لضيوفه ، ويعاملهم معاملة الرفيق الأكبر سناً . ورغم موقفه هذا فقد كان جميع الضباط ، من الكابتين الذي هو أعلاهم رتبة إلى الليوتنان ديادنكو ، يظهرون له ، سواء بلهجة حديثهم أو شخوص أبصارهم إليه ، أو خجلهم في التقدم من المائدة لملء كؤوسهم من الفودكا واحداً بعد الآخر ، احتراماً عميقاً يوقظه في نفوسهم .

وكان الغداء مؤلفاً من لحم محشو على الطريقة البولونية مع خردل ، وفطائر عجنت بزبدة ليست طازجة ، وحساء بالكرنب وضع في قدر تسبح فيه قطع من لحم مدهن مع مقادير كبيرة من الفلفل وأوراق الغار . ولم يكن ثمة فوط ، والملاعق من قصدير أو خشب . وليس على المائدة غير كأسين اثنين ، وماء موضوع في زجاجة محطمة العنق . ولكن الوجبة لم تكن مضجرة ، والحديث لم ينضب له معين . جرى الكلام أولاً عن معركة إنكرمان التي شاركت السرية فيها ، فذكر كل واحد منهم انطباعاته وشرح آراءه في أسباب تراجعنا ، عامداً إلى الصمت حينما يتدخل آمر السرية في المناقشة . وانتقل الحديث بعد ذلك بطبيعة الحال إلى الشكوى من عدم كفاية عيار المدافع الخفيفة . ومن ثم انتقلوا إلى الكلام عن الطراز الأخير من مدافع الميدان ، مما أتاح لفولوديا أن يظهر علمه من حيث أنه ضابط مدفعية . لكن أحداً لم يفه بكلمة واحدة عن حرج الموقف في سيباستوبول الآن ، فكأن كلاً منهم يفكر في هذا الأمر تفكيراً يبلغ من الكثرة والشدة درجة أنه لا يحسُّ رغبة في التحدث عنه . وقد شده فولوديا كثيراً ، وخاب ظنه كثيراً حين لم يتعرَّض أحد لواجبات الخدمة الواقعة على عاتقه ، فكأنه لم يجيء إلى سيباستوبول إلا ليتناول طعام الغداء عند كولونيل السرية والكلام عن طراز المدفع الجديد . وانفجرت قذيفة أثناء الطعام في مكان غير بعيد عن المنزل ، فاهتزت الأرض والجدران كأنما هزَّها زلزال ، وغبش البارود زجاج النافذة .

قال آمر السرية :

ـ أنت لا تشاهد مثل هذه الأشياء في بطرسبورج على ما يخال لي . أما هنا فالمفاجآت من هذا النوع كثيرة . إذهب ، يا فلانج ، فانظر أين انفجرت القذيفة .

خرج فلانج ، وأعلن حين عودته أنها سقطت في الساحة ، ثم لم يأت أحد على ذكرها بعد ذلك .

وقبل أن تنتهي الوجبة دخل شيخ قصير هو موظف في مكتب السرية إلى الصالة حاملاً ثلاثة مغلفات مختومة سلمها إلى القائد ، قائلاً :

ـ هذه رسالة هامة جداً ، جاء بها قوزاقي موفد من رئيس المدفعية .

شخصت جميع الأبصار في قلق إلى أصابع آمر السرية الذي شرع يفضُّ مظروف الرسالة الهامة بمرونة وحذق ، ويخرج الرسالة التي يضمها ، وكل واحد يتساءل : «ماذا تراه فيها ؟» قد يكون أمراً بإجراء تبديل وعودة إلى سيباستوبول للراحة والاستجمام ، أو قد يكون أمراً بإرسال السرية كلها إلى التحصينات .

هتف القائد يقول ، وهو يرمي الرسالة على المائدة فجأة :

ـ مرة أخرى !

فسأله الضابط الأعلى رتبة :

ـ ما الأمر ، يا أبولون سرجييفيتش ؟

ـ يأمرون أن أرسل إلى إحدى سرايا الهاون ضابطاً وسدنة ... وليس عندي هنا إلا أربعة ضباط ، والسدنة عددهم ناقص ...

دمدم آمر السرية في تذمر ، وتابع يقول بعد لحظة من صمت :

ـ وهؤلاء هم يأخذون مزيداً منهم ... مهما يكن من أمر ، أيها السادة ، فلا بدَّ أن يذهب أحدهم . الأمر يقضي أن يكون الضابط والسدنة في المراكز

الأمامية في الساعة السابعة . جيئوني بالسرجان ميجور ! حسناً ، من يذهب منكم ؟ قرروا ، أيها السادة .

قال تشرنوفيتسكي مشيراً إلى فولوديا :

ـ هذا هو رجلك ـ فهو لم يذهب إلى القتال مرة واحدة بعد .

فما أعطاه آمر السرية جواباً .

قال فولوديا ، وقد أحسَّ بعرق بارد في ظهره وعنقه :

ـ بلى ، يسعدني أن أذهب .

فقاطعه الكابتين قائلاً :

ـ لا ، لماذا ؟ بدهي أن أحداً لن يرفض الذهاب ، لكنه ليس من الضروري أن يتطوع أحدٌ . طالما أن أبولون سرجييفيتش يهب لنا حرية اتخاذ قرار ، فلنجرينَّ قرعة مثلما فعلنا المرة الأخيرة .

أعلن الجميع موافقتهم . فقصَّ كراوت أوراقاً ، وطوى قصاصاتها ووضعها في قبعة . وأخذ الكابتين يمزح منتهزاً الفرصة ليطلب من آمر السرية مزيداً من الخمرة لشدّ العزائم . وجلس ديادنكو مكفهرَّ الأسارير ، في حين ابتسم فولوديا لشيء ما . وأعلن تشرنوفيتسكي أن القرعة ستكون من نصيبه . أما كراوت فبقي هادئاً . وطُلب إلى فولوديا أن يكون أول الساحبين . فتناول من القبعة ورقة هي أطول الأوراق ، لكنه لم يلبث أن تركها بحركة مباغتة وأخرج ورقة أخرى أقصر منها وأثخن . ولما فتحها قرأ فيها ما يلي : «أنت ستذهب» .

قال ، وهو يتنهد :

ـ القرعة وقعت عليَّ .

فقال آمر السرية ، وهو يبتسم ابتسامة طيبة للملازم البحري الذي ينمُّ وجهه عن شيء من الانفعال :

ـ حسناً ، فليحرسك الله ! ستخوض القتال فوراً . ولكن يجب عليك أن

تسرع وأن تهيىء نفسك . وكيما تكون في صحبة شيّقة فلسوف يصحبك فلانج بمثابة حرّاق .

٢١

اغتبط فلانج لهذا التعيين اغتباطاً لا حدود له ، وأسرع يهيىء نفسه ، حتى إذا تجهَّز لبس ثيابه وجاء يساعد فولوديا ، وألحَّ عليه أن يصطحب معه سرير ميدان ، ومعطفاً من فرو ، وعدداً قديماً من مجلة «حوليات الوطن» ، ومصباحاً كحولياً ، وغلاّية قهوة ، وأشياء أخرى غير ضرورية . ونصح الكابتين لفولوديا أن يعيد قراءة «الموجز لضباط المدفعية» لمؤلفه بيزاك قبل أن يرحل ، وأن ينسخ خاصةً الجداول الواردة فيه . فعكف فولوديا فوراً على إنجاز هذا العمل . وكانت دهشته وفرحته من الشدة بحيث لاحظ أن الهلع والشعور بالخطر والخشية من أن يكون جباناً ما تزال ترهقه طبعاً ، غير أنها الآن أخفُّ كثيراً من ليلة البارحة . ويرجع بعض الفضل في هذا إلى ما عاناه في النهار من إحساسات وما بذله من نشاط . ولكن السبب الرئيسي في هذا التغيير هو أن الخوف ، مثله مثل أي عاطفة أخرى ، لا يمكن أن يستمرّ مدة طويلة على درجة واحدة من الشدة . وباختصار ، فإن ما كان يحسُّه فولوديا من قلق وخشية ضعف الآن . حتى إذا قاربت الساعة السابعة ، والشمس تهبط وراء ثكنات نيقولاس ، دخل عليه السرجان ميجور وأبلغه أن الرجال تهيأوا وهم ينتظرونه . قال له :

ـ سلَّمت القائمة إلى فلانجا ، فاطلبها منه متى شئت ، يا صاحب السعادة .

كان نحو من عشرين جندياً من جنود المدفعية قد وضعوا في أحزمتهم سيوفاً

قصيرة واقفين عند زاوية المنزل . فتقدَّم منهم فولوديا يتبعه الطالب الضابط ، وراح يسائل نفسه : «أيجب أن ألقي فيهم خطاباً قصيراً ، أم يكفي أن أقول لهم : يومكم سعيد ، يا أبنائي ؟ أم لا يجب أن أقول لهم شيئاً ؟ لكن ، لماذا لا أحييهم فأقول لهم : يومكم سعيد،يا رفاقي ؟ إن هذا ضروري» . وصاح قائلاً بصوت رنان :

ـ يومكم سعيد ، يا رفاق !

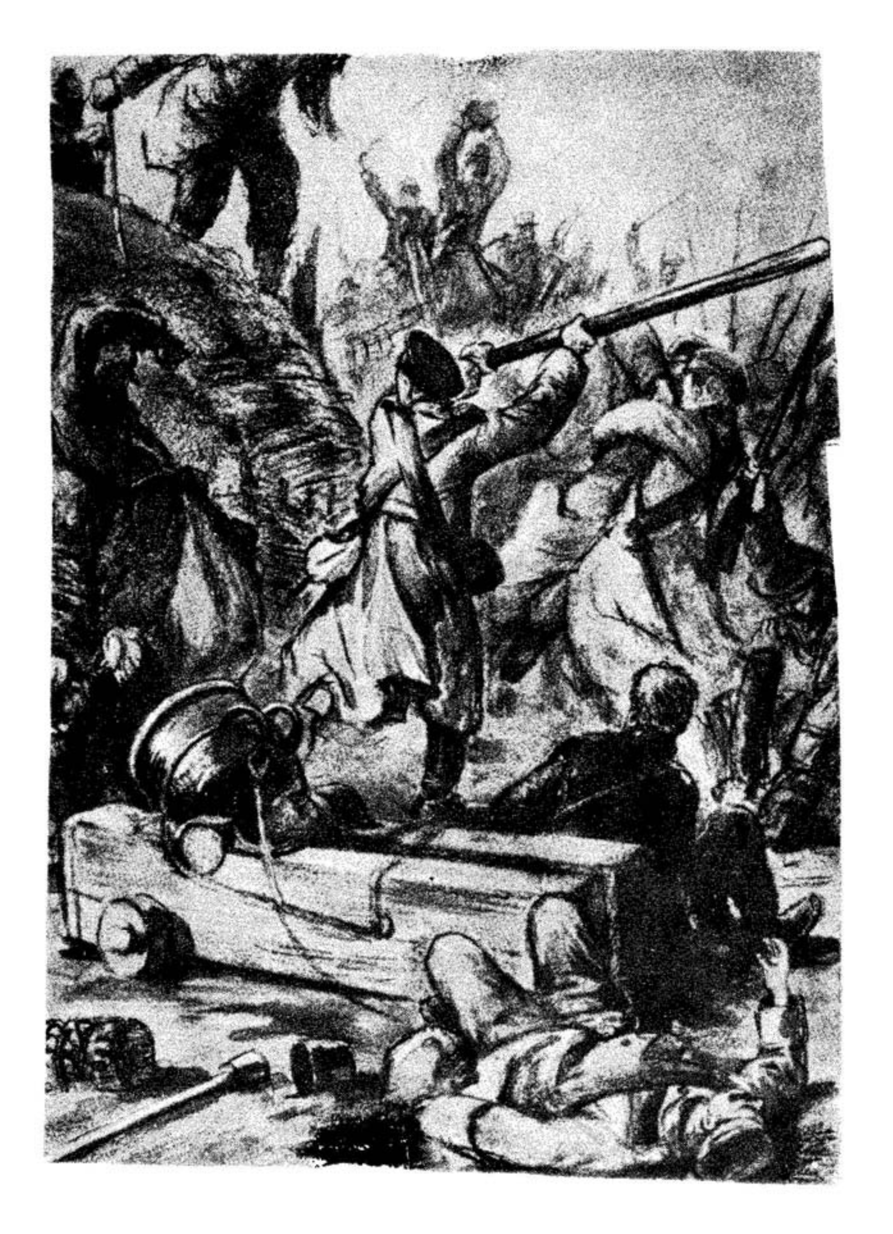
فردَّ الجنود تحيته بحماسة ونشاط . لقد أعجبهم في ضابطهم هذا الصوت الشاب الفتيّ . وسار فولوديا في مقدمة الجنود بخطوات عسكرية . ورغم أن قلبه كان يخفق خفقاناً شديداً فكأنه ركض عدة فراسخ بغير توقف ، فقد بقيت مشيته طلقة ووجهه مشرقاً مبتسماً . فلما وصل إلى حصن مالاخوف واجتاز الربوة لاحظ أن فلانج الذي كان على جانب عظيم من الشجاعة في المنزل أصبح الآن يلتصق به التصاقاً ولا يزيح عنه شعرة واحدة ، وصار يحني رأسه ويشدُّ نفسه إليه كأن جميع القذائف أو القنابل التي غدا أزيزها أكثر تكراراً في هذا المكان إنما هي مقبلة عليه رأساً . وكان بعض الجنود يفعلون مثله . وكانت الوجوه تعبّر ، بوجه عام ، عن شيء من قلق ورعب . هذه الأمور هدأت فولوديا وبثت فيه شجاعة وجرأة .

قال يخاطب نفسه ، وهو يشعر بشيء من حرارة الاعتزاز والكبرياء : «هأنذا أجتاز حصن مالاخوف الذي أخطأت فتخيلته رهيباً إلى ذلك الحدّ كله . إنني قادر على أن أسير هنا دون أن أنحني لكل قذيفة تمرُّ . حتى أنني أقلّ خوفاً من الآخرين . فما أنا إذن بالجبان !»

على أن هذا الشعور لم يلبث أن زعزعه المنظر الذي رآه فولوديا عند الغسق ، حين بلغ سرية كورنيلوف باحثاً عن آمر الحصن ، فإذا هو يشاهد قرب السور أربعة جنود يحملون من اليدين والقدمين جثة دامية لرجل بلا

حذائين ولا معطف ، فيؤرجحونها تهيوءاً لإلقائها في الحفرة الخارجية . (تبين في اليوم الثاني للقصف أن الوقت لم يتسع لرفع الجثث ورميها من فوق السور كيلا يضيق مكان السرية بتراكمها) . فلما رأى فولوديا كيف اصطدمت الجثة بأعلى السور ، وأخذت تنزلق في الحفرة ببطء ، ذُهل كثيراً . ومن حسن حظه أن قائد الحصن أقبل عليه في تلك اللحظة ، فأصدر إليه بعض الأوامر ، وسمًى له مرافقاً يدله على مكان السرية وملجأ السدنة . ولن نتحدث هنـا عن جميع الأهوال والأخطار وخيبات الأمل التي عرفها بطلنا في ذلك المساء : كيف كان يأمل أن يجد هنا ما تعلّمه في ميدان فولكوف وشهده في ساحة التدريب من رمي منظّم ضمن شروط كاملة من الترتيب والدقة ، فإذا هو لا يرى إلا مدفعين من مدافع الهاون محطمين ليس لهما مصوِّب ، أوذيت فوهة أحدهما بقذيفة ، في حين بقي الثاني سليماً لكنه قائم على أنقاض قاعدة محطمة ؛ وكيف لم يستطع أن يحصل على عمال لإصلاح القاعدة إلا عند طلوع الفجر ؛ وكيف أن الشحنات لم تكن من العيار المذكور في «الموجز» ؛ وكيف جرح جنديان إلى جانبـه ؛ وكيف كان هو قيد شعرة من الموت عشرين مرة . ومن حسن حظه أن رئيس المدفع الذي عُين مساعداً له ، وهو بحار ضخم الجثة ، كان يعرف مدافع الهاون معرفة جيدة ، لأنه عني بها منذ بداية الحصار . فطمأن فولوديا إلى أنها لا تزال تُستعمل . وأمدَّه بهذه الإيضاحات وهو يطوف معه في الحصن حاملاً فانوساً بيده ، وكان هادئاً هدوء من يتجوّل في مزرعة خضار ، ووعده أن يرتِّب كل شيء في الغداة . وكان الملجأ المصفح الذي قاده إليه حفرة مستطيلة بمقدار أربع وعشرين ياردة مكعبة حُفرت في الصخر وغُطيت بجذوع ضخمة من أشجار السنديان . فاستقرَّ فيها فولوديا ورجاله .

أسرع فلانج يدخل أول الداخلين منذ أبصر باب الملجأ الصغير الذي يبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام فقط ، حتى لقد بلغ من السرعة أنه كاد يجرح أعضاءه



بعدما سقط على **الأرض** الصخرية وبقي بعد ذلك جامداً دون حراك . أما فولوديا فانتظر إلى أن استقرَّ الجنود على الأرض بحذاء الجدران ، وأخرج بعضهم غلايينهم ، فنشر عندئذ سريره في ركن ، وأشعل شمعة ، وتمدَّد على مرقده يدخّن سيجارة .

كانت تُسمع فوق الملجأ انفجارات متصلة لا تنقطع . لكن أصواتها تصل مخنوقة ، باستثناء طلقات يطلقها مدفع يقع على مسافة قريبة جداً من المكان ، ويحدث هزات تبلغ من القوة أن قطعاً من التراب تسّاقط من بين جذوع الأشجار التي تغطي السقف . وكان الصمت يخيّم على الملجأ . فالجنود الذين لا يزالون يتهيبون وجود ضابط جديد بينهم لا يتبادلون بضع كلمات موجزة إلا من حين إلى حين ، فواحد يطلب من جاره الابتعاد عنه قليلاً أو أن يمدَّه بنار يشعل بها غليونه . وفي بعض اللحظات يُسمع صوت فأرة تحكُّ الأرض بين الصخور ، أو يُسمع صوت فلانج وهو يطلق من صدره تنهيدة حرّى من غير انتظار . لم يسترد فلانج شيئاً من الهدوء بعد ، وهو يلقي على ما حوله نظرات وحشية .

وكان فولوديا ، وهو مضطجع في هذا الركن الذي يتراكم فيه الجنود ولا تضيئه إلا شمعة واحدة ، يوافيه ذلك الإحساس الممتع الذي كان في طفولته في الماضي ، حين يلعب لعبة الاستغماية فيدسُّ نفسه في إحدى الخزائن ، أو يتسلل تحت ثوب أمه ، يحبس أنفاسه ، ويشعر بذلك الإحساس اللذيذ الذي يمتزج فيه الخوف من الظلام والشعور بالأمان في وقت واحد . لقد كان في تلك الأيام البعيدة يشعر بمزيج من الخشية والفرح معاً .

٢٢

بعيد قرابة عشر دقائق استردَّ الجنود جرأتهم وشرعوا يتحادثون . واستقرَّ ذوو

الشأن منهم : حراقان أحدهما شيخ أشيب الرأس يتـزين بمختلف الأوسمـة والصلبان إلا صليب القديس جورج ، وثانيهما فتى من الشعب يدخن سجائر لفها بيديه ـ جلسا قرب سرير الضابط وضوء الشمعة . وكان ضارب الطبل قد تولى القيام بخدمة الضباط على ما توجبه العادة . وكان المدفعيون والجنود الذين يحملون أوسمة قريبين بعض القرب . أما الأفراد العاديون فاعتصموا بالظلّ في آخر الملجأ قرب المدخل . وهؤلاء الأخيرون هم الذين انحلّت عقدة ألسنتهم فطفقوا يتكلمون . وحجتهم في ذلك أن واحداً منهم دهم الملجـأ على غـير انتظار .

قال أحدهم :

ـ سلاماً ، أيها الصديق القديم ! لِـمَ لَـمْ تبق في الخارج ؟ ألا تحسن بنات هذه البلاد الغناء ؟

فأجاب الجندي المداهم ضاحكاً :

ـ إنهن يغنين هنا غناء لم نسمعه في قريتنا .

وقال آخر من الجالسين في الزاوية الأرستقراطية :

ـ آه ، لا بدَّ أن فاسين لا يحب القذائف كثيراً .

فأجاب فاسين في بطء ، وهو من وهُبت له قدرة خاصة على إسكات رفاقه متى أخذ يتكلم :

ـ لو كنت في حاجة إليها لاختلف الأمر كثيراً . في اليوم الرابع والعشرين استطعنا أن نرمي على الأقلّ . أما اليـوم ففيـمَ تدمدمـون في وجهـي ؟ إن السلطات لن تشكر أمثالنا إذا قتلوا دون طائل .

ضحك الجميع لدى سماع هذه الكلمات . وقال أحدهم :

ـ إليكم ملنيكوف ـ إنه لا يزال في الخارج الآن ، على ما أظن .

وتدخَّل الحرَّاق الشيخ ، فقال :

ـ إذهب وارجع بملنيكوف إلى هنا ! وإلا تعرَّض للقتل عبثاً .
سأل فولوديا :
ـ من هو ملنيكوف ؟
ـ أوه ، جندي أحمق مسكين من جماعتنا ، يا صاحب السعادة . إنه لا يخاف شيئاً ، وهو يتجوَّل في الخارج الآن .. يجب أن تنعم النظر إليه حين يرجع . فمظهره مظهر ذب .
قال فاسين من آخر الملجأ بصوته الممطوط :
ـ إنه يتقن تعويذة سحرية !
دخل ملنيكوف في تلك اللحظة ذاتها . إنه رجل ضخم (وهذا نادر بين الجنود) . أحمر الشعر والوجه ، له عينان زرقاوان وجبهة عريضة .
سأله فولوديا :
ـ ألا تخاف القذائف ؟
فأجاب ملنيكوف ، وهو يرفع منكبيه ويحكُّ قذاله :
ـ ماذا في القذائف ؟ أنا أعرف أنهم لن يقتلوني بقذيفة .
ـ إذن ، فأنت تحبُّ أن تعيش هنا ؟
ـ طبعاً . المرء هنا يتسلّى على الأقل .
قال ذلك وانفجر ضاحكاً . فقال فولوديا :
ـ أوه ، إذن يجب أن يأخذوك في غارة . هل تريدني أن أحدث الجنرال في هذا ؟
قال فولوديا ذلك رغم أنه لم يعرف أي جنرال في تلك المنطقة .
أجاب الجندي :
ـ كيف لا أريد هذا ؟ إنني أتمنّاه !
وأسرع ملنيكوف يختفي وراء بعض الجنود ، وسرعان ما سمع صوته يقول

بنبرة متعجلة :

ـ ما رأيكم في لعبة «الأنوف» ، يا رفاق ؟ من لديه ورق لعب ؟

وما أسرع أن بدأ اللعب في آخر زاوية من الملجأ ؛ كانت تسمع أصوات ضحكات صاخبة ، ورمي الورق بين لطمات على الأنوف . وصبَّ فولوديا لنفسه شاياً من السماور الذي سخَّنه له ضارب الطبل ، وقدَّم شاياً للحراقين أيضاً ، ومازحهم وحادثهم رغبة في كسب محبتهم . وكان قد سرَّه كثيراً من جهة أخرى ما كانوا يبدون له من احترام . أما الجنود فلم يلبثوا أن شعروا بارتياح اذ رأوا أن هذا السيد المحترم ليس متكبراً فطفقوا يثرثرون . وروى أحدهم أن حصار سيباستوبول لن يطول كثيراً لأن رجلاً من البحرية موثوقاً بصدق كلامه أعلمه أن قسطنطين ، شقيق القيصر ، في طريقه الآن إلى سيباستوبول مع الأسطول الأميركي لمساعدتنا ، وأن اتفاقاً سيوقع بعد فترة قصيرة مع المهاجمين ، فتقوم هدنة مدتها خمسة عشر يوماً يستريح الناس في أثنائها فلا يجوز لأحد منهم أن يرمي البتة وإلا غرِّم بمبلغ خمسة وسبعين كوبيكاً عن كل رمية . وبعد ذلك روى فاسين ، وهو رجل قصير القامة له عارضان وعينان واسعتان طيبتان ، وكان فولوديا قد أطال النظر إليه في تلك الأثناء ، روى في جوٍّ من الصمت تحوَّل شيئاً فشيئاً إلى ضحك شامل كيف أن أهله استقبلوه بعاطفة حارة حين ذهب إليهم في إجازة ، وكيف أن والده بعثه يعمل في الحقل منذ الغداة ، وأن الليوتنان الحراجي أرسل عربته لإحضار أمرأته . هذه الحكايات روَّحت عن فولوديا كثيراً . فهو الآن لا يشعر بأي خوف فحسب ، بل لا يزعجه ضيق الملجأ أو فساد الهواء الذي يستنشقه ، حتى أن كل شيء يبدو له مسلياً جداً ،

وفيما أخذ عدد من الجنود يشخرون ، واستلقى فلانج على الأرض ، وفرش الحرّاق الشيخ معطفه وراح يتلو صلواته ويرسم إشارة الصليب قبل أن ينام ، أحبَّ فولوديا على حين غرة أن يترك الملجأ لاستطلاع ما يجري في الخارج . فما

أن نهض حتى صاح الجنود في أنفسهم :

ـ اثنوا أرجلكم !

وإذا بالأرجل تنثني فوراً كيما يتاح لفولوديا أن يمرَّ .

كان فلانج يبدو نائماً ، فإذا به يتشبث في تلك اللحظة بحافة معطف فولوديا ويقول له بصوت ضارع :

ـ لا تخرج ! لا تخرج ! كيف يمكنك ذلك ؟ أنت لا تعرف ماذا يجري هناك ! القذائف تنهمر طوال الوقت . البقاء هنا أفضل .

غير أن فولوديا لم يسمع ضراعاته ، بل شقَّ طريقه خارجاً من الملجأ ، وجلس على العتبة التي كان ملنيكوف جالساً عليها يخلع حذاءيه .

الهواء نقي طري إذا قورن بهواء الملجأ . والليلة صافية هادئة . وبين هدير طلقات المدافع تسمع ضجة عجلات العربات التي تحمل قففاً ، وتسمع أصوات العمال الذين يعملون في مخزن البارود . والسماء عالياً متلألئة بنجومها . تشقها البروق المضيئة التي ترافق القذائف متصلة في كل لحظة . وكان عن يسار فولوديا حفرة صغيرة في الأرض تؤدي إلى ملجأ آخر ، يرى منها فولوديا ظهور البحارة الواقفين في الملجأ ورؤوسهم ، وتترامى إلى أذنيه انفجارات أصواتهم ، وفي قبالته ترتفع تلة مخزن البارود التي تمرُّ أمامها قامات محنية . ذاهبة آيبة . وعلى الأرض يقف رجل مجهول طويل الجسم يرتدي معطفاً أسود تمرُّ فوقه طلقات رصاص متواترة ، وقذائف مدافع تهدر هديراً قوياً ، فيظلُّ هو في مكانه هادئاً ، واضعاً يديه في جيبيه ، عاملاً في دوس التراب الذي يجيء به رجال آخرون محمولاً في أكياس . ويبدو في بعض اللحظات أن قذيفة من القذائف توشك أن تلمسه ، ثم تمضي تنفجر غير بعيد ، فينحني حملة التراب عندئذ أو يبتعدون . أما هو ، صاحب المعطف الأسود ، فلا يتزحزح ، ولا يبارح مكانه ، ويظل يكبس الأرض هادئاً بقدميه .

قال فولوديا يسأل ملنيكوف :

ـ من هذا الرجل المرتدي السواد ؟

ـ لا أدري . سأذهب وأرى .

ـ بل لا تذهب ، فلا ضرورة لذلك .

غير أن ملنيكوف اتجه نحو القامة السوداء ، ومكث إلى جانبه مدة طويلة ، محافظاً هو أيضاً على ذلك الوضع نفسه من السكون والهدوء .

وقال ملنيكوف بعد عودته :

ـ هذا عامل مخزن البارود ، يا صاحب السعادة . لقد أصيب المخزن بأضرار . وهؤلاء جنود من سلاح المشاة يحملون تراباً لإصلاح المخزن .

من حين إلى حين يتراءى أن قذيفة تتجه إلى مدخل الملجأ مباشرة . فيختبىء فولوديا وراء الزاوية ، ثم يعود رافعاً عينيه إلى السماء ليرى هل من قذائف أخرى تتجه الاتجاه ذاته . ورغم أن فلانج ناداه مراراً من داخل الملجأ ضارعاً إليه أن يعود ، فقد ظلّ فولوديا جالساً عند المدخل قرابة ثلاث ساعات ، شاعراً بنوع من اللذة لتحدي القدر ، مراقباً مسارات القذائف . فلما رجع إلى الملجأ كان قد عرف من أين ترمي المدافع قذائفها ، وأين توجد ، وأين تسّاقط القنابل .

٢٣

في الصباح التالي ، السابع والعشرين من آب ، خرج فولوديا إلى عتبة الملجأ مرتاحاً منتعشاً بعدما نام عشر ساعات . وخرج فلانج أيضاً ، ولكنه ما أن سمع أزيز أول رصاصة حتى أسرع يتقهقر نحو باب الملجأ الضيّق ، شاقاً

طريقه بين الجنود برأسه ، فأثار رعبه هذا موجة من الضحك بين الرجال الذين خرجوا يستنشقون هواء الصباح الطري .

لم يكن قد بقي في داخل الملجأ إلا فلانج وفاسين الشبيخ وعدد من الرجال قلّما يجازفون فيخرجون إلى الخندق . أما الآخرون فأسرعوا يخرجون ويتنفسون الهواء الطلق . ورغم أن رمي المدافع كان عنيفاً كالأمس فقد استقروا في الخارج ، بعضهم قرب المدخل ، وبعضهم تحت الحاجز . وكان ملتيكوف يتجوّل بين سرايا المدفعية منذ بكور الفجر ، ناظراً إلى السماء بهدوء ولامبالاة .

عند العتبة جلس جنديان عجوزان ، وثالث أصغر منهما سناً شعره مجعد وهيئته هيئة يهودي نقل إلى المدفعية . وقد تناول اليهودي رصاصة ملقاة على الأرض وطرقها على صخرة بشظية قنبلة ثم جعل منها صليباً على غرار صليب القديس جورج . وجلس الآخرون يثرثرون وهم ينظرون إليه . لقد نجح في صنع الصليب بصورة جيدة .

قال أحدهم :

ـ إذا بقينا هنا بعض الوقت أيضاً فسيكون من حقنا أن نحال على التقاعد عند عقد السلام .

ـ أنت على حق . لم يبق لي للإحالة على التقاعد غير أربع سنوات . وهذا أنا في سيباستوبول منذ خمسة شهور .

وقال آخر :

ـ لا شأن لهذا بالتقاعد ، فيما يخال لي .

في تلك اللحظة صفرت قذيفة فوق رؤوس المتحدثين ، وسقطت على مسافة خطوات من ملنيكوف الذي كان مقبلاً عليهم بمحاذاة الخندق .

قال أحد الجنود :

ـ تلك القذيفة كادت أن تقتل ملنيكوف .

فردَّ عليه ملنيكوف قائلاً :

ـ لن تقتلني .

فقال الجندي الشاب ، وهو يناوله الصليب الذي صنعه :

ـ أقدم لك إذن هذا الوسام مكافأة على جرأتك .

واستأنف أحد الجنود الكلام قائلاً :

ـ ... لا ، يا أخ ! شهر من الخدمة هنا يعادل سنة في أي مكان آخر . لقد صدر أمر من الحكومة بهذا الخصوص .

ـ تستطيع أن تقول ما طاب لك ، لكن ما أن يستتبَّ السلام حتى يقام استعراض كبير للقيصر في فارصوفيا ، فإن لم تتم إحالتنا على التقاعد حتى ذلك الحين فلا أقلَّ من أن نحصل على إجازة غير محدودة .

في تلك اللحظة كانت رصاصة تمر صافرة فوق رؤوسهم تقريباً ، وسقطت على صخرة .

قال أحد الجنود :

ـ حذار ، وإلا نلت إجازتك غير المحدودة قبل حلول هذا المساء .

فضحك الجميع .

لكن الموت لم يمهل إلى المساء ، فما انقضت ساعتان حتى كان اثنان منهم قد نالا إجازة غير محدودة ، وأصيب خمسة آخرون بجراح ، ومع ذلك استمرت النكات والدعابات .

في الصباح كان قد تمَّ إصلاح مدفعي الهاون ، وصارا يطلقان النار . وفي الساعة العاشرة صدر أمر من قائد الحصن ، فجمع فولوديا رجاله ومضى معهم إلى سرية المدفعية .

لم يبق لدى أولئك الجنود أثر من ذلك الشعور بالخوف الذي كانت تعبّر وجوههم بالأمس عنه . زال كل رعب منذ أن شرعوا في العمل . وبقي فلانج

وحده لا يستطيع سيطرة على نفسه . وفقد فاسين هدوءه ، فهو لا يني يتحرك ويضطرب ويرقد على الأرض . وكان فولوديا مبتهجاً أعظم الابتهاج : فما عادت فكرة الخطر تساوره . إن فرحته بالقيام بواجبه على أحسن وجه ، وشعوره أنه شجاع وليس جباناً ، واعتزازه أنه يقود ، ووجود عشرين شخصاً يعرف أنهم يراقبونه بانتباه ، ذلك كله جعل منه فتىً شجاعاً حقاً . فصار يحلو له التبختر أمام جنوده معتلياً دكة الرمي ، وانتهى به الأمر أن تعمَّد فكّ أزرار معطفه كيما يراه العدوُّ رؤية أكثر وضوحاً . ولم يستطع آمر الحصن الذي كان يقوم أثناء ذلك بجولة في «أملاكه» على حد تعبيره ، وهو رجل ألف منذ ثمانية شهور جميع أنواع الشجاعة ، لم يستطع أن يخفي إعجابه حين رأى هذا الفتى اللطيف وقد حلَّ أزرار معطفه فبدا تحت المعطف قميص أحمر يحيط بجيد أبيض مرهف . كان فولوديا ، وقد احمارَّ وجهه وسطعت عيناه ، يصفق بيديه ويأمر بصوت عال : «واحد ـ اثنان» ، ثم يصعد السور فرحاً ليشاهد أين تسقط القذيفة . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تباطأت النيران من الطرفين ، وعند الظهر تماماً بدأت غارة حصن مالاخوف والتحصينات الثاني والثالث (ريدان) والخامس .

٢٤

في الناحية الشمالية من الخليج ، في نحو الظهيرة ، كان يقف جنديان على ربوة التلغراف بين إنكرمان وتحصينات الشمال : الأول بحار يرصد سيباستوبول بمنظاره ، والثاني وصل منذ هنيهة على حصان ، يتبعه قوزاقي ، ووقف أمام عمود الإشارات الكبير .

الشمس مرتفعة في السماء تضيء الخليج وترسل أشعة ساطعة دافئة على السفن الراسية والمراكب الشراعية والقوارب المتحركة . وأنسام خفيفة ترعش أوراق الأشجار التي أوشكت على اليباس في أدغال السنديان التي تحدق بربوة التلغراف ، كما تنفخ أشرعة المراكب وتهدهد الأمواج برخاوة . وعلى الشاطىء المقابل تمتدُّ سيباستوبول جميلة حلوة بكنيستها التي لم يتم بناؤها ، وصفوف أعمدتها ، ورصيفها ، وجادتها المخضوضرة في أعلى الرابية ، وبناء مكتبتها الرشيق ، وخلجانها الصغيرة ذات المياه اللازوردية الملأى بالصواري ، وأقواس أقنيتها الرائعة ، وغمامات دخان البارود الضاربة إلى زرقة ، وتنيرها من حين إلى حين ومضات الضوء الأحمر من طلقة مدفع . هذه سيباستوبول نفسها ، المدينة الجميلة الشامخة المعتزة ، التي لا تراها إلا وتعتبرها في عيد ، تحفُّ بها من إحدى ناحيتيها جبال مصفرة فوقها دخان ، من الناحية الأخرى مياه بحر زرقاء تنعكس على صفحة مرآتها أشعة الشمس . وعند الأفق ، حيث الدخان المتموج ينطلق من سفينة بخارية ، تنزلق سحب بيضاء مستطيلة ضيقة تنذر بالمطر . وعلى طول خط التحصينات كله ، فوق الروابي القائمة عن شمال ، تنطلق نفخات كثيفة من دخان أبيض ترافقها ومضات برق تسطع حتى في وضوح الشمس ، وربما انطلقت عديدة في لحظة واحدة ، وراحت تتضخم صاعدة ، وتتخذ أشكالاً متنوعة ، ويزداد لونها اسوداداً كلما ارتفعت في السماء .

هذه الأشكال تنطلق في كل مكان : من التلال ، ومن سرايا مدفعية العدو ، ومن المدينة ، وعالياً جداً في الفضاء . ودويُّ المدافع لا ينقطع ، وهديرها لا يني يهزُّ الهواء ...

في نحو الظهيرة قلَّ انطلاق الدخان واهتزاز أمواج الهواء من طلقات المدافع .

قال ضابط سلاح الفرسان :

ـ أصبح الحصن الثاني لا يردُّ . لقد دُمِّرَ تدميراً كاملاً . هذا فظيع !

وأجاب ذلك الذي يتطلع في المنظار :

ـ نعم ، ومالاخوف أيضاً لا يردُّ إلا بطلقة واحدة على ثلاث طلقات . إنه ليفقدني صوابي أن يصمتوا . هذه طلقة تسقط على سرية كورنيلوف فلا تردُّ عليها بشيء .

ـ إسمع . سبق أن قلت لك إن القصف يتوقف في نحو الظهيرة . وهذا ما سيحدث اليوم . يحسن أن نرجع ونتغدى . سينتظروننا هناك ... ليس هنالك ما ترصده الآن !

كان الممسك بالمنظار يتطلع في تلك اللحظة ناحية سيباستوبول باهتمام شديد ، فأجاب قائلاً :

ـ رويدك ! لا تضايقني !

ـ ماذا يجري هناك ؟ ماذا ؟

ـ ثمة حركة في الخنادق ... أرتال متراصة تتقدم .

قال البحار :

ـ بلى ، أنا أيضاً أرى هذا بعيني العاريتين . إنهم يسيرون في تشكيلات كثيفة . يجب إطلاق الإنذار .

ـ أنظر ! أنظر ! خرجوا من الخنادق .

كان يمكن أن ترى حقاً ، بالعينين المجردتين ، بقعاً دكناء تهبط الجبل وتعبر الوادي متجهة من السرايا الفرنسية إلى تحصيناتنا . وفي مقدمة هذه البقع صفوف متراصة أضحت قريبة من صفوفنا . وانبثقت من التحصينات أدخنة صغيرة على غير انتظار ، فقد انطلقت من هنالك نيران ، فراحت الكبب البيضاء تجري في كل ناحية ، تتلاقى تارة وتتطارد تارة . وكانت الريح تحمل أصوات الرمي شبيهة بأصوات انهطال المطر على زجاج . وتقدمت الصفوف

القائمة في وسط الدخان ، وراحت تتقدم وتتقدم . واشتد الرمي بالبنادق وتكاثف ، وانصهرت أصواته في هدير واحد متصل . وتكاثرت الكبب البيضاء وانتشرت سريعة على الخط كله ، ثم اتحدت غيمة واحدة بلون الليلك لا تبرح تلف وتنتشر ، وينساب من جوفها هنا وهنالك بروق قصيرة أو نقاط سود . ثم لم يبق ثمة إلا ضوضاء مبهمة تختلط فيها جميع الأصوات كأنها هزيم رعد .

صاح ضابط سلاح الفرسان ، وهو يناول البحار المنظار ، وقد امتقع لونه فجأة :

ـ هجوم !

وبدا في الطريق قوزاقيون يجرون على خيولهم ، وضباط على صهواتهم يتقدمون القائد الأعلى الذي مرَّ راكباً عربته مع حاشيته . وارتسم غمٌّ ثقيل على جميع الوجوه ، وانقبضت الأسارير تتوقع شيئاً رهيباً .

هتف الضابط الذي يركب حصاناً :

ـ لا يمكن أن يكونوا استولوا عليها .

فأجابه الضابط الآخر ، وقد خنق الانفعال نفسه فرمى المنظار :

ـ رباه ! هذه راية ! أنظر ! أنظر ! هذه راية الفرنسيين مرفوعة على حصن مالاخوف .

ـ مستحيل !

٢٥

إن كوزلتسوف الأكبر ، الذي وجد متسعاً من الوقت في الليل يستردُّ خسائره

في القمار ثم عاد فخسر كل شيء مرة أخرى ، حتى القطع الذهبية التي كانت مخيطة في زخارف كميّه ، كان مضطجعاً قرابة الصباح ومستغرقاً في نوم ثقيل عميق غير مريح في ثكنات دفاع الحصن الخامس ، حين دوّت تلك الصرخة اليائسة ترددها أصوات كثيرة متعاقبة : «إنذار !» .

وصرخ أحدهم قريباً منه :

ـ إستيقظ ، يا ميخائيل سيميونوفيتش ! إنهم يهاجموننا !

فغمغم يقول ، وهو يفتح عينيه غير مصدّق :

ـ لا ريبة أنها خدعة !

وأبصر ، في تلك اللحظة ، ضابطاً يركض من زاوية في الحصن إلى أخرى بغير هدف ظاهر ، شاحب اللون مربده ، بحيث أدرك كوزلتسوف كل شيء . وسرعان ما طُعن في قلبه حينما تصوَّر أنّ من الممكن أن يعتبر جباناً لا يبغي الالتحاق بسريته في اللحظة الحرجة من الخطر . فوثب مندفعاً بسرعة شديدة إلى المكان الذي يرابط فيه رجاله . كان الرمي بالمدافع قد انقطع ، ولكن رصاص البنادق يملأ الجوَّ بأزيزه المسعور . والرصاصات لا تصفر فرادى بل جماعات ، وكأنها أسراب العصافير تطير فوق الرؤوس مهاجرة في فصل الخريف .

إن الموقع الذي احتلته كتيبته مساء الأمس يضيع في عاصفة من الدخان الآن ، وتتردَّد فيه صرخات العدو وصيحات لعن وشتم . وصادف في طريقه جماعات من الجنود بعضهم سليم وبعضهم جريح ، حتى إذا قطع ثلاثين خطوة أخرى أبصر سريته ملتصقة بجدار .

قال ضابط شاب وأسنانه تصطك مرتجفة :

ـ استولوا على معقل شفارتز ! لقد ضاع كل شيء .

فأجابه كوزلتسوف بصوت غاضب :

ـ هراء !

وكأنما أراد أن يحمِّس نفسه بالحركة فاستلَّ سيفه الحديدي القصير المثلَّم من قرابه وهو يصيح :

ـ إلى الأمام ، يا شباب ، هوررراه !

كان صوته قوياً صافياً ، وكان من شأن هذا الصوت أن أثار كوزلتسوف نفسه . أسرع يتقدم إلى أمام على طول الحاجز واندفع يجري وراءه نحو من خمسين جندياً وهم يصيحون . حتى إذا تجاوزوا الحاجز ووصلوا إلى فضاء طلق انهال عليهم وابل من رصاص كأنه وابل من حجارة . أصيب كوزلتسوف مرتين ، لكنه لم يعرف أين ، كما لم يعرف ما إذا كان أصيب بكدمة أم جرح . إن وقته لا يتسع للتفكير بهذا الأمر . إنه منذ الآن ، من خلال الدخان ، يرى أمامه البزات الزرقاء والبناطيل الحمراء ويسمع من حوله صياحاً ليس باللغة الروسية . وكان فرنسي واقفاً على السور يلوِّح بقبعته ويصرخ بكلام لا يفهمه . فأيقن أنه مقتول حتماً ، وهذا ما بثَّ في نفسه مزيداً من شجاعة . فراح يركض متقدماً إلى أمام.وسبقه بعض الجنود ، وانبرى آخرون يركضون بقربه . ولا تزال البزات الزرقاء تبدو على تلك المسافة ذاتها هاربة إلى خنادقها . لكن قدميه يصطدمان الآن بجرحى وقتلى.فلما بلغ كوزلتسوف الخندق الخارجي أحسَّ أن كل شيء يضطرب أمام عينيه ويختلط ، وشعر بألم شديد في صدره .

بعد نصف ساعة كان مسجّى على نقالة بقرب ثكنات نيقولاس يعرف أنه جريح ، ولكنه لا يشعر بألم.وكانت رغبته الأولى أن يشرب شيئاً بارداً ، وأن يسترخي بصورة مريحة .

دنا منه طبيب قصير القامة سمينها له عارضان كبيران أسودان ، فحلَّ أزرار معطفه .. وراح كوزلتسوف يتابع حركاته ناظراً إليه من فوق ذقنه ، فلاحظ إشارات الطبيب الذي يعالج جرحه ، وأنعم النظر في وجهه ، ولكنه لم يكن

يشعر بألم . ردَّ الطبيب قميص الضابط على جرحه ، ونشَّف أصابعه بحافة معطفه ، واتجه نحو جريح آخر دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ودون أن ينظر إلى كوزلتسوف الذي كان يتابع بنظراته ما يجري حوله بغير إرادة منه . وحين تذكَّر فجأة ما وقع له من أحداث في الحصن الخامس أحسَّ بفرح غامر وارتياح شديد ورضى كبير عن نفسه لأنه قام بواجبه على خير وجه ، ولأنه منذ بدء خدمته أُتيح له أول مرة أن يسلك سلوكاً باهراً ، دون أن يلوم نفسه على شيء . وكان الطبيب يضمد ضابطاً جريحاً آخر ، فقال شيئاً لكاهن طويل اللحية الحمراء كان يقف هنالك وفي يده صليب ، وهو يومىء إلى كوزلتسوف .

قال كوزلتسوف للكاهن الذي اقترب منه :

ـ هل أنا أحتضر ؟

فما أعطاه الكاهن جواباً ، بل تلا صلاة قصيرة ، ومدَّ الصليب الى شفتي الجريح .

لم يرهب الموت كوزلتسوف . تناول الصليب بيديه الواهنتين ، وشدَّه إلى شفتيه وانخرط يبكي . قال يسأل الكاهن بنبرة جازمة :

ـ هل رددنا الفرنسيين على أعقابهم ؟

فأجابه الكاهن :

ـ النصر حليفنا في كل مكان .

لقد أخفى عن الجريح ، كيلا يحزنه ، أن الراية الفرنسية كانت منذ ذلك الحين ترفرف على حصن مالاخوف .

تمتم المحتضر قائلا ، وهو لا يشعر بالعبرات التي تسيل على خديه :

ـ الحمد لله !

كان يشعر برضى عظيم وهو يتصور أنه قام بعمل بطولي . وومضت في فكره صورة شقيقه ، فقال يحدث نفسه : «فلينعم عليه الربُّ بهذه السعادة نفسها» .

٢٦

لكن مصيراً آخر كان ينتظر فولوديا . كان يُنصت إلى قصة يرويها له فاسين حين دوّت صرخة تقول : «الفرنسيون قادمون» . فازدحم الدم في قلبه ، وشعر بأن خديه يتجمدان صقيعاً ويشحبان . لبث لحظة لا يتحرك ، ولكنه حينما ألقى نظرة على ما حوله رأى أن الجنود يزررون معاطفهم ولا يبدو عليهم الانفعال كثيراً ، ويخرجون من الملجأ واحداً بعد الآخر . وقد بدا له أن أحدهم ـ ربما كان ملنيكوف ـ ألقى دعابة فقال : «سوف نحمل إليهم خبزاً وملحاً» .

خرج فولوديا من الملجأ وركض إلى سريته يتبعه فلانج الذي لا يتركه أبداً . وكانت نيران المدفعية قد سكتت من الجانبين . فلما رأى فولوديا هذا الجبن الحقير في الطالب الضابط أثيرت حميته أكثر مما أثارها منظر الهدوء في جنوده أيضا . قال يسأل نفسه : «أيمكن أن أشبهه حقاً ؟»، وسرعان ما جرى في نشاط إلى المكان الذي أقيم فيه مدفعا الهاون عند المتراس . من هناك كان يستطيع أن يرى الفرنسيين رؤية واضحة يركضون عبر الحقول إلى الحصن ، وشاهد في الخنادق المتقاربة كتلاً من الأعداء يتحركون وتسطع سيوفهم في ضوء الشمس . ولاحظ بشكل خاص فرنسياً قصير القامة عريض المنكبين يرتدي بزة زواوية ويحمل بيده سيفاً يركض في مقدمة الآخرين قافزاً فوق الحفر .

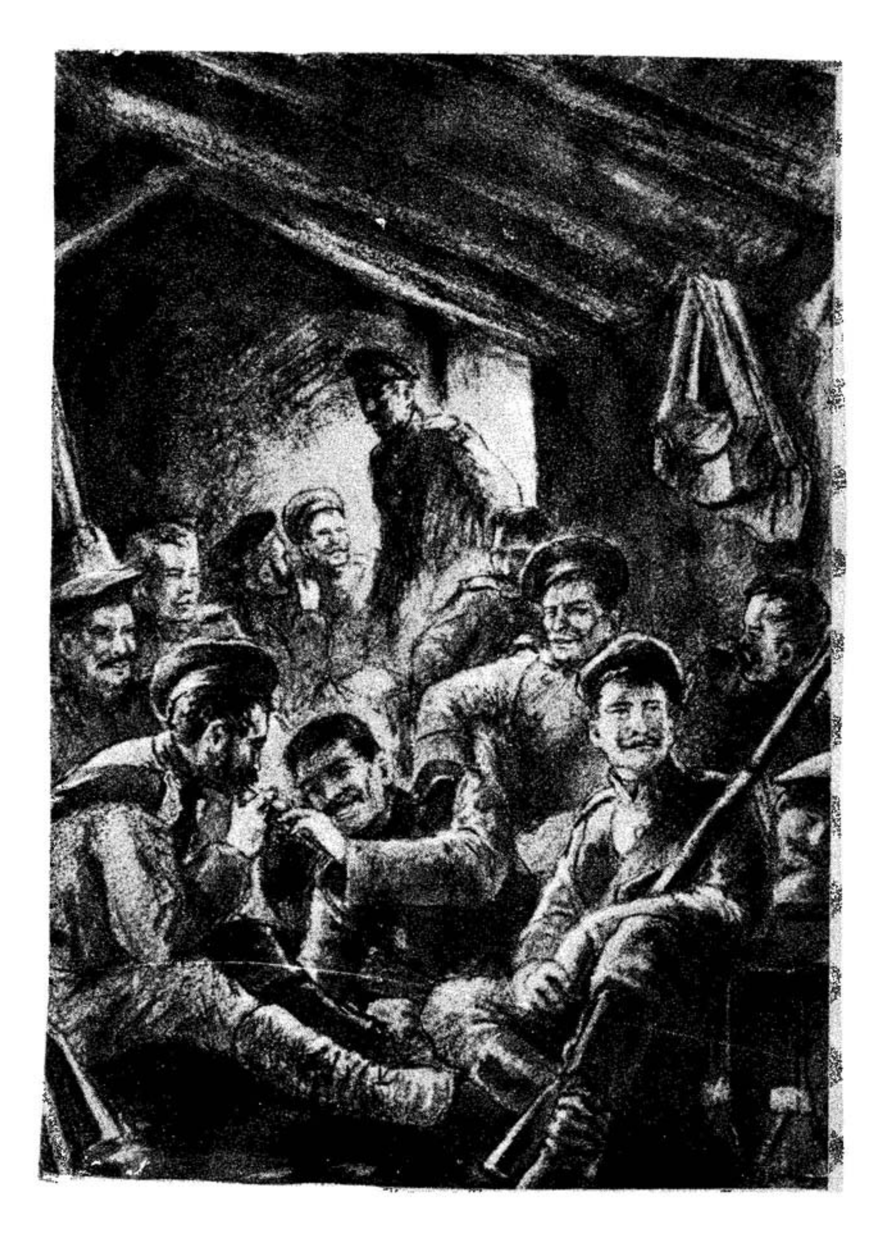
صرخ فولوديا ، وهو يثب عن الدكة الحجرية : «إلى الرمي !» . لكن رجاله كانوا قد سبقوه دون أن ينتظروا أوامره ، وانطلقت القذيفة فوق رأسه محدثة دوياً مثل رنين المعدن ، وتبعتها قذيفة ثانية من الهاون الثاني . وكان فولوديا يتراكض في ملء الدخان من مدفع إلى آخر صارخاً : «الأول ـ الثاني !» . ولم يعد يشعر بالخطر . وكانت قعقعة البنادق القريبة التي يتسلّح بها جنود التغطية تُسمع

صادرة من طرف تتخللها صرخات مضطربة .

وعلى حين فجأة دوَّت في الجهة اليسرى صيحة قلقة خائفة رددتها عدة أصوات : «التفوا علينا من خلف ، من وراء !» . فالتفت فولوديا فشاهد وراءه عشرين فرنسياً يركض في مقدمتهم رجل جميل على رأسه طربوش أحمر وله لحية سوداء ، فما أن صار على مبعدة عشر خطوات من المدفعين حتى توقف وأطلق النار واستأنف اندفاعه . فجمد فولوديا لا يكاد يصدِّق عينيه . ولما ثاب إلى وعيه رأى أمامه على المتراس بزات زرقاء ، حتى أن فرنسياً وثب إلى السطيحة وشرع يدق مدفع الهاون . لم يجد حواليه أحداً إلا ملنيكوف مقتولاً برصاصة ، وفلانج الذي تناول عن الآرض رافعة شهرها واندفع يركض إلى الأمام منقبض الوجه حنقاً ، مغمض العينين ، ملوِّحاً برافعته للجنود الراكضين وراءه ، منادياً فولوديا بصوته المرتاع قائلاً : «اتبعني ، يا فلاديمير سيميونوفيتش ! اتبعني !» . وقد أثَّر منظره في الفرنسيين ، فلما أسقط رافعته على رأس أولهم ترددوا لحظة ، فاستردَّ اندفاعه ، واستطاع أن يمرَّ بينهم جرياً وهو يتلفت إلى فولوديا منادياً في صوت مخنوق : «اتبعني ، يا فلاديمير سيميونوفيتش . ماذا تنتظر ؟ أركض !» . وعلى هذا النحو وصل إلى الخندق الذي يحتله رجالنا من سلاح المشاة الذين يطلقون رصاص بنادقهم على الفرنسيين ، ووثب يدخل الخندق . ولما أخرج رأسه لحظة للتعرُّف على ما حلَّ بمعبوده الملازم البحري لم يرَ في الموضع الذي كان فولوديا فيه غير شكل غامض ملتف بمعطف ، ملقى على الأرض ، ووجهه إلى التراب ـ وكان المكان كله يعجُّ بالفرنسيين الذين يطلقون النار على رجالنا

٢٧

التقى فلانج بسريته متقهقرة إلى خط الدفاع الثاني ، ولم يكن ناجياً من



الرجال العشرين الذين أُلحقوا بخدمة مدافع الهاون غير ثمانية تمكنوا من الفرار.

في الساعة التاسعة مساء آب فلانج إلى الناحية الشمالية مع سريته على ظهر قارب يزدحم بالجنود والمدافع والخيول والجرحى. كان الرمي قد توقف تماماً. وكانت النجوم تتلألأ في السماء براقة. لكن ريحاً شديدة تحرِّك البحر. والبروق تزمجر على مستوى الأرض في الحصنين الأول والثاني. وكانت انفجارات تهزُّ الهواء، فيستطيع المرء بفضل ضياء خاطف أن يميز هنا وهناك أشياء سوداء غريبة الشكل، وحجارة مرشوقة فوق الأرض في كل مكان. وكان حريق قد شبَّ قريباً من المستودعات. وكان شعاع أحمر ينعكس في الماء. وظهر القارب حافلاً بالناس تضيئه نيران مدفعية نيقولاس وكأن لهيباً كبيراً يتوهج على الماء في المقدمة البعيدة من سرية ألكسندر، فيتوهج الجزء الأسفل من غيمة دخان تتموَّج هنالك. كانت الأنوار، مثلها مثل الليلة السابقة، هادئة هدوءاً وقحاً في أسطول العدو وتظهر بعيدة في البحر، وأنسام طرية تموِّج سطح الماء في الخليج. وكان المرء يرى، على ضوء الحرائق، صواري سفننا الغارقة التي تغوص في المياه على مهل. ولم يكن أحد يتكلم فوق سطح القارب، ولم يكن يسمع في وسط الضجة المطَّردة التي ترسلها الأمواج التي يشقها القارب خلال سيره غير صفير البخار أو وقع حوافر الخيل تحت السطح. وبين حين وحين يدوِّي صوت الكابتين وهو يصدر أوامره، وتسمع أنات جرحى. وهذا فلانج الذي لم يأكل طوال يومه لقمة واحدة يخرج من جيبه رغيفاً ويروح يقضمه. وتنبثق صورة فولوديا في ذاكرته على غير انتظار، فإذا هو يبكي وينشج بصورة تحرِّك قلوب الجنود المحدقين به.

قال فاسين:

ـ أنظروا صاحبنا! إنه يأكل خبزه وهو يبكي، فلانج هذا!

قال آخر :

ـ إنسان عجيب !

وتابع فاسين كلامه ، وهو يتنهد :

ـ أنظروا ! لقد أشعلوا النار في ثكناتنا يحرقونها . ما أكثر ما بقي فيها من رجالنا ! لقد دفع الفرنسيون باهظاً ثمن نجاحهم . الحمد لله أننا خرجنا أحياء على الأقل .

ـ أمر أليم مع ذلك . إنه عار في جبيننا .

ـ لماذا ؟ أتظن أنهم باقون إلى الأبد ؟ سنطردهم من دون ريب ! شهد الله أننا سنسترد المواقع إذا أمر القيصر بذلك غداً ، مهما يكن عدد الرجال الذين سيقتلون ! لا ، لن يسكت جنودنا على ما حدث ، لا ! نحن لم نترك للعدو غير جدران عارية ... أما المعاقل فنسفناها ... ليرفعوا رايتهم على التلة ما طاب لهم ! لكنهم لن يجرؤوا على التقدّم صوب المدينة ... ألا صبراً قليلاً ! لنعرفنَّ كيف نحاسبهم حين يحين الأوان ! انتظروا قليلاً .

بهذه الجملة ختم كلامه مخاطباً الفرنسيين .

قال رجل آخر يجيبه في اقتناع :

ـ سنثأر منهم طبعاً !

في جميع المواقع المحصنة في سيباستوبول ـ حيث كانت تغلي على مدى شهور حياة تضطرم طاقة متفجرة لا يمكن ضبطها ، وحيث تعاقب على الموت ذلك العدد من الأبطال بعدما أيقظوا في نفوس الأعداء الخوف والكره والإعجاب أخيراً ـ خلال مدة طويلة طويلة ، في تلك التحصينات ذات الكبرياء ، لن تجد في هذه الساعة نفساً واحدة . كل شيء فيها يبدو ميتاً ، غارقاً في دهشة رهيبة . لكن الهدوء لا يخيّم عليها ، فأعمال التخريب لا تزال قائمة . وفي كل مكان ترقد على الأرض التي قلبتها الانفجارات الأخيرة حاملات مدافع ملوية أو

محطمة تسحق بثقلها جثثاً روسية أو فرنسية . والمدافع المصنوعة من صلب ، وقد خرست إلى الأبد ، ألقاها عنف الصدمة في الحفر ، ودفنها التراب المقلوب نصف دفن . وأيّان ألقيت بصرك تجد قذائف وقنابل وجثثاً أخرى ، وحفر ألغام ، وبقايا عوارض ، وشظايا من الصفيح ، وجثثاً صامتة معاطفها رمادية أو زرقاء ، وذلك كله يرتعش في ضوء اللهب الأحمر صادراً عن الانفجارات التي تهزُّ الهواء .

لقد أدرك العدو أن شيئاً غير عادي يجري في مواقع الدفاع من سيباستوبول . فالانفجارات المتعاقبة ، وصمت الموت المخيِّم على التحصينات بين كل انفجار وانفجار ، ذلك كله يجعله يرتعد فرقاً . إنه لا يبرح تحت وطأة المقاومة الهادئة القوية التي اعترضته في النهار ، فلا يجرؤ أن يصدِّق أن عدوّه الذي لا سبيل إلى ضبطه والسيطرة عليه انسحب فعلاً ، فهو ينتظر نهاية تلك الليلة المشؤومة ، ساكناً لا يتحرك ، ومرتعشاً لا يتكلم .

كان جيش سيباستوبول يشبه بحراً متلاطم الموج في ليلة مظلمة ، بحراً يصعد ويهبط وتضطرب كتلته العميقة اضطراباً قلقاً . كان جيش سيباستوبول يتدفق على طول الخليج فوق الجسر وفي الناحية الشمالية ، ويبتعد في بطء في الظلمة الداكنة عن الأماكن التي خلَّف فيها ذلك العدد الكبير كله من أبطاله . كان يبتعد عن تلك الأماكن التي سقاها بدمه بغزارة ، وظلَّ فيها خلال أحد عشر شهراً يصمد أمام عدو يفوقه مرتين من حيث العدد . كان يترك الأماكن التي دافع عنها ، وصدر إليه الآن أمر بمغادرتها دون قتال .

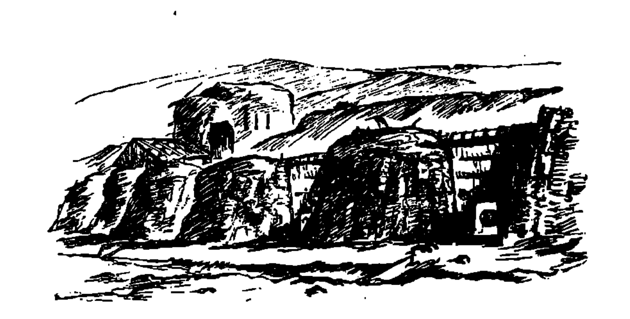
ما كان أثقل الشعور الذي ولَّده هذا الأمر في قلب كل واحد من الروس ! ثم اجتاح نفوسهم شعور آخر هو الخوف من الملاحقة .. لقد أحسَّ هؤلاء الرجال ، منذ ابتعادهم عن الأماكن التي ألفوا القتال فيها ، بأنهم غدوا من دون حماية ، فراحوا يستحثون خطاهم في قلق وخوف عند مدخل الجسر الذي

كانت ريح عاصفة تؤرجحه . وكانت بنادق المشاة تتصادم وهم يشقون لأنفسهم طريقاً خلال زحمة رجال الجيش والعربات وجنود الاحتياط ، في حين راح يمرُّ ضباط على صهواتهم يحملون أوامر ، أو خدم يبكون لأنهم حرموا من حمل أمتعتهم . وكانت المدفعية تستعجل الوصول إلى الخليج وسط قرقعة عجلات عرباتها . ورغم اختلاف الهموم والمشاغل التي تملأ الرؤوس فإن غريزة واحدة هي غريزة البقاء ، رغبة واحدة هي الرغبة في ترك المكان الذي يسيطر عليه شبح الموت هي التي كانت تسيطر على الجميع . كانت هذه العاطفة تتحكم بالجندي المحتضر الراقد على بلاطات رصيف القديس بافلوف مع خمسمائة جريح آخر ، مبتهلاً إلى الله أن يمنَّ عليه بالموت ؛ وتتحكم بجندي يبذل آخر ما يملك من قوى لينَدسَّ في الجمهور الكثيف فيخلي الطريق لضابط كبير يمرُّ على حصانه ؛ وتتحكم بالجنرال وهو ينظم المرور بحزم ، ويهدىء ما في نفوس الجند من اضطراب أفقدهم الصبر ؛ وتتحكم بالبحار الذي جرفته كتيبة سائرة فكادت أن تسحقه ؛ وتتحكم بالضابط الجريح الذي يحمله أربعة جنود على نقالة ثم يضعونه على الأرض قرب سرية نيقولاس لأن سوراً من البشر منعهم من متابعة السير به . وكانت هذه العاطفة تتحكم أيضاً بجندي المدفعية الذي خدم مدفعه ست عشرة سنة ثم دحرجه من أعلى الشاطيء الوعر في الخليج قبل قليل بالتعاون مع عدد من الرفاق تنفيذاً لأوامر صدرت إليه من رؤسائه فأطاعها دون أن يفهمها . وها هم أولاء يبتعدون عنها محركين مجاديف زوارقهم بأقصى سرعة ، وتتحكم بالبحارة الذين شحنوا سفنهم متفجرات لاغراقها . كل واحد من هؤلاء الجنود حينما يصل الى الناحية الشمالية وينتهي من الجسر يرفع قبعته ويرسم إشارة الصليب ، فتجتاح نفسه عندئذ عاطفة جديدة فيها مزيد من العمق والثقل ، عاطفة تشبه في آن واحد عذاب الضمير والعار والغضب . كان كل واحد من هؤلاء الرجال ، حين يلقي من الناحية الشمالية نظرة أخيرة على

سيباستوبول المهجورة يطلق من صدره زفرة ، ويطفح قلبه مرارة ، ويحلف أن يثأر من العدو .

٢٧ كانون الأول

سان بطرسبورج



صدر في سلسلة الجداول

«الغريب» للكاتب الفرنسي البير كامو

«أقاصيص سيباستوبول» للكاتب الروسي ليو تولستوي

ترجمة المحامي سهيل أيوب

الجداول والينابيع ص.ب ١٠٧٤٠ دمشق - ج.ع.س.



الثمن ل.ل.